دراسات تاريخية

دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية محكمة

«تعنى بتاريخ العرب»

تصدر عن لجنة كتابة تاريخ العرب - جامعة دمشق

السنة الربعة والعشرون /العددان/ ٨٣-٨٤/ أيلول - كانون أول/ ٢٠٠٣

الاشتراكات	للأفراد	للمؤسسات	للطلاب
في القطر العربي السوري	(٢٠٠) ل.س	(٤٠٠) ل.س	(١٠٠) ل.س
في الأقطار العربية	(٢٠) دولار أمريكي	(٤٠) دولار أمريكي	
في البلاد الأجنبية	(٣٠) دولار أمريكي	(٦٠) دولار أمريكي	

يمكن الاشتراك بمجموعات الأعداد الصادرة بالبدل نفسه لكل عام، ويتم تسديد بدل الاشتراك بشيك إلى لجنة كتابة تاريخ العرب، أو بتحويل المبلغ إلى حساب جامعة دمشق في مصرف سورية المركزي رقم ٣٣٢٣ / ٢٣.

المراسلات: لجنة كتابة تاريخ العرب - مجلة دراسات تاريخية - جامعة دمشق

المكاتب: جامعة دمشق - هاتف /٢١٢٤٤٦١/

شروط النشر في المجلة

إنّ مجلة دراسات تاريخية هي جزء من مشروع كتابة تاريخ العرب، وخطوة من خطوات تخدم كلها وبمجموعها الغرض الأساسي، وهو كتابة تاريخ العرب من منطلق وحدودي، وضمن منظوري الفهم الحضاري للتاريخ والتقيد بأسلوب البحث العلمي، تحاول طرح الجديد في ميدان البحث في التاريخ العربي، وتسليط الضوء على التيارات العامة التي حركت تاريخ الأمة العربية وأعطته خط مساره الخاص، وإيضاح ما لفه الغموض، وتصحيح ما شوه وكشف الزيف إن وقع، وكل ما يمكن أن يثير جدلاً علمياً واعياً ينتهي عند الحقيقة الموضوعية.

والمجلة ترحب بكم قلم يشارك في إغناء فكرتها وبكل مقترحاً ورأي في مسيرتها، وتنشر البحوث والدراسات في تاريخ العرب وما يتصل به، على أن يراعى فيها ما يلي:

آ- أن تتوافر في البحث الجدة والأصالة والمنهج العلمي.

ب- أن لا يكون منشوراً من قبل.

جـ- أن يكون مطبوعاً على الآلة، خالياً من الأخطاء الطباعية.

د - تعرض البحوث، في حال قبولها مبدئياً، على محكمين متخصصين لبيان مدى صلاحيتها للنشر، وفق المعايير المذكورة أعلاه، والتعديلات اللازم إدخالها عليها عند الاقتضاء. وتبقى عملية التحكيم سرية.

وتحتفظ المجلة بحقها في الحذف والاختزال، بما يتوافق مع أغراض الصياغة.

ولا تنشر المجلة قوائم المصادر والمراجع، ولذلك يحسن أن يتقيد السادة الباحثون بشكليات التوثيق المتعارف عليها، على النحو التالي:

"رحيل مؤرخ"

إلى قراء مجلة دراسات تاريخية الأكارم.

يتزامن إصدار العدد الجديد من مجلة دراسات تاريخية رقم ٨٣-٨٤ مع رحيل المؤرخ الكبير الأستاذ الدكتور محمد خير فارس نائب رئيس لجنة كتابة تاريخ العرب سابقا وأحد مؤسسي هذه اللجنة بالإضافة إلى مجلة دراسات تاريخية.

ولد الدكتور محمد خير فارس في حلب - حارم ١٩٢٩/١١/٣٠. حصل على إجازة في الآداب قسم التاريخ من جامعة دمشق عام ١٩٥١، كما حصل على شهادة ماجستير من معهد الدراسات العربية ودكتوراه في الآداب قسم التاريخ الحديث من جامعة عين شمس عام ١٩٦٦. وتوفاه الله في محرم ١٤٢٥ هـ الموافق لـ ٢٠٠٤/٢/٢٩م. عمل رحمه الله مدرسا في ثانويات حلب منذ عام ١٩٥٤ وحتى عام ١٩٦٦ حيث تم تعيينه مدرساً في كلية الآداب قسم التاريخ في جامعة دمشق.

ترفع إلى أستاذ مساعد عام ١٩٧١، وإلى مرتبة أستاذ عام ١٩٧٧. تسلم مناصب عدة في جامعة دمشق، فقد عين رئيسا لقسم التاريخ أكثر من مرة، وتم تعيينه وكيلا لجامعة دمشق مرتين متتاليتين من عام ١٩٧١-١٩٧٤. درس في العديد من الجامعات العربية. وترك آثارا علمية رائدة، سواء في الكتب التي ألفها أو الأبحاث التي أعدها أو المشاركة في تقويم أبحاث الكثيرين ممن نشروا في مجلة دراسات تاريخية أو غيرها من المجلات العربية.

عرفه طلابه أستاذاً عالما حاذقا معطاء وموجها كريما. وجدوا فيه المعلم والأب والصديق ولم يقتصر الأمر على طلابه وإنما تعداهم إلى زملائه الذين وجدوا فيه هذه الصفات أيضا.

كان رحمه الله دمث الأخلاق، عذب الحديث، وطنياً، متحمسا لقضايا شعبه، مدافعا عن عروبته. لقد أحبه جميع من تعامل معه، حيث وجدوا فيه تجسيدا واقعيا لإنسانية الانسان.

وإننا إذ ننعي لقرائنا الكرام رحيل هذا العالم الجليل، فإننا نذكر بأن هؤلاء العظام لا يرحلون لأنهم باقون بفكرهم ومآثرهم وسيبقون دائما القدوة الحسنة لكل من تتلمذ على أيديهم أو عمل معهم.

ونحن في هذه العجالة لا نعدد مآثر وفضائله فهي أكثر من أن تحصى وإنما نذكر بفضل أساتذتنا وحقهم علينا من جهة، وبعض ما يقتضيه الوفاء من جهة اخرى.

رحم الله الأستاذ الدكتور محمد خير فارس وأسكنه فسيح جناته، إنا لله وإنا إليه راجعون

رئيس جامعة دمشق

رئيس لجنة كتابة تاريخ العرب

الاستاذ الدكتور محمد عصام عوا

محتويات العدد

أعمال تنقيب أثرية

في قلعة حمص سورية: ١٩٩٥-١٩٩٩

بقلم: ج ر د. كينج G. R.D. King

معهد لندن للدراسات الشرقية
والإفريقية، جامعة لندن

Thornhaugh Street, Russell Square,
London WC1HOXG

تعريب عن الإنكليزية:

د. فيصل عبد الله

أستاذ التاريخ القديم

جامعة دمشق

أ- في ذكر المصادر والمراجع (للمرة الأولى):

ذكر اسم المؤلف كاملاً وتاريخ وفاته بين قوسين ( ) إن كان متوفى، اسم المصدر أو المرجع وتحته خط، عدد المجلات أو الأجزاء، اسم المحقق إن وجد، الناشر، المطبعة ورقم الطبعة إن وجدت، مكان النشر وتاريخه، الصفحة.

ب- في محاضر المؤتمرات:

ذكر اسم الباحث كاملاً، عنوان الدراسة كاملاً بين قوسين مزدوجين « »، عنوان الكتاب كاملاً، اسم المحرر أو المحررين، الناشر، المطبعة ورقم الطبعة إن وجدت، مكان النشر ومحله، الصفحة.

جـ- في المجلات:

اسم الباحث كاملاً، عنوان البحث بين قوسين مزدوجين « »، اسم المجلة كاملا وتحته خط، رقم المجلد أو السنة، رقم العدد وتاريخه، الصفحة.

ثم ذكر الرمز الذي يشار به إلى المجلة في المرات التالية.

د - في المخطوطات (للمرة الأولى):

اسم المؤلف كاملاً، عنوان المخطوط كاملاً، الجهة التي تحتفظ به، تاريخ النسخة وعدد أوراقها، رقم الورقة من الإشارة إلى وجهها (أ) وظهرها (ب). ثم ذكر ما يشار به إلى المخطوط في المرات التالية.

وتكتب الأسماء الأجنبية بالعربية واللاتينية بين قوسين ( )، ويشار إلى الملاحظات الهامشية بنجمة * . وترقم الحواشي بأرقام تتسلسل من أول البحث إلى آخره، دون التوقف عند نهاية الصفحات.

يمنح الباحث نسخة من العدد الذي نشر فيه بحثه والأعداد الصادرة خلال ذلك العام، مع عشرين (مستلة) من البحث.

أعمال تنقيب أثرية

في قلعة حمص سورية: ١٩٩٥-١٩٩٩

بقلم: ج ر د. كينج G. R.D. King

معهد لندن للدراسات الشرقية

والإفريقية، جامعة لندن

Thornhaugh Street, Russell Square,
London WCIHOXG

تعريب عن الإنكليزية:

د. فيصل عبد الله

أستاذ التاريخ القديم

جامعة دمشق

تقديم:

تقع قلعة حمص فوق أحد التلال الأثرية والمدنية في سورية، ولكن التل أهمل من الناحية الأثرية إذ شُغل من الجيش حتى السنوات الأخيرة.

ويعود تاريخ التل إلى عصر البرونز الباكر، على الرغم من أن هذا البحث يركز على تحصيناته الإسلامية أولاً. لقد بُني السور الإسلامي الموجود في عصر الأيوبيين وفي عهد السلطان المملوكي بيبرس، ثم ظل بدون ترميم. وهناك نقوش كتابية تشهد على ذلك، إلا أنها فقدت جميعها، وقد بدأت بعثة سورية-بريطانية مشتركة بدراسة قلعة حمص عام ١٩٩٤، واستلزمت الدراسة ذلك توثيق بقايا السور والأبراج، في حين حالت التنقيبات فهم توضع الطبقات الأثرية في مستويات الحجرات الدفاعية في الدور الإسلامي في العصور الوسطى.

مدخل:

تعدّ حمص من بين المدن الرئيسة في سورية الوسطى. وتقع على الطريق المتجه شمالاً من دمشق إلى حماة وحلب. وهي تمتلك طريق العبور إلى البحر الأبيض المتوسط من خلال فتحتها الشهيرة نحو طرابلس من جهة الغرب، ونحو تدمر في الصحراء شرقاً، ويقع نهر العاصي قرب المدينة غرباً، وخلفه بحيرة حمص والتل الأثري القديم قادش، وهو اليوم تل النبي مند، وقد دعيت قلعة حمص في الدور الإسلامي أحيانا قلعة أسامة، وكانت تقع في الجهة الجنوبية من المدينة القديمة المسورة، وباتجاه زاويتها الجنوبية الغربية، ملاصقة للباب المعروف باسم الباب المسدود، ويعتبر من أهم المواقع الأثرية في حمص. وقد كانت تحصينات القلعة تقارن بنظيراتها في قلعة حلب في العصر الوسيط على الرغم من أنها أصغر من حيث المقاييس، ولا ننسى أن تغييرات كثيرة عانت منها قلعة حمص منذ منتصف القرن التاسع عشر إلى الآن وهي الآن بحالة أقل بكثير من حيث الحفظ من قلعة حلب.

إن التل الاصطناعي الذي تنتصب فوقه قلعة حمص، يتوضع فوق صخور رسوبية ملساء بارزة بحدة، مشكّلة مصطبة مرتفعة فوق سهل نهر العاصي، ويبدو التل دائريا تقريبا وقطره حوالي ٢٧٥م، وارتفاعه ٢٩م، بحيث يُشكّل أعلى مصطبة في حمص (شكل ١-٥). وكان ماء العاصي يملأ خندق الحصن قديما. ولكننا نعتقد أنه كان يَملأ محليا بسبب ارتفاع القلعة، وهذا ما حدث في عام ١٩٧٠.

ولا تظهر القلعة في أيامنا بسهولة بسبب الأبنية الحديثة المرتفعة حولها. ولكنها كانت تطل على حمص في عهودها الأولى، وبخاصة عندما كانت التحصينات الإسلامية قائمة وسليمة كما ظن س. ف. فولنيه C. F. Volney في رسم له عام ١٧٨٥ (Volney 1959. 330) (شكل ٢)...

تطور البحوث:

وعلى الرغم من السبر الذي قيل إنه حُفر في القلعة من زمن الانتداب الفرنسي. إلا أنـــه لـــم ينشر أي تقرير على ما يبدو. ثم شرع السيد ماجد الموصللي ثم متحف حمص بحفائر في التل في الجزء الشمالي الغربي منه عام ١٩٧٤، حيث اكْتُشف خلالها تمثال أسد، وهـــو الآن فـــي متحف حمص، وعُثر على نقش كتابي إغريقي يذكر أنه قُدِّم من قبل ميـــادانوس Mayadanos إلى إله الشمس، إيلاجبلوس Elagabolos، مع الشكر. وقد صُنع تقرير عن هذه الحفائر الأوليـة ولكنه غير منشور وهو في متحف حمص باسم، (ماجد الموصللـــي ١٩٧٥، ونجيـــب معـــاذ ١٩٩٥). وقد ذكَرَ لي السيد نجيب معاذ مدير متحف حمص السابق في عام ١٩٩٥، في بدايـة عملنا أن الأرضية التي توصلت إليها التنقيبات السورية الباكرة، تعود إلى الألف الثالثة قبـــل الميلاد (ق. م) وأنها سُكنت في الأدوار الحثية والآرامية اللاحقة.إن مشروع التنقيب الســوري البريطاني المشترك في قلعة حمص، الذي بدأ عام ١٩٩٤، قد طلبه الدكتور سلطان محيســـن المدير العام السابق للآثار ثم وضع تقرير أثري مبدئي للقلعة من البعثة السورية البريطانية في حزيران عام ١٩٩٥، (King Dunalop. Garfi and Tonghini, 1995)، وتبعه تقرير عن الشروط والعلاج، ذاكراً الاحتياجات التقنية للحفاظ على القلعة وكذلك توصيات من أجل وضع برنـــامج تنقيب أثري (Holden 1996). وقد أجرى لاندمارك Landmark استكشافاً سطحياً فـــي كـــانون الأول من عام ١٩٩٦، ووضع خرائط للموقع بقياس ١/٥٠٠، و١/٢٥٠، (شكل ١)، وباشـــر الفريق الأثري السوري–البريطاني المشترك بحفائر في القلعة وفي القطاعـــات B. C. E. G، ورافق ذلك إجراء مسح جيوفيزيائي من قبل كلية الهندسة في جامعة البعث في حمـــص بيـــن ٢٧ تموز و ٢٨ آب من عام ١٩٩٧، وتابع العمل نفسه السيد فريد جبور المديـــر المســـاعد للمشروع السوري– البريطاني في العامين التاليين، وأجرى التنقيب في فتحـــة بـــئر عميقـــة وعمودية في مركز التل، ثم تابع العمل في موسم قصير في شهري آب وأيلـــول مـــن عـــام ١٩٩٩، حيث كشف عن خنادق حول المنطقة J , F شمالاً و C جنوباً، واستمرت الحفائر حتى كتابة هذا التقرير في تشرين الثاني من عام ٢٠٠٠.

خلفية تاريخية:

كما سبق ورأينا، قبل شروعنا بالعمل في الموقع، فقد أوحت لنا الاختبارات السورية والفرنسية غير المنشورة أن مستويات التل العميقة تعود للألف الثالث ق.م. وقد تفحصنا عدداً من المقاطع المحفوظة والمتراصة في الشمال الغربي والجنوب الشرقي من التل، التي تصل حتى الأساس الصخري مباشرة، وكانت المستويات الأثرية الباكرة في معظم أنحاء التل محجوبة تحت زجاج إسلامي من العصر الوسيط، ولكن حيثما كانت ملقاة بعيداً، كانت تظهر المستويات الأثرية الأبكر، وتم أخذ صور فسيفساء مدرجة في أقسام التل عام ١٩٩٧، وجُمع الفخار من أعمق المستويات في الطبقة الصخرية في الجانب الجنوبي الشرقي في عام ١٩٩٩. وكانت تعود إلى عصر البرونز الباكر، وبذلك تشكل أقدم الدلائل على هوية التل. ولكن هذه المعلومات لا تتلاءم مع رأي ن. أليسيف N. Elisseeff (١٩٧١)، وهو أن تأسيس حمص ينسب إلى القائد الهلنستي سلوقس نيكاتور Seleukos Nicator ولم يكن C. Ritter (1908-1855)، مقتنعاً بالربط بين سلوقس وحمص، مشيراً إلى أن أبيّان Appianos (1999, II, XI, 213). قد ذكر في حوالي عام ١٢٥، ما مجموعه ستة عشرة مدينة، قيل إنها شيدت من قبل سلوقس، وهنا لم يشر إلى حمص. ومما يزيد الدهشة أن أبيّان يذكر آرثوزا Arethusa (الرستن) وهي على مقربة من حمص شمالاً. وقد ربط رينيه دوسو R. Dussau بتحفظ بين حمص وسلوقس (١٩٢٧، ١٠٣) ؛ وقد كتب أميانوس مركلينوس Ammianus Marcellinus في حوالي ٣٩٠-٣٩١م، (2000, I, XIV, 809, 69) داعياً المدينة حمص Emissa وتكلم عنها كمدينة في فينيقيا، وتعاصر صور وصيدا وبيروت ودمشق، وينسب ابن حوقل أصول حمص إلى "العمالقة" Amalakites، الذي ألمح ضمناً إلى معنى قدمها السحيق (Ibn Hawqal 1938, 117; al-Istakhri 1967, 61).

إن الدليل الفخاري من عصر البرونز القديم(٤) (EB4)، الذي كُشف عنه في القسم الجنوبي الشرقي البادي للعيان، ويؤكد أن الاستقرار والسكن في تل حمص يعود في الواقع إلى تاريخ أبعد بكثير من العصر الهللنستي.

لقد استولى سن. بومبيوس ماجنوس Cn. Pompeius Magnus على سورية من السلوقيين المنهارين عام ٦٤ق. م. وصارت حمص تحت الحكم الروماني، ولكن من خلال سلالة محلية سمح لها بالبقاء فيها. وقد احتفظت حمص بحكامها المحليين حتى عام ٩٦م، وكان الضريح الضخم لأحد أفراد تلك السلالة وهو سامبسجيراموس Sampsirgeramos، قد شيّد في عام ٧٨ ق.م. كان يقع غرب قلعة التل وبقي حتى عام ١٩١١، حيث تم تفجيره (Sergi. 1952. 204)، وكان سامبسيجراموس يفضل الإقامة في آرثوزا (الرستن) شمالي حمص، على الرغم من أن حمص صارت مكان دفنه، وقد صوّر ضريحه من قبل ل. دولابورد L. de Laborde في عام ١٨٣٨، (شكل ٦).

وعرفت حمص في ظل الحكم الروماني بـ إميسا Emisa وغدت المركز الرئيس لـ: فينيقيا لبنان Phoenicia Libanensis . وجعل دوميتيان Domitian (٨١-٩٦م)، من حمص جزءاً من الإمبراطورية الرومانية وأقام فيها سلالة حاكمة محلية. وشيّد فيها داراً لسك النقود الإمبريالية في عهد أنطونيوس بيوس Antonius Pius (١٣٨-١٦١م).

وعلى الرغم مما تقدم فإن دور القلعة القائمة على التل لم يكن واضحاً في العصر الروماني وما قبله، وكان إليسيف Elisseeff، يعتقد أن المخطط العمراني لساحة حمص وكذلك القلعة في الجزء الجنوبي قد أضيفت من خلال مخطط تنظيمي في العصر الروماني. وتعرفنا على دور السكن والاستقرار الروماني فوق تل القلعة، من خلال وجود Terra Sigillata حيث كشف عنها خلال حفائرنا في المركّب الردمي.

وهناك عدد من الأعمدة الغرانيتية القرنفلية اللون المجلوبة من أسوان على ما يظن وقد توزعت حول القلعة. وينتصب أحدها وسط بركة حديثة في حديقة رسمية شيدها الجيش في القرن العشرين، وقد عُدّت جميع هذه الأعمدة القرنفلية رومانية الأصل.

وكما هي الحال بالنسبة للمعابد السورية الكبرى فيبدو أن تلك المرتبطة بالشمس في حمص قد توسع نفوذها في عصر الرومان، وكان أليسيف قد افترض متبعاً بذلك ودنجتون Waddington أن معبد الشمس في حمص كان مقاماً في مكان جامع نوري الموجود حالياً في المدينة القديمة، على الرغم من أن كوندر Conder يقترح أنه يجب أن يفتش عنه في قمة التل (1883. 43).

على أي حال لا يوجد دليل من القلعة يدعم أو لا يدعم فرضية كوندر حتى الآن، إلا أن اسم إله حمص الرئيس إيلاجبلوس Elagabalos أي إله الجبل، (رب الجبل) قد يدعم وجهة نظر كوندر، إذ إن الجبل مرتبط بتل القلعة نفسها، لأنه لا يوجد في حمص أي جبل طبيعي، وأي كان موقع معبد حمص فقد ظهر منقوشاً فوق عملة المدينة الرومانية، وكان مكاناً مقدساً للقبائل المحلية قبل أن تحقق الديانة الرومانية انتشاراً واسعاً في الإمبراطورية.

لقد كان معبد حمص كثير الزينة بالذهب والفضة وكان فيه حجر أسود (بازلتي؟) مخروطي فبدا وكأنه مركز رئيس للعبادة، وقد ذكر بعض الرواة أن الحجر الأسود هذا كان مماثلاً للحجر الأسود في كعبة مكة قبل الإسلام.

ويمكن تقدير غنى حمص ومعبدها قبل الإسلام من خلال أدوات الترف المنقوشة التي عثر عليها في قمة تل حمص (Seyrig. 952. 204-250). وظهرت شهرة حمص وتقديس الشمس فيها في أرجاء الإمبراطورية الرومانية عندما يمكن أحد المتحمسين لعبادة إيلاجبلوس، إن لم يكن الكاهن الأعلى من أن يصبح إمبراطوراً رومانياً تحت اسم ماركوس أوريلوس أنطونينوس Marcus Aurelius Antoninus ، الذي نقل الحجر الأسود من حمص إلى روما بمراسم غنية المظهر ومسرفة، حيث وبالرغم من الاستنكار الشديد من كبار موظفي الدولة والجيش، استعرضه في موكب في العاصمة الإمبراطورية. وقد روى هذه الأحداث إدوارد جيبون Edward Gibbon بازدراء كبير.

وقد عارض وارفيك بول Warwick Ball، مؤخراً تقليد تبعية المعبد إلى حمص مثيراً احتمال أن طقوس معبد إيميسا Emesa، لم تُقم في حمص، بل يجب أن تتبع معابد بعلبك الضخمة (Ball 2000.37-47). ويضيف بول أن طبوغرافية المكان ونقص المواد الأثرية في حمص يبرهن على أن بعلبك كانت مركزاً للعبادة تلك. إنها فرضية مغرية أن يكون فقدان مواد البناء في حمص مرتبطاً بمعبد ضخم. ولكن ليس هناك أي شيء في حمص يدل على أي معبد مشهور يمكن، ولو بصورة ضئيلة مقارنته بمعبد بعلبك الضخم.

من جهة أخرى لم نتوصل حتى الآن إلى الطبقات الأثرية الرومانية في القلعة، ولكن عثرنا على ما يكفي من الفخار عام ١٩٩٧، الذي يدل على السكن في الدور الروماني للموقع، ومن

المحتمل وجود بنية رومانية تشمل أجزاء منخفضة من الجدار البرجي في الجزء المركزي من التل، التي يمكن اعتبارها رومانية أو بيزنطية بسبب وجود فخار مُصنّع، ومظهر بنيتها العام. كما ظهر فخار مصنع مشابه في حفرة غير نظامية جنوب القطاع (J) عام ١٩٩٨، وهي تعود إلى بناء واسع ولكنه غير مؤرخ. من ناحية ثانية لا توجد آثار معروفة أخرى يمكن أن تربط ببناء روماني حقيقي مثل المعبد!.. وإذا كان المعبد المنسوب إلى إيلاجبلوس في القلعة كما اقترح كوندر، فإنه يجب أن يصنّف فيما بعد العصر الروماني.

وإذا لم يكن المعبد في القلعة إنما في موقع جامع نوري في المدينة القديمة فإن البقايا الأثرية هناك ضئيلة هي الأخرى، وتشمل بعض التيجان الرومانية وحوض أو ناووس من البازلت موضوع الآن في صحن المسجد. وعلى الرغم من أن النتيجة التي توصلنا إليها بعيدة عن أن تكون مقررة، فإن فرضية بول القائلة بأن معبد إيلاجبلوس هو ليس في حمص وإنما في ريف حمص، في بعلبك، هي نظرية جذابة، كما أن التنقيبات الجارية أو السابقة لم تثبت خطأها أو صحتها.

وقد انعكست أهمية حمص العسكرية كملتقى لسلسلة من الطرق الرئيسة من خلالها دورها في حملة الإمبراطور أورليانوس ضد زنوبيا ملكة تدمر وتوسع نفوذها. فقد هزم زنوبيا في حمص عام ٢٧١م، ثم استخدم المدينة كقاعدة للعمليات عندما أطلق هجومه الأخير على تدمر في السنة التالية، وقد حصل مثل هذا الاستخدام فيما يلي زمن الحروب الصليبية، عندما صارت نقطة تجمع لقوات المسلمين بقيادة نور الدين زنكي.

وغدت حمص/ إيميسا مقر الأسقفية لمقاطعة فينيقية ليبانيزا (Phoenicia Libanesai)، بعد اعتناق الإمبراطورية المسيحية، ولعل معبد الشمس الحمصي تحول إلى كنيسة كما حصل في دمشق عندما أصبح معبد جوبيتر كنيسة في آخر القرن الرابع. وهذا يفترض بالطبع أن المعبد يقع في المدينة القديمة حيث يقع مسجد نوري الآن. ومن شأن هذه الفرضية غير الأكيدة أن توضح ما سبق وقيل سابقاً، حيث نسب المسعودي عام ٣٣٦-٣٤٥هـ/ ٩٤٧-٩٥٦م، هذه الكنيسة إلى القديسة هيلينا Helena والدة قسطنطين الأول Constantine I، ووصفها بأنها مؤسسة فوق أربعة أعمدة (أركان كما يذكر). ولكن وصفه غير كاف لتحديد ما كانت تحمله

تلك (الأركان الأربعة) (Masoudi 1861,1, 312). وقد قيل إن رأس القديس يوحنا، قد عثر عليه قرب حمص عام ٤٥٢ وتم دفنه ثانية في كنيسة، يفترض أنها كانت تقوم فوق موقع جامع نوري الحالي -ومن المدهش أن قبر يوحنا المعمدان موجود في مسجد بني أمية الكبير بدمشق، وأن ادعاء هذا الشرف في حمص أمر مشكوك به.

ويوجد في حمص آثار مسيحية أخرى تضم مقاماً يحتوي على مدفن مزين برسوم دينية كانت موجودة في باب السباع. وهناك مجموعة من الرسوم في كنيسة مار اليان (إليان Ilitân) ما تزال في مكانها.

وكانت حمص القاعدة الأخيرة لتقهقر هرقل Heraclius، أمام العرب المسلمين في سورية عام ١٦ هـ/ ٦٣٧م، وكما كان الحال في مدينة دمشق، كذلك فقد تقاسم المسلمون موقع الكنيسة الرئيس في حمص، حيث تم بناء جامع أمامها وبقي الحال هكذا حتى القرن الخامس الهجري أي العاشر الميلادي حيث وصف كل من ابن حقول والمقدسي اقتسام الموقع من قبل الطرفين:

.(Al- Istakhri 1967,16/ Ibn Hawqal 1938,117: Al-Maqdisi 1967,156)

ويعرف الجامع في المدينة القديمة باسم "جامع نوري"، وقد بُني في هذا الموقع من قبل نور الدين زنكي بعد الهزة الأرضية في القرن الثاني عشر، أما الكنيسة فقد تخربت واندثرت إثر ذلك وكرس ما تبقى منها للجامع شيئا فشيئاً.

من جهة أخرى يظل تاريخ قلعة حمص نفسها غير واضح في العهود الرومانية والبيزنطية ولا نستطيع ربطه بأية معلومات معاصرة من مواقع أخرى. كما لا توجد أية معلومات تتعلق بالقلعة في صدر الإسلام على الرغم من أن حمص ذكرت في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين. وقد توفي خالد بن الوليد فاتح حمص فيها عام ٢١ هـ/٦٤٢م وبني مسجد في موقع قبره خارج أسوار المدينة القديمة، ورمم عام ١٩٧٨م.

.(Herzfeld 1943,66-68; al 'ush 1963, 111 – 139; Al- ' ush 1969, 15 – 47)

وقد وصف اليعقوبي اتساع مدينة حمص عام ٢٧٨ هـ/٨٩١م ولكنه لم يذكر القلعة. أما الاصطخري في عام ٣٤٠ هـ/٩٥٠م فتحدث عن تدهور حمص بسبب هجمات البيزنطيين

في شمال سورية في أيامه. وكانت أول رواية عن القلعة من قبل أول مسلم وصلتنا من قبل الجغرافي الفلسطيني المقدسي، حيث يقول في عام ٣٧٥هـ/٩٧٥م أنها ترتفع عالياً لتطل على الأرياف المحيطة (Al-Maqdisi 1967.156). وكتب ابن جبير واصفا قوتها منتصبة جنوب حمص كقلعة منيعة منفصلة عن المدينة (Ibn Jubayr 1952. 267-8). وأشار ياقوت إلى حمص في عام ٦٢٢هـ/١٢٢٥م كمدينة مسورة وقلعتها "...المنيعة المنتصبة فوق تل مرتفع" (Yaqut. ii. 334: Le Strange 1965. 356)، ولابد أن ياقوت أو (مصدره) قد رأى تحصينات العصور الوسطى التي بقيت أجزاء منها حتى يومنا والتي أرّختها نقوش السلطان الأيوبي الملك المجاهد شيركوه الثاني في عام ٥٩٤هـ/١١٩٨م و ٥٩٩هـ/١٢٠٢م. وقد وجدت هذه الكتابات المنقوشة في البرج الثاني وفق ماذكره أليسيف وفان برشم وفاتيو عام ١٩١٤ (Van Berchem: Fatio 1914. 165: Elisséeff. EF). وانعكس اهتمام الأيوبيين بحمص مؤخرا ببنائهم (الباب المسدود) في سور المدينة القديمة تحت القلعة مباشرة. ويؤرخ هذا في عام ٦٤١هـ/١٢٤٤م ولعل ذلك يشير إلى ترميم أو تجديد شامل لتحصينات حمص (Wiet 1941. XI. P. 151: 1952. I. 210: note 16).

وفي عام ٦٦٩هـ/١٢٧١م بعد هزيمة قوات المغول بقيادة هولاكو، قام السلطان المملوكي بيبرس بإصلاح تحصينات قلعة حمص وجعلها مركزا احتياطيا قويا ضد هجمات المغول المقبلة. وقد نشر فان برشم، نقشا كتابيا وجد في الجانب الشرقي من مدخل القلعة، واعتقد أنها كانت شمال شرق البوابة، أي باب الهوى (Van Berchem 1913. Inscription. 13). ولم تلبث هذه الكتابة أن أدخلت في البناء، ويذكرها فان برشم كما يلي: "باسم الله الرحمن الرحيم، أمر بتجديد هذا الحصن المبارك في عهد مولانا السلطان الملك الظاهر، الحكيم العادل، الحارس لحصون التخوم، المستنير بالله المنتصر، ركن الدنيا والدين، أبو الفتح بيبرس، رفيق أمير المؤمنين، وهذا في يوم الثلاثاء، الخامس والعشرين من شعبان سنة ٦٦٩ (٨نيسان ١٢٧١).

وهناك نقش كتابي ثان ومطابق للأول في الجانب الجنوبي الغربي من برج في السور الخارجي، (Van Berchem 1913. Inscription 10. 13-14).

ولست واثقاً من مكان وجودها، ولا يوجد أي كتابة على الآثار الباقية في أيامنا. ومما يدل على أهمية حمص بالنسبة لبيبرس هو إهداؤه تابوتاً خشبيا لضريح خالد بن الوليد الموجود حالياً في متحف دمشق الوطني (1913, 111- 139; al- 'Ush 1969, 15- 47).

ولم يبق من التحصينات الإسلامية الوسطى في القلعة، سوى بقايا جدران وأبراج في الجانب الشمالي من التل لا يزيد ارتفاعها عن ثلاثة أمتار، علما أنها كانت أعلى من ذلك بكثير. وقد تلاشت أعالي السور والأبراج بالكامل في بعض الأماكن، ولكن تفحص محيط قمة التل يرينا أن البنية السفلى للسور ما تزال باقية تحت السطح. وقد أكدت حفائر البعثة الأثرية السورية البريطانية المشتركة بقاء أسس السور الدفاعي في القطاع C في جنوب التل والقطاع F و J في الجانب الشمالي.

وقد كان مدخل القلعة، في العصور الإسلامية وسط تحصينات وبوابة مقوسة في الشمال الشرقي قبالة المدينة وهذه البوابة مسدودة الآن، ولا يمكن التنقيب فيها نظاميا حتى تصبح البنية مستقرة (برج٣ شكل٤). إن نقطة الدخول الحالية إلى القلعة هي الآن بقايا طريق شديد الانحدار، ينعطف نحو جهة الشمال الغربي من التل قاطعا تراكمات أثرية وبقايا تحصينات. إلاّ أن الطريق يبدو حديثا في شكله الحالي، ويقترح منذر الحايك أن الطريق أو المسلك ربما يعود إلى العهد العثماني ومن ثم تحسنت عندما استخدمت القلعة من قبل الجيش الفرنسي السوري. ويضيف السيد حايك أن الغاية من الطريق كانت لتسهيل دخول المدفعية التركية، ولعله على حق خاصة وأنه من الصعب نقل المدفعية إلى أية مسافة من المدخل الملتوي من جهة الشمال الشرقي، أي باب الهوى.

وهناك ممر عمودي مدرج وملتوي لسحب الماء يقع قبالة الجهة الجنوبية من خزان مياه ضخم في الشمال من مركز التل. وكان هذا الممر موضع دراسة مفصلة عام ١٩٩٨ من قبل السيد فريد جبور، المدير المساعد للمشروع السوري البريطاني من أجل قلعة حمص. ويهبط الدرج إلى الجزء المركزي من التل إلى عمق ثلاثين مترا وهو مبني من الحجر البازلتي المقوس والمستطيل عند الجزء الأعلى من الممر العمودي حيث يبدو أنه بني في العصر الإسلامي الوسيط. وقد أعيد بناء معظم الجزء العلوي من قبل الجيش الفرنسي. أما الجزء السفلي من

الممر الأرضي فهو مبنٍ من الآجر وهو دائري الشكل ويلامس قاع التل. وربما كان هذا الآجر يعود للزمن البيزنطي أو الروماني. وقد أخبرنا السيد حايك أن نفقاً يزيد قطره على متر كان يقع إلى جنوب شرق التل عثر عليه في أثناء شق طريق منذ بضع سنوات. ولعل هذا النفق استخدم لتخزين المياه في البئر أسفل الممر. ويمكن مقارنة هذه الحالة بالبئر الكبير، الذي حفر في الصخر في قلعة القاهرة في عهد صلاح الدين في عام ٥٧٢هـ/١١٧٦م، (al-Maqrizi ii, 204; Creswell 1969,ii ,5)، إلا أن المهندسين المعماريين في حمص في العصر الإسلامي كانوا يعثرون على كثير من الآبار من العهد الروماني أو البيزنطي كما هو الحال في مدينة حمص، كما أن أرض التل سهلة الحفر وليست قاسية مثل صخور قلعة القاهرة.

وهناك منشآت أشغال أخرى من العصر الإسلامي الوسيط منها مزلقان ضخم يمتد من أسفل التل إلى قمته في بعض الأماكن. ويبدو أن المزلقان يشكّل آخر تنظيم للتحصينات ويغطي أشكال السور المنهارة والقديمة. وهي بمعظمها من العصر الإسلامي الوسيط. كما أخفى بناء المزلقان طبقات السكن الباكرة في التل القديم، حيث لا تظهر إلا في سقوط المزلقان بعيدا في جهة الجنوب الشرقي من التل.

لقد تحول معظم أرض التل إلى حديقة، كما يوجد مساكن في جهة الشمال، ولكن هذه الأرض المحيطة كانت تشكّل خندقاً مائياً، قيل إنه حفر إلى عمق ٦-٧ أمتار. طبقاً لما ذكر الكولونيل سكير Colonel Squir، الذي شاهد القلعة في عام ١٨٠٢ أن عرض الخندق ٦٠ قدماً (١٨-١٩ متر تقريباً)، (Riller 1155, 1016). كما ذكر كوندر Conder الخندق ولكنه لم يذكر أبعاده (Conder, 1883, 47). وقد كانت تجر المياه إلى الخندق من نهر العاصي، وقد مُلئ بالمياه عام ١٩٧٠، ويروي السكان أنهم ركبوا فيه مراكب صغيرة. ونفترض أن الخندق ذو علاقة بتحصينات العصور الوسطى ولكنه طمس وألغي بسبب وجود الحديقة، فإن من الممكن اختبار ذلك بسهولة.

وبعد سيطرة سليم الأول العثماني على سورية في عام ١٥١٦ شكّلت حمص جزءاً من لواء طرابلس، واستخدم العثمانيون القلعة كموقع قيادة عسكرية تماماً كما فعل المماليك من قبلهم. كما سدوا "الباب المسدود" أسفل سور المدينة. وهناك عدد من الروايات عن القلعة في زمن

الأتراك. فقد رسمها فولينه Volney عام ١٧٨٥ وأظهر التحصينات التي تخربت تماماً (شكل ٢)، (Volney 1959,330). من ناحية ثانية وبعد قيام ثورة ضد غزو قوات القائد المصري. ابراهيم باشا بن محمد علي باشا، فقد نُسفت القلعة بين ١٨٣١ و ١٨٤٠. ولم يبقَ من الأبنية سوى جامع عرف باسم جامع السلطان، ولكنه تلاشى بالكامل منذ ذلك الزمن. ولعل اسم "السلطان" يعود إلى السلطان بيبرس كمؤسس له، وليس إلى نور الدين زنكي أو شيركوه الثاني. ومن المحتمل أن كميات من الحجارة قد أخذت من المكان لاستخدامها في المدينة السلفى بعد تخريب ابراهيم باشا، ولكن هناك سبب يدعو للتفكير في أن القلعة قد صمدت إثر ذلك وبقي منها ارتفاعات أكثر مما هي عليه اليوم، وأن القوات الفرنسية هي التي كانت السبب النهائي في تخريب السور.

ويذكر أ. فون كرمر (A. Von Kremer) القلعة والأبواب في عام ١٨٥٣ (Von Karmer 853, 220-221)، وزار كوندر "Conder" القلعة خلال جولة في سورية بين عام ١٨٨١-١٨٨٢ (Conder, 883, 46-47). وصف فان برشم Van Berchem فاتيو Fatio الموقع في عام ١٨٩٥، بالتعبير أدناه كما سجلت الكتابة النقشية المؤرخة التي أشار إليها أليسيف Elisseeff في البرج الثاني (Van Berchem, Fatio, 1914, 165):

"ليس بعيداً من الباب المسدود، وقرب الزاوية الجنوبية الشرقية من المدينة، يرتفع تل فوقه القلعة ويبدو أنه اصطناعي، مثل بقية قلاع المدن السورية، وما تزال قلعة حمص موجودة بجزء منها حتى بداية القرن التاسع عشر على الأقل. ولم يبقَ سوى أجزاء من جدران، وبرج مخرب وعليه نقش كتابة عربية في الجهة الشمالية حتى عام ١٨٩٥، وتذكر الكتابة اسم السلطان الأيوبي ملك مجاهد شيركوه مؤرخة في السنة ٥٩٤هـ/ ١١٩٨م.

أياً كان التخريب الذي سببه ابراهيم باشا، فإن الأمر تفاقم بسبب القوات الفرنسية استخدمت القلعة كقاعدة عسكرية خلال فترة الانتداب، ويبدو أن البقايا التي انتشرت من السور المغطى قد تداعت في ذلك الوقت. وقد كشفت حفائرنا في قلعة حمص منذ عام ١٩٩٧، اتساع التخريب، الذي سببته القوات الفرنسية، كما قامت بتسوية أجزاء من التل بحوالي مترين من التراب وأقامت عليها ثكنة جنودها. وتعرض التل مؤخراً لمزيد من التخريب بعد إنشاء نظام

البث التلفزيوني في الجهة الشرقية، وضم إليه أرضاً من البقايا الأثرية، وبذلك وضع حد لإمكانية العثور عليها ثانية. وعندما بنى الفرنسيون خزان مياه ضخم وسط القطاع الجنوبي من التل. حالوا بصورة نهائية دون إمكانية الوصول إلى قسم كبير من الطبقات الأثرية. ولعل هذا الخزان الذي يبلغ عمقه ٧ أمتار يضم جزءاً من الخزان الأول الأيوبي أو المملوكي. فإذا كان الحال هكذا فقد أعيد تجديده وتوسيعه من قبل الفرنسيين، وأزيلت جميع آثار الأعمال الأقدم، وجمعت تحت البنية الحالية. إن الأحجار المستخدمة في بناء الخزان الفرنسي الحالي هي البازلت الأسود، وهي مثل تلك التي استخدمت في تحصين القلعة في العصور الوسطى. إن وجود البئر العميق والخزان ربما يعزز وجهة النظر القائلة إنه كان يوجد خزان قديم في التل وحوله الفرنسيون إلى خزان مياه.

وكان من نتيجة ما تقدم وتراكم بقايا الأعمال الإنشائية أن غدا واضحاً خلال موسم ١٩٩٧، أن الأمل ضعيف بالعثور على بقايا أثرية في القطاع الأوسط من التل. إن إزالة القواعد الإسمنتية تحت الثكنات وإجراء التنقيب في الأساسات يستلزم جهوداً كبيرة. وفي الواقع يجب اعتبار القطاعات الأثرية المحجوبة بسبب قواعد جدران الثكنات وكل ما هو محشو تحت الأبنية الفرنسية وما بعدها، أنه يضم آثاراً مهمة. إن الأعمال العائدة للتلفزيون وتلك في بقية القطاعات، كانت آثاراً تخريبية. إن بذل الجهود الأثرية بالنسبة لقلعة حمص متوقف الآن على محيط التل حيث يمكن تتبع آثار التحصينات والحجرات ثم الوصول إلى أرضيات أثرية مضمونة. هنا نستطيع أن نفهم التحصينات الإسلامية ونربطها بما سبقها.

التحصينات الإسلامية:

لا زالت توجد قواعد أبراج إسلامية شمال القلعة، ويوجد أمامها بنية قناة وبئر من بقايا الأحجار الرسوبية البيضاء المصفرة، ويتكون السطح الداخلي من أحجار سوداء أصغر وبُني المزلقان من البازلت وثبتت حجارته بملاط جصي قاسٍ.

وبصورة عامة، فإن واجهات الأبراج الخارجية بحالة جيدة في حين أن النوعية الرديئة لأحجار البنية البازلتية قد ساهمت بانهيارها وهناك أمثلة عرضية من الصخور البازلتية الرديئة ويوجد عليها تزيينات. كما استخدمت للإصلاح والترميم وخاصة الصغيرة منها.

من جهة أخرى يبدو أن الصخور الكلسية البيضاء الصفراوية الهشة قليلة الكمية، أما أحجار البناء التقليدية في حمص فهي من البازلت ومصدرها من مقلع طبيعي مكشوف يقع غرب المدينة. وبالعكس فقد استورد الصخر الرسوبي من أماكن أخرى. ومن المفيد أن يتساءل المرء إذا كانت الحجارة الرسوبية قد اقتلعت من الرستن المعروفة بـ اريتوزا Arethusa، في العصر الروماني، التي تقع على مقربة من حمص شمالاً. وكان لها أسواراً رومانية كلسية رسوبية مشابهة لتلك الموجودة في قلعة حمص. ولا نرى في الرستن اليوم سوى أساسات بوابة ضخمة وبقية جدار قصير وممتد قليلاً. ولعل حجارة الجزء العلوي من أسوار اريتوزا قد نُقل واستخدم ثانية لبناء واجهات تحصينات قلعة حمص في العصر الإسلامي، لأنها كانت حجارة ضخمة مهيبة بيضاء وتناسب معظم التحصينات.

واستخدمت الأعمدة البازلتية لتدعيم الأبراج والأسوار والحدود في قلعة حمص وقد رصفت هذه الأعمدة أفقياً ولا يرى منها سوى محيطها في الطريق. ونصادف هذا الاستخدام للأعمدة في التدعيم في أسوار مدينة حمص. وقد ربط كريسويل Creswell استخدام الأعمدة المداميك بالعصر الإسلامي في مصر وسورية وغيرهما (Creswell 1940. ii. 359-360: Creswell 1952. I, 210). ويضيف إن أقدم استخدام لمثل هذه الطريقة، كانت في بناء ابن طولون لحاجز الأمواج في ميناء عكا (Acre)، في فلسطين، بين ٢٦٤هـ/ ٨٧٨م، و ٢٧٠/٨٨٣م. بعد ذلك ظهرت الأعمدة المداميك في العمارة الفاطمية، بما فيها أسوار القاهرة التي بنيت بأمر من بدر الجمالي القائد الأرمني الذي جاء إلى مصر مع حاشية من سورية في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. وتصبح هذه الطريقة عامة في العمارة السورية سواء في العصر الإسلامي أم في زمن الغزو الفرنجي، وتجلّت باستخدام الأعمدة لتدعيم الأسوار وثقبها من قبل الجنود أو ضد قذائف المنجنيقات.

المزلقان "أي المنحدر الاصطناعي":

لقد تطلب بناء مزلقان قلعة حمص إلقاء آلاف الأطنان من التراب فوق التل لتشكيل مصطبة شديدة الانحدار. ورصفت بالحجارة السوداء البازلتية وثبتت بملاط رسوبي بثخانة مترين تقريباً. ودعمت بالأعمدة البازلتية كما ذكر أعلاه، حيث رصفت في الزوايا اليمنى في ملاط

جصي، ونرى مثال ذلك فيما تبقى منها على امتداد الجزء الأسفل الغربي من التل. وقد بقيت الحجارة البازلتية التي تغطي المزلقان بحالة جيدة، ولكن حيثما سقطت بعيداً، ينكشف مستطيل واسع من الحجارة المصفوفة بالطول على سطح المنحدر، والبارزة نحو الأعلى. ويمكن رؤيتها على طول الجزء الغربي والجنوبي من المزلقان حيث توزعت بالتساوي بين البنية التي تشكّل المنحدر، وقد أفادت هذه الحجارة الطويلة كبراشيم أو مسامير بارزة بوضوح من السطح الممهد نسبياً والذي يحيط بالبنية البازلتية.

ما تحت مزلقان السور الدائري:

لقد بني المزلقان فوق سور دائري أو ساتر يمكن رؤيته حيث تبعثر المزلقان بعيداً أو إنه قد سرق، ويبدو أنه كانت توجد ثلاث طبقات من هذا السور الدائري الذي يطوّق التل القديم، وكان مرتفعاً فوق جميع التشكيلات المركزية. التي لا يعرف تاريخها تماماً، على الرغم من أننا نعتبرها جميعها إسلامية من العصر الوسيط. ويوجد قرب التل سور دائري ناتئ طويل غير مرتفع قريب من أساسه. يشكّل قاعدة السور الأساسي. ويوجد بنية من الدبش الممتد المكشوف (وقد تكون كشفت بقصد السرقة)، وتقع جنوب غرب التل، ومن المحتمل أنها تشكل استمرار خط السور المستور في الأسفل.

ويبدو في أعلى التل، حيث تبعثر المزلقان سور مديد مرتفع يطوق قلعة التل، وكذلك أسوار ثانية دائرية. ويوجد جدار طويل ضخم على امتداد الجنوب انطلاقاً من الطريق الحديثة الإسمنتية المؤدية إلى القلعة. وتوجد فتحة أو مهرب عبر هذا السور الطويل. وقد بني هذا السور من صخور بناء بازلتية سوداء مربعة ومستطيلة ومقطوعة جيداً ونسبياً. ونظراً لوجود الفتحة يجب أن نفترض أن السور أقدم من المزلقان لأن وجود هذا الأخير قد سدّ الفتحة تماماً، وقد دلّ على وضعية السور المستور الوسيط آثار جزئية من قواعد برجين مبنيين من الدبش البازلتي وواجهة صخور رسوبية مستطيلة. ويظهر أحدهما من جنوب التل في حين أن الآخر مجاور للطريق الإسمنتية الحديثة المتجهة إلى قمة القلعة.

الأبراج الباقية والسور المستور:

إن البقايا الأثرية للأبراج والأسوار في قمة التل، تشكّل سوراً دائرياً مركزياً هو الأكثر ارتفاعاً، والأفضل بقاءً في جهة الشمال والشرق من القلعة (شكل ٧). ولم يبقَ أي من الأبراج أو السور المستور على ارتفاعه الأصلي، بل تلاشت البنية العليا بكاملها في بعض الأماكن. برغم ذلك يمكن تتبع الامتدادات المتدرجة للسور الدائري العلوي قرب قمة المزلقان، وقد أكدت حفائر عام ١٩٩٧ و ١٩٩٩، التي استمرت حتى عام ٢٠٠٠، هذه النقطة.

وبالنتيجة فقد بقيت آثار خمسة أبراج محددة جيداً ومرتبطة بالسور الدائري العلوي. وظلت قائمة في محيط القلعة، ويقع البرج رقم ١ في أقصى الغرب فوق مصطبة إسمنتية في الجانب الشمالي الشرقي. ويقع البرج الثاني بعيداً إلى الشمال والشرق من البرج الأول، أما البرج الثالث، وهو باب الهوى فيقع إلى الشرق أيضاً، وشمال شرق التل قرب البرج الرابع وعلى مرأى منه. ويقع البرج الخامس والأخير من هذه الدفاعات في الجانب الشرقي من التل وإلى جنوب البرج الرابع.

البرجان الأول والثاني:

لقد بنيت واجهة البرج الأول من صخور رسوبية بيضاء وصفراء صنعت مكعبة الشكل (وصفناها أعلاه)، بالإضافة إلى بنية بازلتية صغيرة في الأجزاء الداخلية غير المرئية. وأضيفت بنية متأخرة عليه، ولكن بقي البرج الأصلي محدداً في المخطط. ويقع البرج الثاني شرق الأول وقد بقي منه ما يدل عليه (شكل ٧).

ويبدو واضحاً الإشارات الموضوعة من أجل التدعيمات التي أجريت عام ١٩٥٢ (Elisseeff. FF). وقد بني البرج من حجارة كلسية مشابهة بقياساتها لنظيراتها في البرج الأول. ولم يكتمل مخططها بعد، وبقي في الجهة العلوية عقدة سهم مميزة وتامة. وبقي من البناء البرجي ارتفاع ١٣ طبقة، وهو متوازٍ مع "الباب المسدود" الوحيد الباقي المؤدي للمدينة ويقع أسفل تل القلعة جنوب سور حمص. ودُعّم البرج الثاني بأعمدة بازلتية استخدمت للمرة الثانية. وما يزال هناك مزيد من البقايا المعمارية في أسفل منحدر التل قبالة البرج الثاني.

البرج الثالث (البوابة الشمالية الشرقية، باب الهوى):

يضم البرج الثالث الملحوظ في شمال شرق القلعة، البوابة المعروفة محلياً باسم "باب الـهوى" وكان المدخل الوحيد للقلعة في العصور الإسلامية الوسيطة. وهذه البوابة هي التي تظهر في رسم فولينه Volney عام ١٧٨٥، (شكل ٢ و ٤). فقد كانت بناء هائلاً مـن حيـث التصميـم، وتذكّرنا بالمدخل المحفوظ جيدا لقلعة حلب، وإن كانت أصغر منه بكثير. وقد بقي مـن بنيـة باب الهوى حوالي سبعة أمتار إلى جهة الشمال ولكنه يمتد شمالاً أكثر، وبني أسفل واجهة التل وأعلى النقطة الوسط من ارتفاع التل. وبنى الجانب الشمالي من حجارة مماثلة للـبرج الأول والثاني. أما السطح غير البارز، فهو مكون من بقايا بازلتية غير متساوية، في حين أن الوجوه الخارجية مكونة من مكعبات حجرية كلسية عريضة صفراء بيضاء. ولعل قسما من الجـزء الداخلي للبنية العلوية لباب الهوى قد مُلئ بالتراب والدبش. وقد أعيد استخدام الأعمدة البازلتية وأقحمت في سور برج باب الهوى. وهي ماثلة لما سبق ذكره في سور القلعة. ويوجد قـوس في أعلى البوابة، ولكنه سدّ بمعظمه. وهناك نواقص غير منتظمة مفتوحة مباشرة فوق البوابـة وملئت بصفوف من الحجارة البازلتية الصغيرة والمرتبة، وتشكل عقبة في واجهة البرج: وهي تعدّ ترميما. وهناك تصدّع ممتد حتى الأعلى من الفتحات المهشمة فوق القوس. وهذا يعكـس كثيرا أو قليلا التبدل في البناء بين صف الحجارة العريضة المكونة لنصف الارتفـاع شـمالا والحجارة الصغيرة للبنية الرئيسة لنصف الجزء الجنوبي من باب الهوى، كمـا توجـد كتـل حجارة كلسية عريضة في قمة البناء مكسوة ببنية بازلتية. إن عملية جمع نوعين مـن مـواد البناء المتعارضة في الارتفاع الرئيس لبرج البوابة يثير أسئلة مهمة حول مراحل عمارتـها. ويوجد تسع مستطيلات تباعد الحجارة البازلتية المفردة فوق البوابة. ويتوقع أن يكـون هـذا أساس لوحة عريضة لكتابة نقشت فوق القوس. وقد اعتبرنا هذا مكان الكتابة المفقـودة التـي تسجل التجديد المنفذ من قبل الظاهر بيبرس في شعبان ٦٦٩هـ/ ١٢٧١م، والتي قال: "فـان برشم Van Berrchem"، إنه رآها على الجهة الشرقية للمدخل. وبما أن باب الهوى هو المدخل الرسمي الوحيد إلى القلعة، فيبدو أن هذه هي البوابة التي أشار إليها "برشم". ويوجـد قبالـة القوس المملوء لباب الهوى آثار مدخل متهاو لا يستعمل مبنيّ من الحجر الكلسي ويتجه ممره من المدينة إلى التل.

إن جميع الآثار المعمارية التي نفترض أنها أخذت من المدينة قد تلاشت الآن. وعندما نقترب من باب الهوى من جهة حمص ونصبح جانب الممر الملتوي، فإن انعطافاً قوياً واحداً إلى اليمين يفضي إلى المدخل المقوس في باب الهوى. وهذا المدخل والممر مطمور الآن ولكنه يستمرّ بالعمق إلى داخل التل، وهناك مدخل مقوس إلى الجنوب من الممر، وهو الآخر مسدود بالتراب. وقد شرعنا بالتنقيب في القطاع G خلال موسم ١٩٩٧، من أجل التعرف على امتداد أنظمة المرور هذه.

إن الوصول إلى الممر المتهاوي والبوابة المقوسة في باب الهوى هو الآن في غاية الصعوبة سواء كان من قمة التل أم من أسفل المدينة. وفي موسم تنقيبات عام ١٩٩٧، نظّفت بوابة البرج من الردميات لتحضيرها للتصوير. وقبل الشروع بأي تنقيبات أثرية أخرى في باب الهوى يجب تدعيم البناء.

البرج الرابع والخامس:

يقع البرج الرابع جنوب شرق باب الهوى، وهو محفوظ جيدا وبني كالبقية من الحجر الليموني العريض. كما دمجت أعمدة قديمة كدعامات. وبعد تفحص قسم من البنية وهو مفقود الآن من أعلى الواجهة، حيث يوجد فتحة رمي السهام غالباً. وجدنا غرفة داخلية مليئة بالتراب، وقد بقي من واجهة البرج ارتفاع أحد عشر صفاً من حجارة البناء.

ويقع بروز بعيداً إلى الجنوب الشرقي، ألا وهو البرج الخامس، وهو متطابق بنائيا مع الأبراج الموصوفة أعلاه. وبقيت سبعة صفوف حجريةٍ مرتفعة في الشمال الشرقي. ويوجد في أدنى البرج مباشرة إلى الجهة الشرقية الجنوبية، تماماً فوق منتصف الطريق الذي يحدّد منحدر التل. آثار بناء من الحجر الليموني والدشم البازلتية. ويجب أن يكون برجا أو بروزا منخفضا متفق مع السور الدائري الوسيط.

السلم الزمني Chronology:

لا نستطيع أن نحدد بدقة مطلقة تاريخ بناء التحصينات، وعلى الرغم من ذلك، لا يمكن الشك في كونها بُنيت في العصر الإسلامي الوسيط، فكما رأينا، يذكر المقدسي القلعة في آخر القرن

الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. ولكنه لم يقل شيئاً عن التحصينات في ذلك التاريخ. ولعل الأتابكي نور الدين محمود زنكي قد حصّن القلعة في سنوات منتصف القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. تماماً كما فعل في حلب. ولكن يجب إثبات ذلك، وكان له اهتمام كبير بحمص كنقطة انطلاق لهجوماته غرباً ضد الصليبيين، وكمعبر لطموحه جنوباً باتجاه دمشق. وانعكس اهتمامه في واقع الأمر بحمص عندما بنى جامع حمص الكبير المعروف باسم جامع نوري، كما بنى مدرسة في المدينة لابن أبي أسرون / عشرون. وقد تلاشت الآن. من جهة أخرى، لا يوجد حالياً، أي وسيلة للربط بينه وبين أعمال تحصينات القلعة.

وطبقاً لما ذكره أليسيف ورأيناه في البرج الثاني في الشمال حيث توجد كتابة رسمية باسم الأمير الأيوبي الملك المجاهد شيركوه مؤرخة في ٥٩٤هـ/١١٩٨م، يبدو أن جميع الأبراج الباقية تعزى إلى شيركوه الثاني، وكذلك متانة البناء، ولكن تأريخ السور الدائري الأدنى- الوسيط غير واضح. كما لا نعلم متى بني المزلقان، ولكن يمكن الاستنتاج أن ذلك قد تمّ بعد إكمال السور الدائري.

وكما رأينا، فقد رمّم بيبرس القلعة بعد استيلائه عل السلطة في عام ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م، ويؤرخ عمله بدقة في شعبان ٦٦٩/ نيسان ١٢٧١م، بفضل كتابة سُجلت حديثاً من قبل "بِرشِم" وفاتيو، ولكن نقش بيبرس لم يبقَ في المكان طويلاً مثله مثل بقية الكتابات العربية التي ذكرها الإخباريون الأوائل. وإن تأريخ ترميم باب الهوى أمر معقد ولكنه حدث في دور من الزمن. وسبق أن بيّنا العلاقة بين سور القلعة وسور المدينة القديمة في حمص. فقد ذكر ابن جبير أسوار حمص في عام ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م، بتعبير يمكن من خلاله نسبة التحصينات في القلعة إليها (Ibn Jubayr, 1952):

"إن أسوار المدينة هي من أقدم الآثار وأعظمها اتساعاً، وهي مبنية من الحجارة السود القاسية المصفوفة بإحكام. بواباتها الحديدية شاهقة الارتفاع، ترهب عند النظر من أعلاها، وتخيف بازدراء. وأحيطت بأسوار محلقة في الجو، جيدة التحصين".

إنه لمن المشكوك فيه.إذا كانت خرائب سور المدينة القديمة التي نراها اليوم، هي نفسها التي وثقها ابن جبير، خاصة وأن الباب المسدود يحمل كتابة مؤرخة في ٦٤١هـ/ ١٢٤٤م، (Wiet, 1941, xi. 151; Cres Well 1940. I. 210. note 16).

إن القطع المتبقية من سور مدينة حمص تكشف عن مميزات تنطبق على سور القلعة على الرغم من أن سور القلعة كان قوياً وأكثر ضخامة. إن الكتابة المؤرخة على الباب المسدود المسجلة من قبل فييت "Wiet" تفترض وجود إقحام في سور المدينة. وقد بني على شكل سور القلعة نفسه تماماً؛ وما يمكن قوله الآن هو إن كتابة الباب المسدود المؤرخة ترينا أن العمارة الحربية في حمص قد بقيت من اهتمامات النظام في آخر العهد الأيوبي.

تنقيبات ١٩٩٧ السورية البريطانية:

كان الهدف الرئيس من موسم حفائر عام ١٩٩٧، وهو البحث والتفحص وتأريخ آثار الدور الإسلامي. إن عدم استقرار البنية القائمة قلّل من مساحة المكان الذي يجب الحفر فيه في هذا الموسم إذ إن التدعيم أمر ضروري قبل الحفر.

وقد لفت نظرنا في البدء آثار مجموعة جدران على السطح جنوب القطاع B وقد استخدم هذا الركن في العصر الحديث من قبل الجيش الفرنسي والسوري كحديقة (ثم سميناها "نادي الضباط"، على ضوء المعلومات المحلية ودورها في السابق) وعرفنا تاريخ المكان من خلال تأريخ كُتب على مصطبة إسمنتية شمال الحديقة. ويوجد بركة مبطنة بالإسمنت مع أعمدة غرانيتية بنفسجية من العصر الروماني، أعيد استخدامها هنا.

وقد استحق اهتمامنا من أجل التنقيب ظهور قوس وآثار في جوار الحافة الجنوبية من القطاع C في القلعة، وكما بدا لنا عند الاطلاع الأول على المكان، وجدنا أنه نجا من اهتمام الفرنسيين زمن الانتداب وكذلك عندما استخدم التل من قبل الجيش السوري، الذي لم يبدل الإسمنت الذي يميز إعادة استخدام مثل هذه الغرف في شمال القطاع F بين البرجين ٢ و٣ (باب السهوى). بالإضافة إلى ذلك، كان هدف حفائرنا إثبات أن القوات الفرنسية قد ألحقت مزيداً من التخريب في القطاع C.

ثم قمنا بسبر في القطاع D وسط التل لمعرفة اتساع الجزء المركزي من القلعة ومدى انضوائه على بنية قديمة، أو أنها تلاشت جميعها بفعل البناء الحديث خلال استخدامه من قبل القوات الفرنسية ثم السورية. وقامت جامعة البعث في حمص بمسح لدراسة وتحديد مكان ومقاومة البنية التحتية واستعنا بأدوات من الجيش السوري لعرض البنية التي دلت عليها أعمال المسح والمقاومة.

ونظفنا القطاع F في جهة الشمال، وظهر مجموعة من الأقبية تشبه الغرف منتشرة على محيط القلعة وقد سلحت بالإسمنت بعد تحويلها إلى مراحيض من قبل الجيش الفرنسي أو السوري، ولكنها كانت في الأصل غرفاً شبيهة للغرفة رقم ١ في القطاع C في جنوب القلعة.

وقمنا بحفر خندق في القطاع G غرب باب الهوى مباشرة وذلك بقصد التعرف على البنية داخل القلعة، التي يمكن أن ترتبط بالممرات التي يجب أن تؤدي إلى داخل القلعة من بوابة الطريق الخارجي. وكانت جميع أعمال الحفر في الجانب الشمالي ذات طبيعة محدودة بسبب عدم ثبات السور والأبراج المجاورة. وكانت هذه هي الحال بالنسبة للبنية المرتبطة بباب الهوى.

١- القطاع B:

لقد صار واضحاً أن القطاع B مضطرب وغير ثابت ولا توجد آثار في المستويات الأولى ولا لوازم تجهيزات في عمق مناسب خلال عملنا في هذا الموسم.

وقد أثبتت الحفائر في ردميات بعمق ١,٢٠م، في حديقة الضباط أنه توجد انقطاعات واضطراب بسبب حفر الدشم الحديثة والمتعددة، وقد وجد تحتها طبقة متجانسة من الفخار المرمي الذي أنتج في الدور المملوكي. من جهة أخرى يجب إعداد دراسات منتقاة لتقدير سلم زمني يمثل ما تقدم، وكان هذا المرمى الفخاري يغطي جداراً حجرياً وركاماً ربط معه، ويقع إلى شمال الخندق. ولم يبقَ من الجدار سوى صفين وبعرض أقل من ٣٠ سم. وعثرنا قرب الجدار على كسرة حجر بازلتي وجزء من طاحون ومدق.

٢- القطاع C الغرفة ١:

لقد فتحنا خندقاً في القطاع C جنوب محيط القلعة لتوضيح طبيعة القوس الذي كان بارزاً من الأرضية، وكان له الأفضلية في التنقيب. وكان مجاوراً لقطع متبقية من الجدار المستور. وثبت أن هناك غرفة محفوظة جيداً نشير إليها بالغرفة رقم ١ (شكل٨). وكان لها ممر أرضي يقود إلى الأسفل خلال قوس في جدارها الشرقي. وكان واضحاً وجود غرفة مجاورة إلى جهة الغرب ولكن لم تنقب في موسم عام ١٩٩٧.

وبعد نقل أكثر من متر من الردم ظهرت حجارة البناء الليمونية، وكشف عن بنية معقدة داخل الغرفة. ووجد عقب جصي مقوس ناتئ جانب وجه الجدار المستور ويتعلق هذا بالمستوى الأول، وكان انحناؤه موازياً الشمال والجنوب، ويتجه بعكس اتجاه قوس الغرفة وظهر بعد التبدل إلى المستوى التالي. وقد أقحم قوس جديد في هذا المستوى الأخير ولكنه مواز لخط الشرق/غرب. وقد تخرب القوس الأول وسقط إلى مستوى بروزه خلال بناء هذا القوس الأخير، هذا ولا نستطيع تأريخ أي مستوى منفرد في الوقت الحاضر انطلاقاً من ملاحظة سلسلة نتائج واقع البناء.

٣- القطاع D:

لقد تركزت دراسة المقاومة الجيوفيزيائية في البداية في القطاع D في الجزء المتوسط من التل وقد أدار هذا العمل جامعة البعث في حمص كأول تجربة في مجال الدراسة الأثرية. واستمرت الدراسة حتى عام ١٩٩٨، ونحن مدينون إلى الدكتور عبد الماجد شيخ حسين رئيس جامعة البعث الأسبق لتسهيل عمل الدراسة الجيوفيزيائية من قبل الجامعة. ولكي نتفحص مستوى ما تحت الأرض، الذي تم التحقق منه بفضل دراسة الجامعة في المنطقة D فقد تم استخدام جهاز (بنهامس JCB Banhama)، الذي أعارنا إياه الجيش السوري ولذا نتقدم بالشكر للكرم والدعم المقدم من العماد أول مصطفى طلاس وزير الدفاع. فقد استخدمنا الجهاز لتوضيح وفهم اخر المستويات المرصوصة المدفوع إلى الأسفل بفعل عمل الجيش الفرنسي. ووصل التنقيب إلى عمق مترين، وكشف عن بنية كثيفة من الإسمنت حيث شغلت منطقة واسعة في مركز التل إلى جهة خزان الماء المبني من قبل الفرنسيين. وأفترض أن أساس هذا

البناء الإسمنتي يمتد إلى الأسفل ولربما حتى القاع الصخري إن وجود هذا البنـــاء. وخـزان المياه الفرنسي إلى الشمال وكذلك منشأة التلفزيون الهوائية وغيرها من الأبنية يعني أن جــزءاً كبيراً من مركز التل قد ضاع بالنسبة للدراسة الأثرية.

٤- القطاع E :

لقد اختير القطاع E للتنقيب بالتعاون مع جامعة البعث. وتم الكشف عن مستوى ســكن علــى عمق ١,٥٠م، تحت مستوى الأرضية القائمة حيث كشف عن مستوى نباتي متفحـــم وكذلـك الدبش، وكان هذا بفضل آلة قطع من الجيش السوري. وتم العثور على بقايا جدار على عمـق ٢٣,٥٠م، من مستوى الأرض.

٥- القطاع F:

كانت المنطقة F عبارة عن كوى أو ما يشبه غرف من جهة الغرب من برج باب الهوى وهي تصطف باتجاه الشمال عن محيط التل وقد تم تنظيفها جميعاً. واعتبر بناؤهـــا مـــن العصـــر الوسيط وتتشابه الكُوى من حيث الشكل والتوضع للغرفة رقم ١، في القطاع C. وقـــد أعيـــد استخدامها من قبل الجيش الفرنسي ثم السوري كمراحيض. وهذا ما سبب إغلاق باب الطريق التي تصل السور -من جهة الشرق والغرب- بتلك الحجرات، وتم تركيب أبواب جديدة وفتـــح طرق إلى جهة الجنوب، وتم إضافة طبقة إسمنتية ومستوى تصريف في هذا الدور المتـــأخر. ولم نحاول اختراق هذه الطبقات الإسمنتية كي نصل إلى الطبقـــات الأقـــدم لأن التحصينـــات المجاورة في الشمال والشمال الشرقي للقلعة غير آمنة في الوقت الحـــالي ولا تســـمح لآلات الحفر بالعمل قربها.

٦-القطاع G:

إنه لمن الصعب التنقيب في أي مكان قرب باب الهوى بسبب عدم استقرار البنـــاء، وبســـبب الأبنية الحالية التي أقامها الفرنسيون أو التي ضمت إلى التلفزيون. وقد حدد لنا هذا الوضـــع منطقة التنقيب، وتمكنا ضمن هذا الوضع من فتح خندق في المنطقة G إلى الغرب من بـــاب

الهوى حيث يعمل موظفون في محطة التلفزيون في القلعة والذين ذكروا وجود نفق أو ممـــر ومدخل عثر عليه في أثناء عملية البناء عام ١٩٧٠.

وبعد كشف المنطقة G المملوءة، نأتي على ردميات على عمق ١,٥٠م، وتوقفنا عند هذا الحـد بعد أن قررنا بأنه غير آمن لنا الاستمرار أعمق من ذلك وعندما يمكن التوصل إلـــى تدعيـم وتمتين باب الهوى، يمكن الشروع بدراسة مهمة عن القلعة، ويمكن دراســـة فـــي التصميـم الداخلي لباب الهوى وممره الداخلي في المنطقة G.

الحفائر السورية- البريطانية عام ١٩٩٩:

وقد كان الهدف من العمل خلال هذا الموسم القصير أولا توسيع التنقيب لتحديد غرف القلعـــة جنوبا في المنطقة C إلى الغرب ١، ثانياً تفحص الطبقات الأثرية وعلاقة البرج رقـــم ٢ فـــى الشمال مع المزلقان، والجدار أو السور المستور والحجر التي تحولت إلى مراحيض فى جهـة الشمال في المنطقة F و J. كما تفحصنا الطبقات الأثرية المنقبة السفلى فـــي جهـــة الجنـــوب الشرقي من التل.

١- القطاع C:

شرعنا بالبحث في هذا القطاع C عن آثار جدران الغرف التي تمتد داخـــل الخـــط الجنوبـــي للسور الدائري متابعين العمل انطلاقا من الغرفة رقم ١، حيث عملنا في عام ١٩٩٧. وكـــانت الغرف رقم ٢ و ٣و ٤ الافتراضية قد حددت، بالكشف عن أعالي الســـور بعمـــق ٢٠ ســـم، (شكل ٩) ونظرا لمحدودية التمويل المتيسر. فقد كان من المتعذر الإقدام على مزيد من العمـل في هذه المنطقة خلال موسم ١٩٩٩، وقمنا بالمزيد خلال موسم عام ٢٠٠٠، وهو زمن كتابـة التقرير. فقد تمّ التعرف على جدران من الحجر القاسي الغرف ١ و٢ و ٣. وقد ثبت البنـــاء ببلاط إسمنتى يشبه الجص وكان عرض الجدار هنا ١,٥م، هذا ويشير إلى وجود بناء أساسي. وتابعنا التنقيب في الغرفة رقم ١ خلال سطح المستوى الأرضي، التي وصلنـــا إليـها عـــام ١٩٩٧، في النصف الغربي من الخندق وكشفنا عن سطح مستوى من الحصى. وقد ربطـــت

اللقى ذهنيا مع سطح الأرضية المختوم وهو فخار من إنتاج تل مينيس، ورغم أن هذا الفخار من البقايا، إلا أنه مهم ويدل على نشاط الموقع في القرن الحادي عشر الميلادي.

٢- القطاع F و J:

كان غرضنا من العمل في الجانب الشمالي من القلعة في القطاعين F ـ J هو استغلال الغرفة المنظفة التي دعمتها مصلحة الآثار عام ١٩٩٨، وقد أملنا في نهاية المطاف إيجاد العلاقة الطبقية الأثرية بين مختلف الغرف والأبراج في الجانب من التل (شكل ٧)، لقد عدّت الأبواج القائمة من العصر الأيوبي على ضوء النقش الكتابي المؤرخ والمفقود من البرج الثاني باسم شيركوه الثاني. وأخيرا يمكن للتحليل الأثري الطبقي أن يسمح لنا بفهم العلاقة بين الغرف الباقية، والأبراج والمزلقان. وعلى الرغم من أن الغرف في القطاع F قد نظفت وصقلت وسلّحت بالإسمنت كما ذكرنا عام ١٩٩٧. فقد بدأ أمل لنا عند بدء التنقيب أنه يمكن العثور على غرف غير فخرية مجاورة للبرج الثاني في القطاع J. من ناحية ثانية فإن خندقا حربيا سوريا يمتد على المحيط الشرقي للتل بين أعلى المزلقان والواجهة الشمالية من السور المستور قد قدم الحل الوسط لاحتمال تثبيت العلاقة الأثرية الطبقية بين السور والمزلقان في كثير من الأمكنة وقد كان للخندق الحربي الأثر في الكشف عن الوجه الخارجي للسور المستور (الشكل ٧)، وهنا كان علينا جميعا القيام بتنظيف واجهة السور. وكان المزلقان المركب قد تحرك على طول الواجهة الشمالية للسور المستور في المنطقة F.

وكانت التربة في القطاع F، قد تحركت من الوجه الجنوبي من أعلى السور المستور للقلعة هذا ما كشف عن أعلى بعض أجزاء السور. ولكنها لم تنسب فيما بعد بسبب قصر مدة موسم التنقيب. إن علاقة سطح المزلقان ووضعه بالنسبة للسور المستور والسور الدائري المشار إليه، تبقى مشكلة بتأثير الخندق الحربي السوري. ويمكن أن نقول: إن كل هذا بدون تعيين في هذه المرحلة حيث إن المزلقان وحشوته المؤرخة فيما بعد بناء الجدار المستور شمالا كما أن وضعه قبالة الوجه الشمالي للجدار لا معنى له بالتعبير الزمني التأريخي.

٣- الطبقات الأثرية الأعمق:

لقد حصلنا على رؤية أثرية طبقية بفضل المساحات المكشوفة من المزلقان من جبهتي الشمال الغربي والجنوب الشرقي، والتي سقطت بعيداً وتمكنا من تتبع هذه الطبقات حتى الأرض العذراء الحمراء فوق المستوى الصخري. ويعدّ هذا مهما لأن القيود المفروضة على العمل الأثري في قمة التل بسبب وجود الأبنية الحديثة، لن تسمح بإجراء تنقيبات من الأعلى حتى الأسفل. إن اللقى الأثرية من الأركان المكشوف في الشمال الغربي والجنوب الشرقي ذات أهمية كبيرة من أجل تقويم السكن المبكر للتل من ناحية ثانية، إن فحص الأركان المكشوفة في الشمال الغربي من التل، هو أمر خطير وقد سجلناها في عام ١٩٩٧، وكذلك الفخار السطحي إلا أن اعتبارات السلامة لفريق العمل وبيوت المقيمين في الأسفل تعوق أي عمل في هذا المكان في المستقبل.

كما أن الأركان المكشوفة في الجنوب الشرقي هي الأخرى غير مستقرة وخطرة إلا أنه لا توجد بيوت في الأسفل وترينا الأركان المكشوفة المستويات الأثرية ابتداء من السرير الصخري في قاعدة التل صعوداً حتى مستويات العصر الإسلامي الوسيط، التي تعود إليها الأبراج وأسوار التحصينات. وقد أدرجنا من الصور والتوثيق المفصل في الركن المكشوف من الجنوب الشرقي في عام ١٩٩٩. إن المستويات الباكرة (أي الأخفض ترتكز فوق السرير الصخري والأرض العذراء)، قد قدمت موقعين من الفخار المكسر (EB4). وقد تم العثور على ذلك من خلال العلاقة مع الجدار الحجري الباكر. ويعادل هذا الجدار الحجري المحشي المكشوف في الجنوب الشرقي، من حيث المواصفات جداراً حجرياً محشواً مرئيا في المستوى الأسفل من الركن المكشوف في الشمال الغربي قرب مصطبة المدخل.

اللقى الأثرية:

نورد فيما يأتي موجزاً عن اللقى الأثرية المهمة منذ موسم عام ١٩٩٧- ١٩٩٩. إن جميع اللقى الأثرية قد أخرجت من مكامن دفعت إلى الأسفل على عمق ١-٢ متر من قبل الجيش الفرنسي في فترة الانتداب مع بعض الاستثناءات الخاصة. وكان أهمها ما عثر عليه في الركن الجنوبي الشرقي لأنها من مستوى أثري أدنى في قاعدة التل كما نوهنا سابقاً، وهي

آنيتان فخاريتان محطمتان وقطع أخرى من الدور نفسه أي عصر البروز الباكر الرابع (EB4)،أي حوالي ٢٥٠٠-٣٠٠٠ق. م. وعثر في الجهة الشرقية على كسر فخارية في مركب مختلط في القطاع F و J وتمثل أعمال الدور الروماني في تل القلعة. كما أن الأعمدة الغرانيتية بلون القرنفل التي وُجد منها عدد من الأمثلة في التل هي رومانية الأصل. ويتمثل الدور الروماني أو البيزنطي بمكعبات فسيفسائية عُثر عليها في القطاع A و J ومنعقدة بمكعبات الفسيفساء الأبيض المثبت بالجص، كما توحي أرضية فسيفسائية ضائعة. كما عثرنا على زجاج أخضر فريد ومكعب فسيفسائي مزجج أزرق فريد وكسرة مصباح زيتي مع صليب مسيحي في أحد البروزات في القطاع J، وفي حين أن هذه اللقى قد أخرجت من مركَّب في القطاع J والذي حوله الجيش الفرنسي إلى ردميات، فإن تركّز اللقى المهمة هنا يؤكد وجود أنشطة رومانية وبيزنطية فوق التل.

من الواضح أن المكعبات الفسيفسائية قد تكون من العصر الروماني وبداية العصر الإسلامي ولكن العثور عليها كان في الواقع مرتبطاً مع مصباح الزيت الصليب المسيحي ولقى رومانية تدفعنا إلى تأريخ في الدور البيزنطي، من ناحية ثانية ويجب أن نتعرف على طبيعة وتركيب المكمن الأثري.

إن اكتشاف ياقوتة حمراء براقة وحيدة مستوردة من العراق أمر مهم للغاية كما أن اللقى السطحية هي أول دليل إلى أنشطة إسلامية في التل في القرن الثالث الهجري والتاسع الميلادي، وهو برهان أثري على دور صمتت فيه المصادر الأدبية العربية بصورة محبطة عن ذكر قلعة حمص. إن فخاريات "تل مندس" قد عثر عليها ببعض الكميات في الغرفة ١، في القطاع C وهي تدل على تأريخ ممكن في القرن الثاني عشر (POTER. WATSON, 175-220, TONGHINI, 1998, PASSINE). وهناك لقى أخرى من العصر الإسلامي تشمل أوان من مواد زجاجية مزينة وملساء من نمط الرقة، وتعود للقرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، وتعزى في سورية والأردن إلى العصر الأيوبي والمملوكي. وعثر على بعض كميات فخارية مزججة مملوكية وشملت الموجودات داخل الغرفة ١ في الركن الردمي شذر فخار أبيض مقولبة ومبرزة ويحتمل أنها تعود للقرن الثالث عشر. وتم تركيب شذر شبه كاملة لدورق أو قارورة حج ذات مسكتين وزينة مقبولة ورسوم أسد (شكل ١٠). واعتبر أنه يعود

إلى منتصف القرن الثالث عشر. وهناك قطعة مشابهة قولب عليها شكل ببغاء (شكل ١١) وكانت موجودات القطاع G قطعاً من آنية زجاجية زرقاء مزينة مذهبة، ذات مواصفات عالية: ولعلها من العصر الأيوبي وباكر المملوكي (شكل١٢). إن اكتشاف قطعة من قنبلة يعكس مهمة الموقع العسكرية، ويضاف إلى ذلك اكتشاف ذخيرة منجنيق وهي حجارة صغيرة مكورة عثر عليها مستودع في القطاع C في عام ١٩٩٧، خارج الغرفة ١ تماماً (شكل ١٣).

الخلاصة:

إن الهدف من هذه الدراسة المبدئية من بحثنا عن حمص هو يهدف إلى تقديم ملاحظاتنا الأولية المبنية على التنقيب. إن جميع الفخاريات الموجودة أخرجت من أركان حجرية، أعيد تكويمها من قبل الجيش الفرنسي ومن تلاه ونظراً لدرجة التهشم وكمية الأكوام المردومة في هذه المرحلة، فيبدو لنا أنه من المبكر القيام بنشر اللقى الأثرية. وفي المواسم المقبلة عندما سننقب التركيب الطبقي الأثري، الذي وصلنا إلى نهايته في الموسم ١٩٩٩، يمكن عندها تقديم توثيق فخار أكثر انسجاماً، كما أن الموجودات الأخرى يمكن أن تكون ذات فائدة، عند مقارنتها بمواد من مواقع تحصينية أخرى في المنطقة، بما في ذلك قلعة حماة وقلعة حلب وقلعة جعبر على الفرات.

وكما لاحظنا فإن واقع تحصينات حمص هي في حالة أكثر سوءاً من تلك في حلب وشيزر وجعبر أو أية تحصينات إسلامية معاصرة في مواقع أخرى من ناحية ثانية، هناك مزيد من البقايا الأثرية في تحصينات قلعة حمص، وأكثر مما لقيناه في حماة التي فقدت أبراج وأسوار العصر الإسلامي الوسيط، وهناك ما يكفي من البقايا في قلعة حمص ليدل على الأصول الأيوبية والمملوكية للتحصينات التي يمكن مقارنتها مع نظيراتها في حلب، على الرغم من كون ذلك على درجة مقارنة ضئيلة. إن مزلقان قلعة حمص، بخاصة، محفوظ جيداً ويمكن مقارنته مع نظيره في قلعة حلب وقليلاً مع نظيره في قلعة شيزر وقلعة الرحبة على الفرات شرق سورية. ويوجد ما يكفي من بقايا القلعة التي تفرض أن رسم فولينيه في القرن الثامن عشر كان دقيقاً على الرغم من بعض الاختلاط بسبب مستوى الإجازة الفنية. إن رسومه

ودراستنا تشيران إلى أن دفعات قلعة حمص قد قاومت السلب والنهب منذ منتصف القرن التاسع عشر وما بعده، ولعلها كانت من بين أهم الحصون الإسلامية الشهيرة في سورية.

إنَّ التحصينات الباقية في حمص تطرح عدداً من المسائل التاريخية، التي يمكن حلها بفضل التنقيبات. وبينما يمكن تقدير مكان وجود الكتابات الأيوبية والمملوكية المفقودة الآن، والتي عثر عليها ونشرها من سبقونا من العلماء، فإن الواقع يبقى هو أن هذه الكتابات بقيت إلى وقت قريب في المكان وهذه هي الخسارة الكبرى، وإذا كنا نستطيع تأريخ السور بدقة مقبولة من خلال البقايا، إلا أن العقبة تتمثل بالمزلقان، الذي يبدو أنه يغطي السور الدائري الأقدم، الذي نعتبره إسلامياً من العصر الوسيط، ويبدو أن عمليات التحصين النهائية قد أضافت المزلقان، ولكن يبقى من غير الواضح إذا كانت أيوبية أو مملوكية، يضاف إلى ذلك، أن التنقيبات المحدودة التي أجريت في القطاع C، قد بينت تبدلات أساسية في وجهة القوس في الغرفة١. ولا يوجد في الأفق تأريخ لهذا العمل، ولهذا نتوجه في هذه المرحلة إلى ربط ذلك مع تبدلات البنية التي يمكن ملاحظتها في هذه الغرفة في المحيط الجنوبي مع الكتابات الأيوبية والمملوكية المؤرخة في جهة الشمال من قلعة التل. ومن أجل إيضاح هذه المسائل، فإن القطاعات الشمالية والجنوبية المحفوظة جيداً تتطلب المزيد من البحث والتنقيب العلمي الأثري.

شكر واعتراف بالجميل لفريق العمل:

أسست البعثة الأثرية البريطانية العاملة في حمص في (SOAS)، قسم الفن وعلم الآثار في معهد الدراسات الشرقية والإفريقية في جامعة لندن. وقامت مستشارية البحوث البريطانية في المشرق (CBRL) برعاية البعثة البريطانية كما جاءها الدعم الكريم من مصادر أخرى، تشمل SOAS؛ والسفارة البريطانية في دمشق، والمستشارية البريطانية في دمشق؛ وشركة الطيران المتوسطية البريطانية؛ والمعهد البريطاني في عمان (CBEL)، ومجموعة أعمدة الحكمة السبعة، وقدّم السيدان حيان أتاسي ومعمر باشي ومتبرعون سوريون وبريطانيون آخرون مساعدات كريمة. ولقينا من الجانب السوري مقداراً كبيراً من التعاون والدعم من جانب الدكتورة نجاح العطار، وزيرة الثقافة السابقة، والدكتور سلطان محيسن ومدير متحف حمص فريد جبور وتوبع هذا العمل والتعاون تحت إدارة الدكتور عبد الرزاق معاذ، وقدم لنا سيادة العماد أول مصطفى طلاس وزير الدفاع بكرمه طائرة مروحية للتصوير الجوي وآلة حفر JCB، وثلاثين جندياً للمساعدة في التنقيب لموسم عام ١٩٩٧. وقدم السيد حيان الأتاسي مجموعة عمال من مؤسسته جندر عام ١٩٩٧. وقدم لنا أدريان بندل وبنزيل أستود السفيران السابقان في سورية، النصح والمساعدة عند بدء المشروع. وقدم السيد كلارك بيطار المستشار الثقافي دعماً كبيراً شخصياً ومساعداً في إقامة مشروع حمص. كما مولت المستشارية الثقافية البريطانية بدمشق الدراسة الاستطلاعية في الرستن عام ١٩٩٧. وتابع الدعم السيد دافيد بلدوين بعد السيد كلارك بيطار. ونشكر كذلك السيدة هديل الأحمد والسيد معتز من المستشارية في دمشق. كما نشكر دعم ممثل المجموعة الأوروبية السيد آلان ودام لمشروع حمص.

وقد أدار فريق التنقيب -المؤلف من الجانب البريطاني وفريد جبور من الجانب السوري منذ عام ١٩٩٥. وقد كتب السيد بيتر هولدن (Acanthus. Pembroke) تقريراً عن "الشروط والعلاج" وأخذ السيد مارك جونسون (Landmark Surveys) على عاتقه وضع خرائط القلعة. وانضم إلى فريق العمل د. س. تونجهيني من جامعة فنيس (البندقية) من COAS سابقا. ود. ج. الدرز،مستشار أثري،الكنيسة الإنكليزية؛ والسيد س. جرفي،والسيد ج. تشاستكا، والسيد د.

دنلوب والسيدة مارن SOAS؛ ود. أ. فاس، مدير مساعد في CBRL في عمـــان والســيد ي. جيبس SOAS؛ والسيد فيليب لوت، SOAS والسيدة أنّا زيلك. وضم فريق العمل من الجـــانب السوري السيدة مريم بشيش، والسيد حكمت عواد والسيد بهاء أخزم. وقد تلقينا الدعـم الفنـي والميداني من جامعة البعث في حمص فالشكر للاهتمام الكبير بعملنا الذي أبداه د. عبد المجيد الشيخ حسين رئيس جامعة البعث الأسبق. وقد انضم إلينا جيوفيزيائي من حامعة البعث فـــي حمص عام ١٩٩٧. ونحن نعتز بهذه المساعدة. وساعدنا كثيراً السيد جهاد في فندق حمــص الكبير. ونشكر المكتبة البريطانية التي سمحت لنا بنشر الأشكال ٢، ٦، والشكر للسيد بيتر بار لتقديمه الشكل ٣. كما نشكر ناشر مجلة Levant على تقويم البحث والبناء والمراجعـــة غـير المعلنة للنص. فقد استفدنا جداً من ملاحظاته. وأخيراً، نعبر عن شكرنا وديننا الخاص للدعـــم المفيد والنصح الذي تلقيناه من السيد منذر الحايك من جامعة البعث في حمـص الـذي كـان ناصحاً وزميلاً وصديقاً منذ بداية مشروع قلعة حمص.

المراجع

Abdulkarim, M. (1999) Télédiction et archéologie sur la formation de La citd d'Emese a l'epoque romaine (Syrie Centrale). *Photo-interprétation,* 14-23.

58 LEVANT 34 200)

Ammianus Marcellinus (2000 edition; *c.* 390-1) *History.* Translation J. C. Rolfe. Loeb

Classical Library: Cambridge, Massachusetts and London.

Appian (1999 edition: *c.* AD *125) Roman History.* Translation H. White. Loeb

Classical Library: Cambridge, Massachusetts and London.

Ball, W. (2000). *Rome in the East The transformation of an empire.* Routledge:

London and New York.

Berchem, M. van in F. von Oppenheim (1909) *Wchriften* ***aus*** *Syrien in Betirage zur Assyriologie.* VII /I, 4-13.

Berchem, M. van and Fatio, E. (1914) *Vogage en Syrie.* Institut francais d'archéologie orientale du Caire: Cairo

Bounni, A. (1970) Les catacombes d'Emêse (Homs) en Syrie. *Archéologia* 37, 42 - 49.
BelQn de Mons, P. (1588) *Les Observations de plusieurs singularités et choses*

Mémorables, trouvées en Grèce, Asie, Iudée, Egypte, Arabie et autres pays *étrangers* de Marnef and Cavellat: Paris.

Cheveddin, P.E. (1986), *The Citadel of Damascus unpublished* phD Thesis, UCLA. University Microfilms International (unseen).

Conder, C.R. (1883) *Heth and Moab. Explorations in Syria in 1881 and 1882.* Richard Bntley: London.

Creswell, K.A.C. (1932-40) *Early Muslim Architecture.* Clarendon Press: Oxford.

- *(1952) The Muslim Architecture of Egypt.* Clarendon Press Oxford.

- *(1952)* Fortification in Islam before A.D. 1250. *Proceedings of the British Academy 38, 89-125.*

al-Dbiyat, M. (1995) *Horns et Hama en Syrie Centrale Concurrence Urbaine et développement régional.* L'Institut francais d'études arabes de Damas: Damascus.
Dussaud, R. (1927) *Topographie Historique de la Syrie Antique et Mediévale.* P. Geuthner: Paris.

Elisséeff N. (1967 *Nûr AD-Din grand prince musulman de Syrie* ***au*** *temps des croisades*

(5 11-569 H 1118-11⁻4.). Institut francais de Damas: Damascus.

- (1971) Hims. *Encyclopaedia of Islam. (EI² new ed)* Brill: Leyden.

Fedden. R. (1950) *Crusader Castles.* Murray: London. Ha'iq. M. (1994) *Qal'a Homs.* Dar Tlass: Homs.

Herzfeld. E. (1943) Damascus: Studies in Architecture II. *Ars Jslamica* X. 66-70.

Holden. P. (1996) *The Citadel at Homs Conservation Report* Unpublished report for the Directorate-General of Antiquities of Syria. archived at the Homs Museum. Ibn Battüta (1958 edition) *The Travels of Ibn Battuta.* Translation H.A.R. Gibbs. Hakluyt Society and Munshiram Manoharlal Publishers Pvt. Ltd: New Delhi. Ibn Hawqal (1938 edition) *Opus Geographicum auctore Ibn Hawqal. Kitab sūrat al-Ard.* J.H. Kramers (ed.). Brill: Leyden.

Ibn Jubayr (1952). *Travels.* translated from the Arabic into English by R.J.C. Broadhurst. Jonathan Cape. London.

al-Jstakhri (1967 edition) Viae regnorum descriptio ditionis moslemicae auctore *Aba Ishak al-Istakh Bibliotheca Geographorum Arabicorum* I.M.J. de Goeje (ed.). 3rd edition. brill Leiden.

Kennedy. H. (1994) *Crusader Castles.* CUP: Cambridge.

King. G.R.D.. Dunlop. D.. Grafi. S. and Tonghini. C. (1995) *A Report on the tellat (`- Homs. Syria.* Unpublished report for the Directorate-General of Antiquities of Syria. archived at the Homs Museum.

Kremer. A. von (1853). *Mittelsyrien und Damascus* Mechitharisten: Vienna. Laborde. L. de (1838) *Travels in Arabia.* 2 vols. John Murray London Lawrence. T.E. (1936) *Crusader Castles* Golden Cockerel Press: London Le Strange. G. (1965) *Palestine under the Moslems.* Khayat: Beirut. Macazz. Najib *(1995) Qal'a Homs* Unpublished report. archived at the Homs Museum.

al-Maqdisi (1967 edition) *Kitab Ihsan al-Ta qasi Tagasim F Maeritatal A QALIM.* M.J. de Goeje (ed.) Brikk: Leyden.

al-Maqrizi (n.d) *Khitat* Bulaq edition.

al-Musalli. M. (1975) *Sabr fi qata Homs (Tall Homs)* Unpublished report. archived at the Homs Museum.

Oppenheim. M. von (1913) *Inschriften aus Syrien, Mesopotamien undKleinasien.* J.C. Hinrichs'sche Buchhandlung. The Johns Hopkins Press: Leipzig and Baltimore. Pentz. P. (1997). *Hama. Fouilles et Recherche s de La Fondation Carlsberg 1931-1938* IV: 1- Text. *The Medieval Citadel and its Architecture* Nationalmuseet: Copenhagen. Riis. P.J. and Poulsen. V. (1957) *Hama. Fouilles' et Recherche s' de La Fondation Carlsbeng 1931-1938.* Fondation Carlsberg: Copenhagen.

Ritter. Carl (1855) *Die Erdkunde im Verh. Itnis zus Natur und zur Geschichte des Menschen.* Reimer: Berlin.

Sauvaget, J. (1929) La chapelle byzantine de Bâh Sbâ' à Homs: *Mélanges' de l'Université Saint-Joseph* XIV, fasc. 1, 3-20.

H. Seyrig (1952) Antiquités Syriennes 53 cont. Antiquités de la necropole d'Emèse. *Syria* XXIX, 204-250.

- (1959) Antiquités Syriennes 76. Caractere de l'histoire d'Emese. *Syria* XXXVI, 184-192.

- (1971) Antiquités Syriennes 95 Le culte du soleil en Syrie a l'époque romaine. *Syria* 48, 337-373.

C. Tonghini (1998) *Qal 'at Ja 'bar*. British Academy Monographs. OUP: London.

al- Ush. Abûl-Faraj (1963) Les bois de l'ancien Mausolée de Khâlid ibn al-Walid à Himts. *Ars Onientalis* V, 111-139.

- (1969) *Akhshab Min turbat Khdlid ibn al-Walid al-qadimct bi Hims. Les Annales ArchC'ologique arabes syniennes* XIX, 15-47.

Volney, C.F. (1959 edition) *Voyage en Egypte et en Syrie*. Edition Gaulmier: The Hague.

Watson, O. and Porter, V. (1987) 'Tell Minis' Wares. PP. 175-220 in J. Allan and C.

Roberts (eds) *Syria and Iran. Three Studies in Medieval Ceramics. Oxford Studied in Islamic Art* OUP: Oxford.

Wiet. G. (1941) *Repertoire chronologique d'épigraphie arabe* L'Institut francais d'archeologie orientale: Cairo.

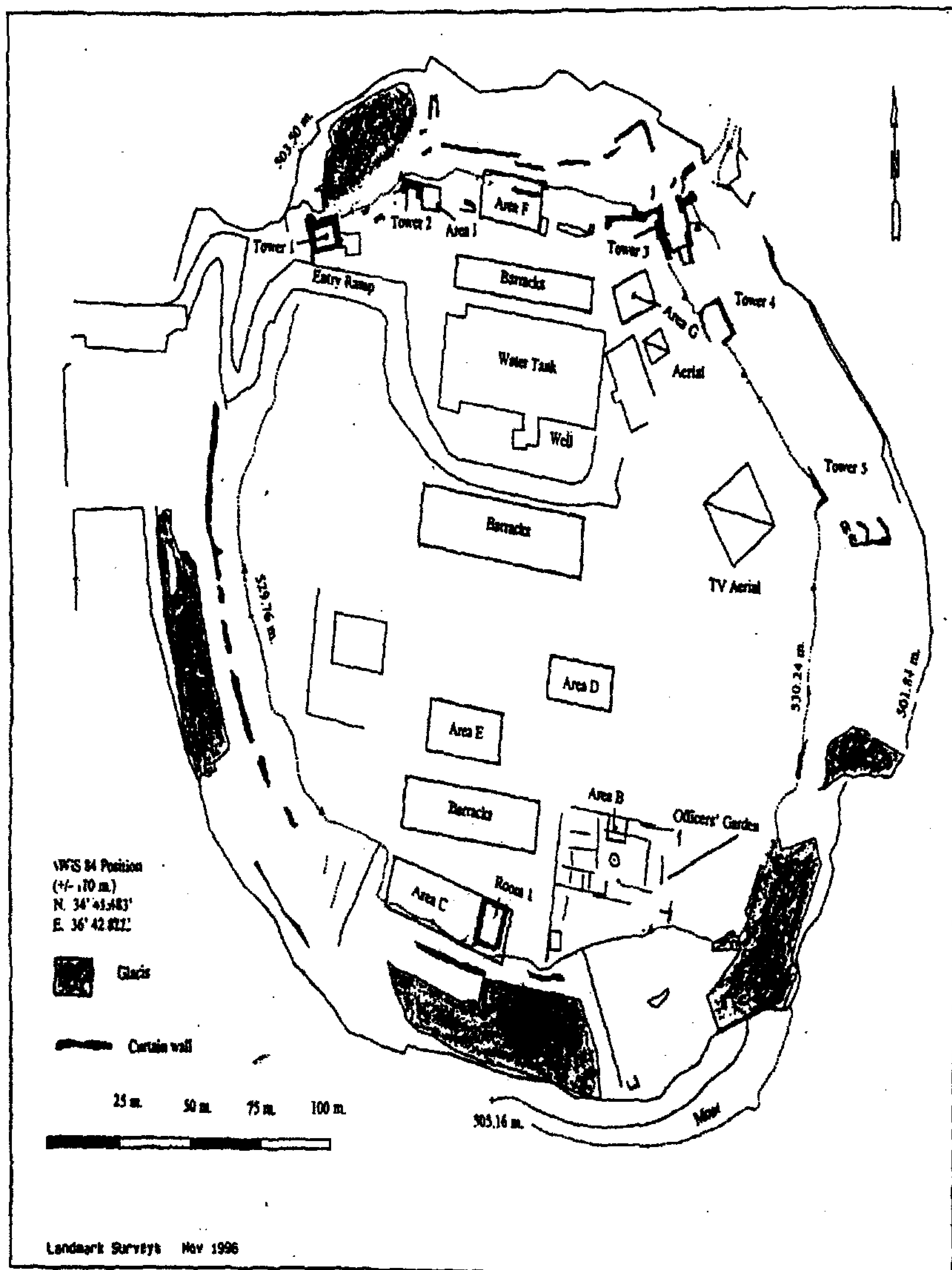


Figure 1. *Plan of the Citadel of Homs (1996).*

شكل (١) مخطط قلعة حمص (١٩٩٦)



Figure 2. *The Citadel of Homs in 1785 (from Volney,* Voyage en Égypte et en Syrie. *By permission of the British Library: 149.9.PL.A.20-795234).*

شكل (٢) قلعة حمص عام ١٧٨٥



Figure 3. The Citadel of Homs in 1925 (courtesy of Peter T. Parr).

شكل (٣) قلعة حمص عام ١٣٢٥

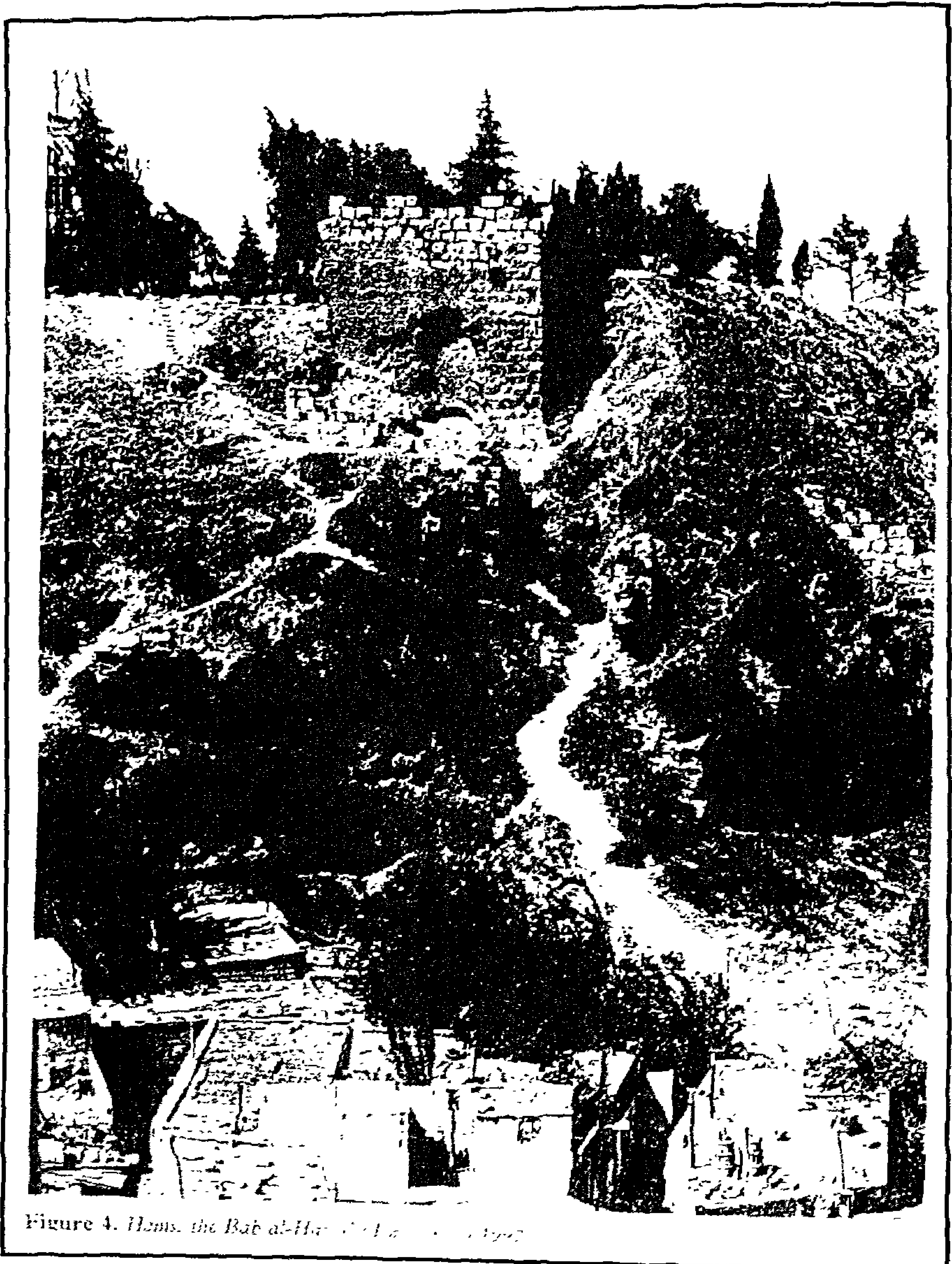
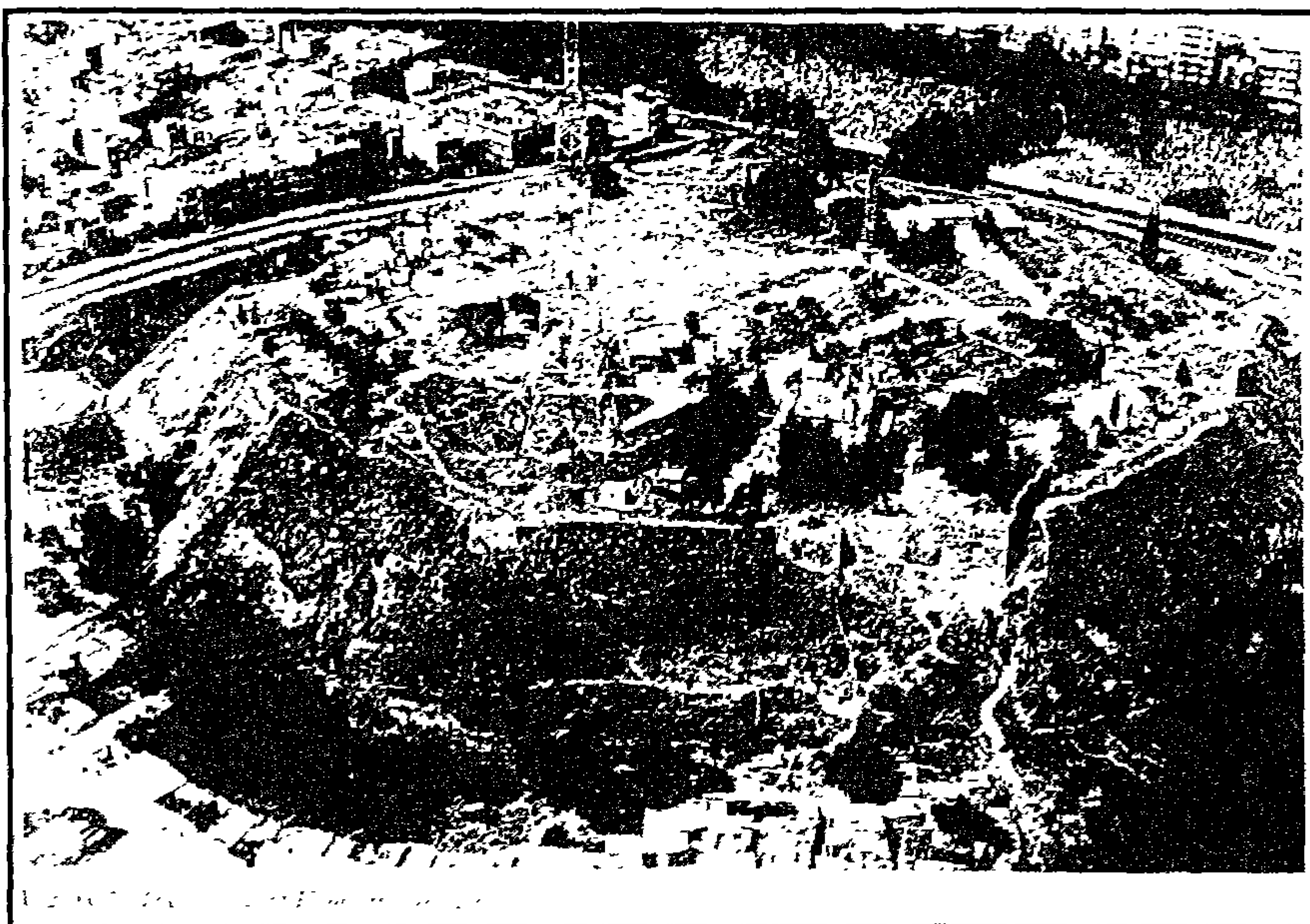
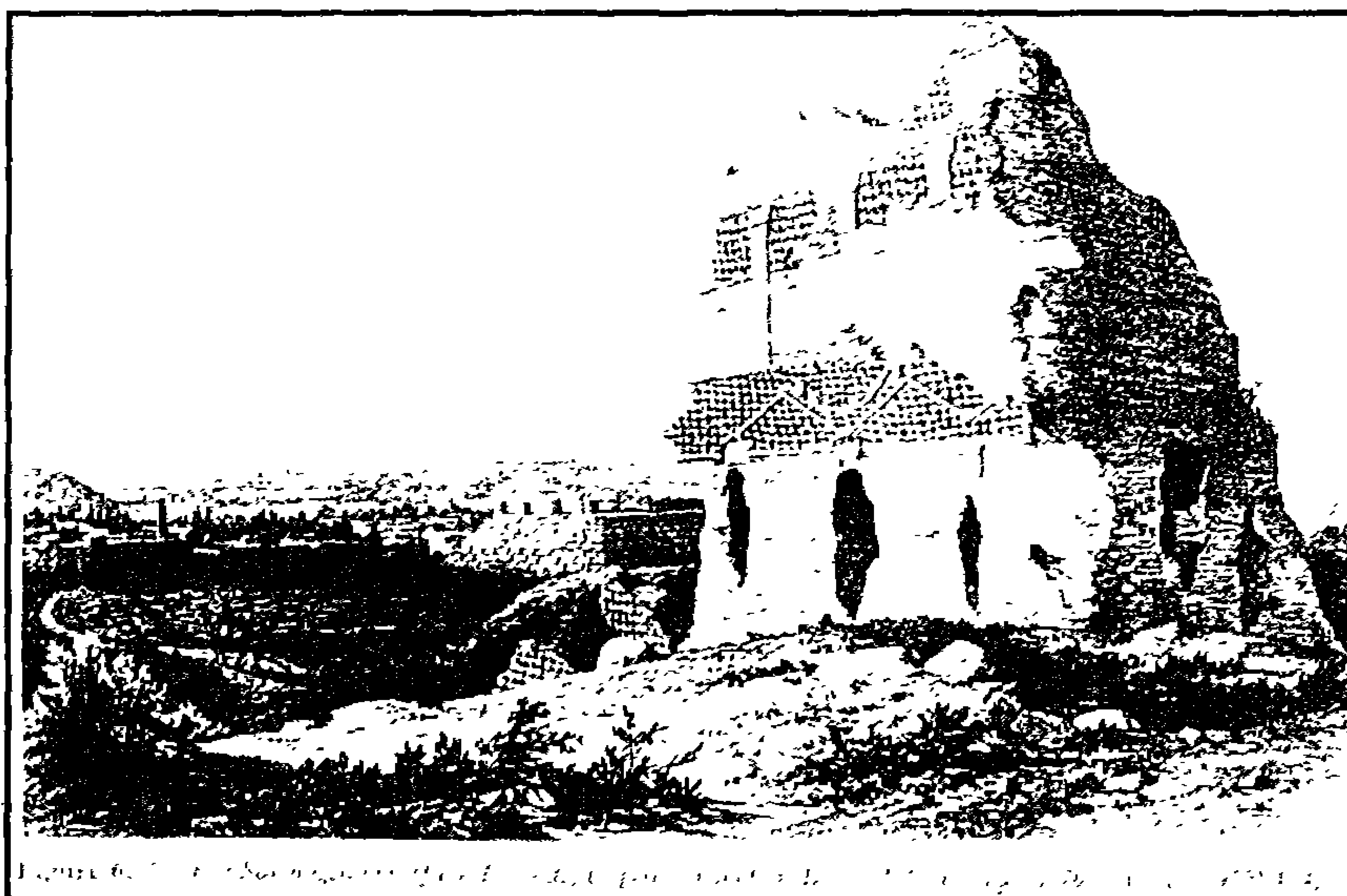


Figure 4. *Hams. the Bab al-Ha[illegible]*

شكل (٤) حمص باب الهوى - برج ٣عام ١٩٩٧



شكل (٥) قلعة حمص من الجو

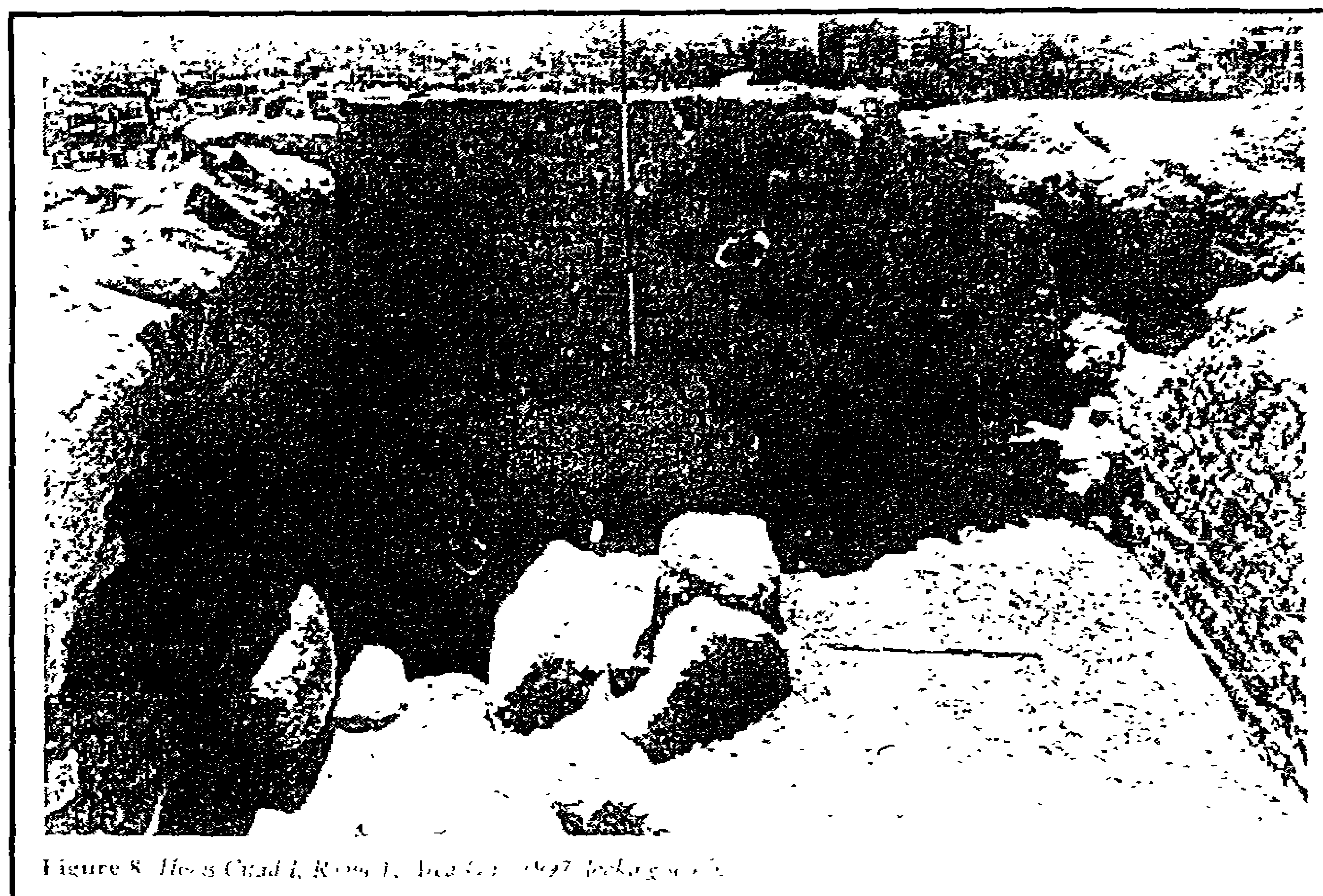


شكل (٦) ضريح سمسجير اموس



Figure 7. *Homs Citadel: the excavations in Area F and J (1999) looking west to Tower 2, with the outer wall exposed by a Syrian military trench.*

شكل (٧) الحفائر عام ١٩٩٩- البرج ٢- جدار مكشوف



شكل (٨) قلعة حمص غرفة ١ – عام ١٩٩٧

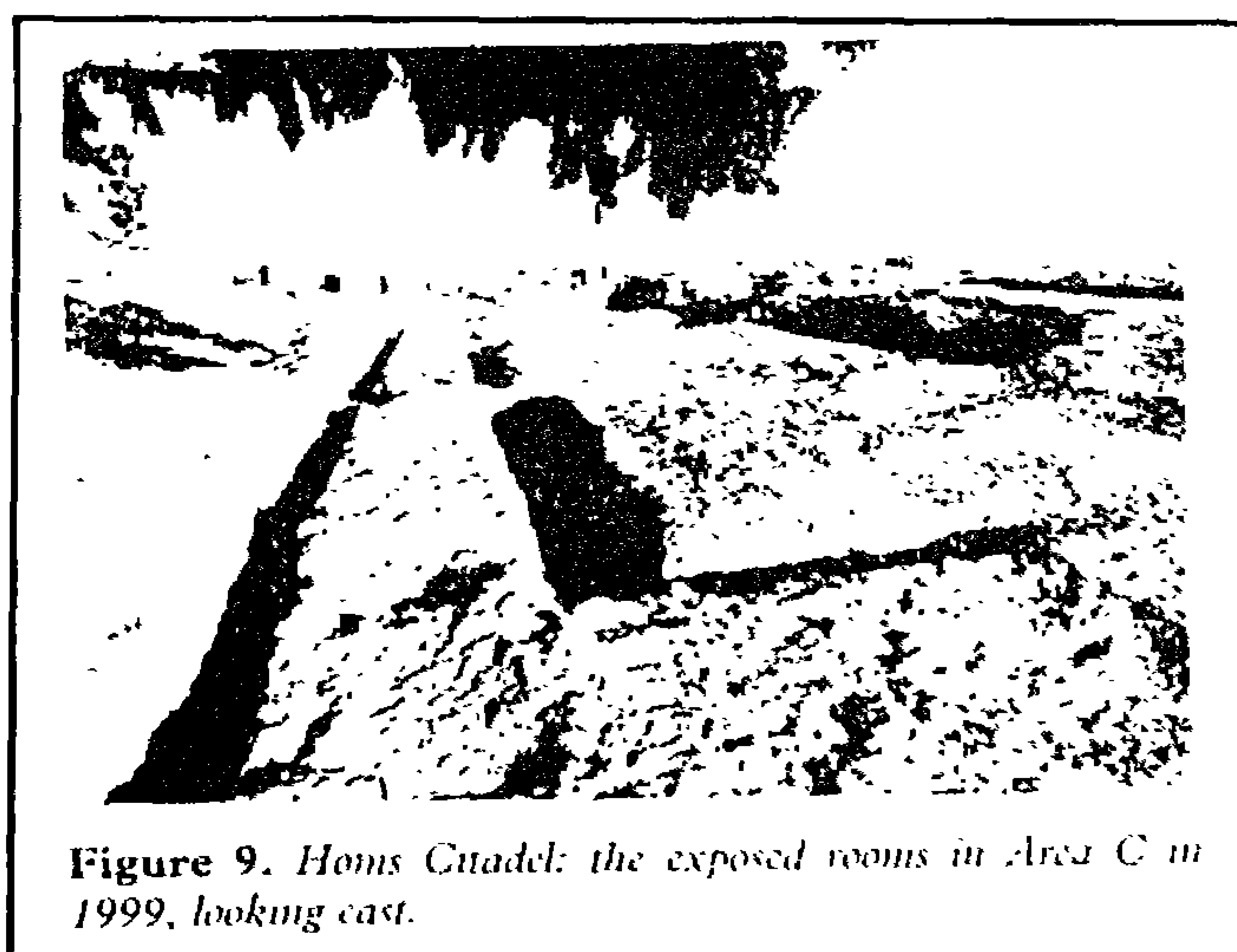


Figure 9. *Homs Citadel: the exposed rooms in Area C in 1999, looking east.*

شكل (٩) قلعة حمص: غرف في المنطقة المنقبة عام ١٩٩٩

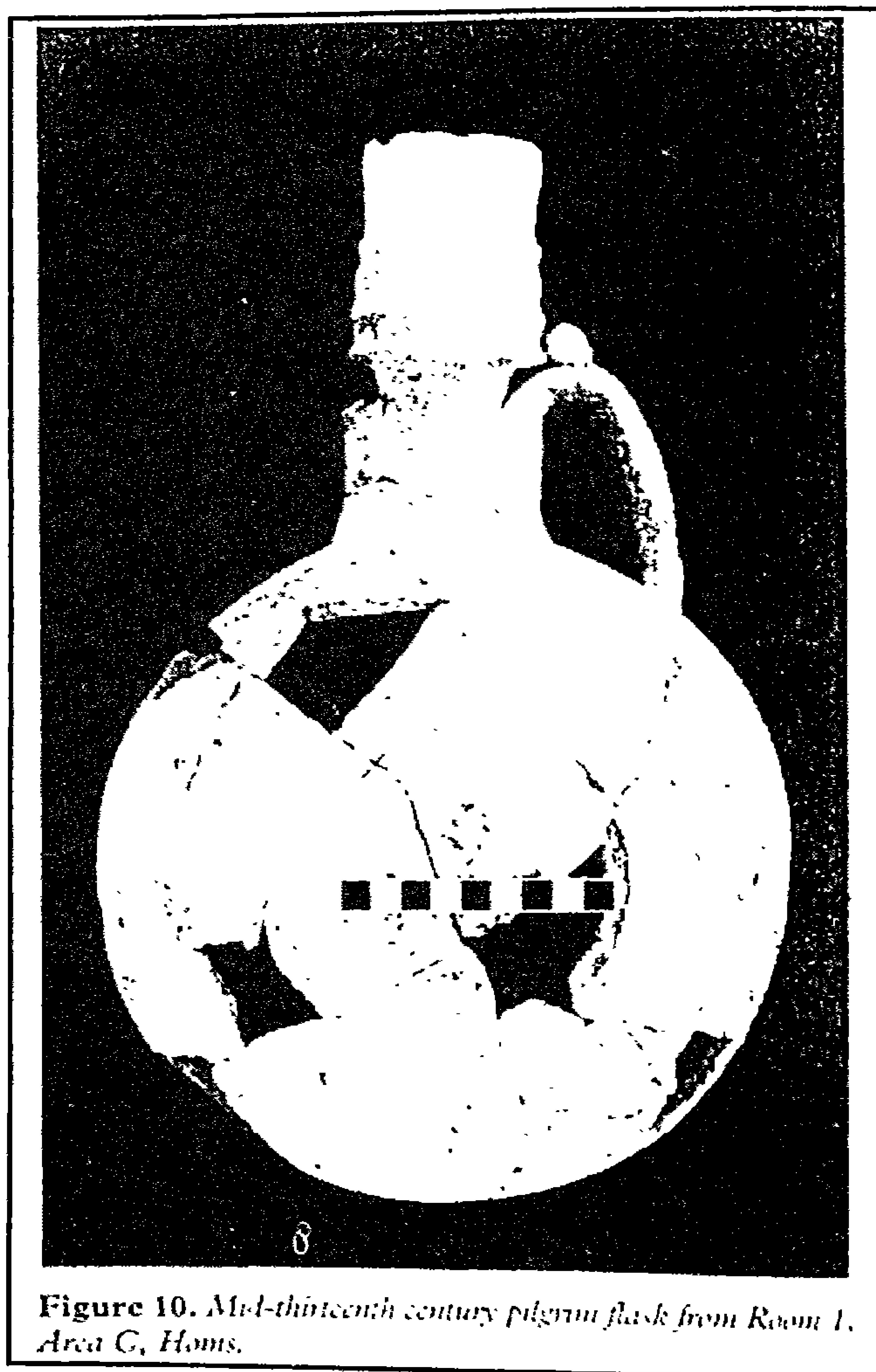


Figure 10. *Mid-thirteenth century pilgrim flask from Room 1, Area G, Homs.*

شكل (١٠) قارورة من القرن ١٣ (منتصفه)

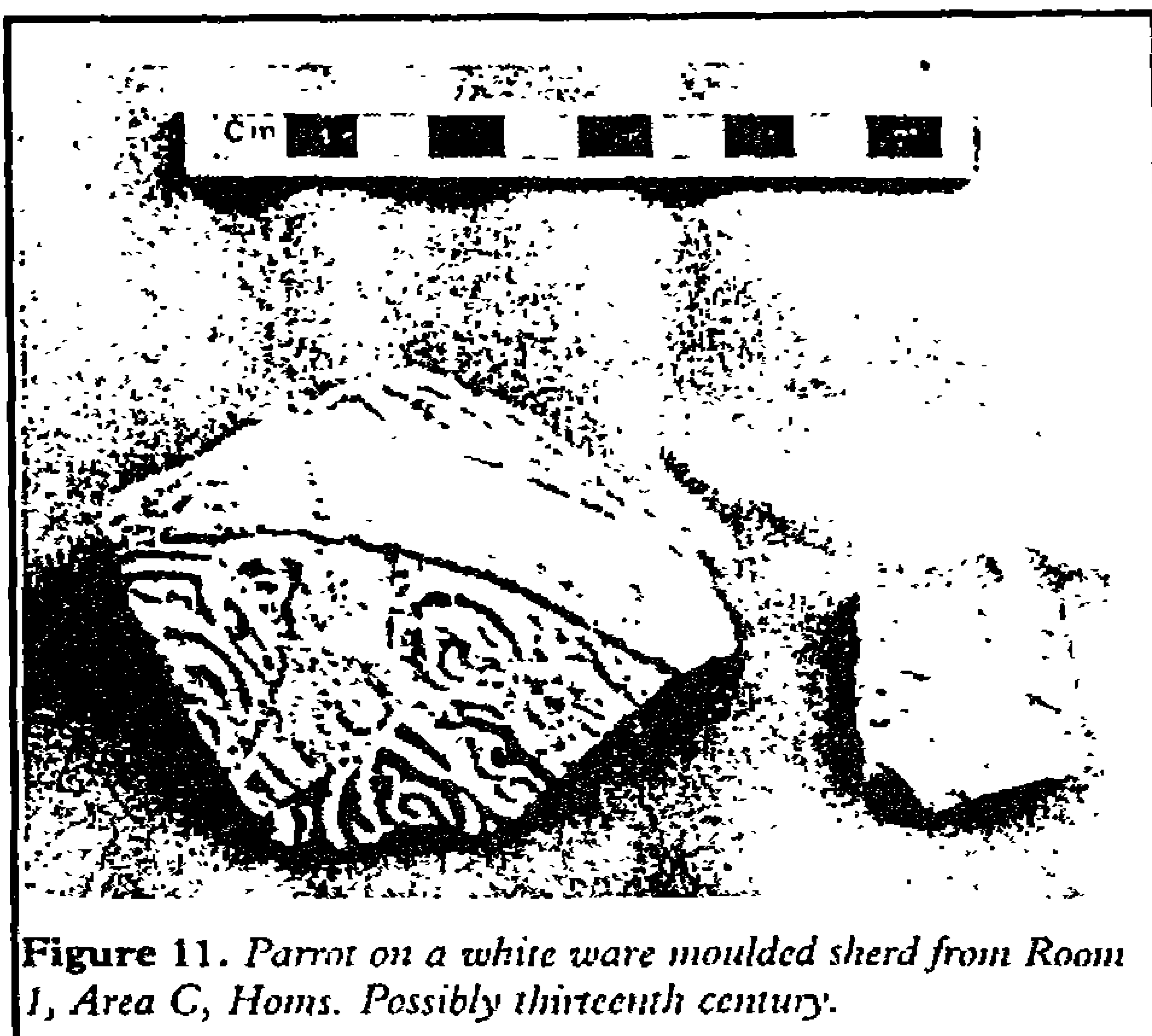


Figure 11. *Parrot on a white ware moulded sherd from Room 1, Area C, Homs. Possibly thirteenth century.*

شكل (١١) قطعة مقولبة من الغرفة ١

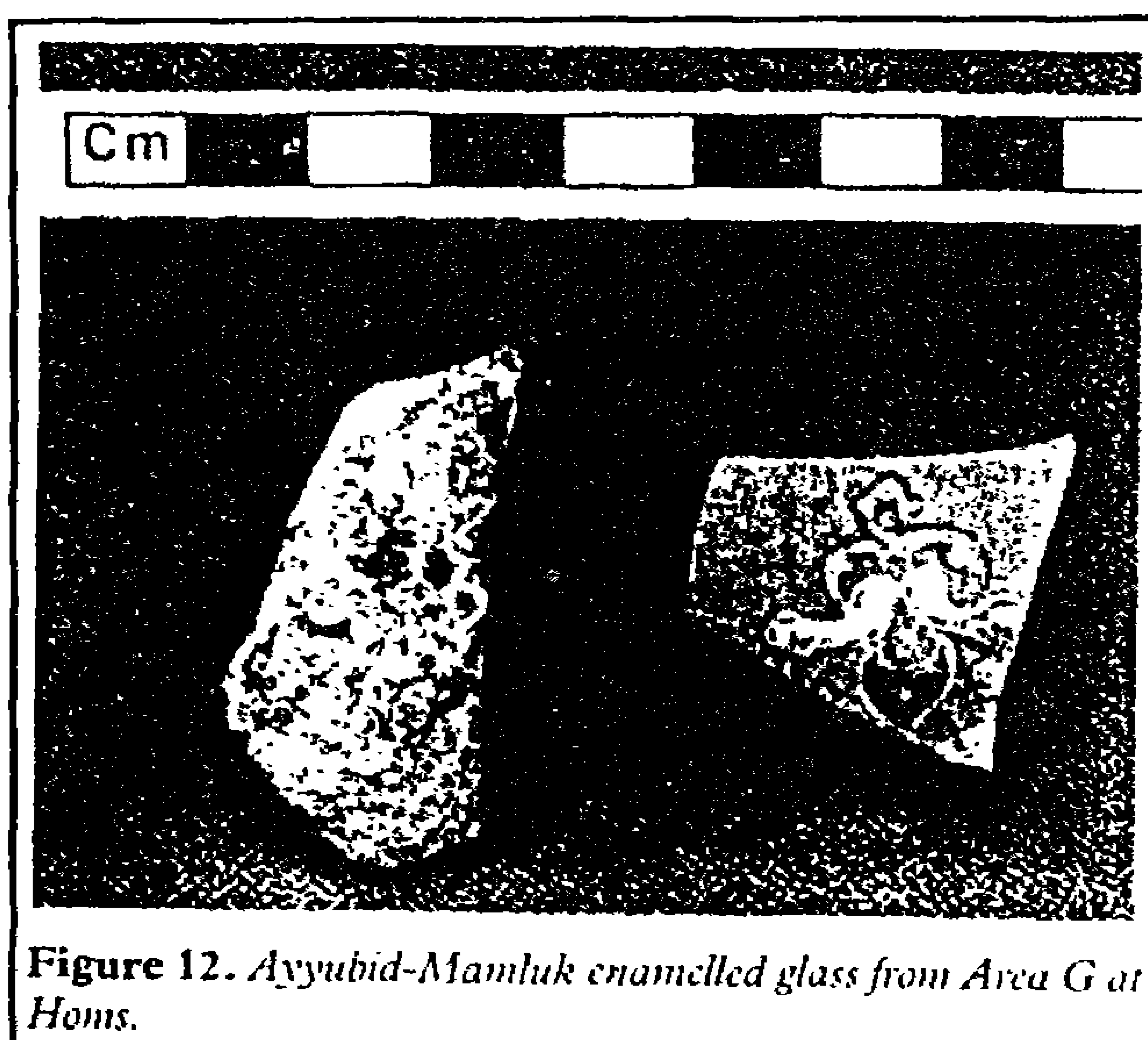


Figure 12. *Ayyubid-Mamluk enamelled glass from Area G at Homs.*

شكل (١٢) زجاجيات مكسرة من العصر الأيوبي و المملوكي



Figure 13. *Stacked catapult ammunition from Area C at Homs.*

شكل (١٣) ركام من المنطقة ٢

Globaliztion
paradox of concept — Beginnings —Aspects

Dr. Hassan Abu hamoud

Abstract

The study comes under " Globalization " as a term which is still characterized by some mystery and vagueness despite the fact its beginnings are not comparatively new, on one hand, and there is an embodiment of its political, economic and social aspects in the centers and sides of the world powers, on the other.

The aim of our study is to have some results through our objective understanding of the elements of study by reviewing various views and opinions which dealt with the phenomenon of globalization with the aim of predicting the future of globalization and focused westerner trends and its consequences on both developed and developing countries.

Therefor, we make analysis and review of some substantial realities and facts brought by these trends in all fields in 1 990s, as they represented the structural introductions and main bases (grounds) to create a new real human era characterized by big discrepancies which suggest the next world threats if such false western projects last and continue with the same philosophy and device which will be discussed in the study.

هل الكتابات النبطية في "مدائن صالح" دفنِّية

الدكتور رفعت هزيم

هل الكتابات النبطية في "مدائن صالح" دفنيّة

الدكتور رفعت هزيم

الملخص:

تعدّ الكتابات الدفنيّة في مدافن صالح، من أهمّ الكتابات التي خلّفها الأنباط، وقد جعلتها الباحثون -عرباً ومستشرقين- من الضرب الدفني أو القبوري. ويحلّل البحث هذه الكتابات من حيث مضمونها وأسلوبها، ثم يناقش أوجه الاتفاق والاختلاف بينها وبين الكتابات الدفنيّة في الفرع الشمالي من السامية الغربية، ثم ينتهي إلى رأي جديد في تصنيفها.

البحث:

النقش القبري أو الدفني[1]، كتابة مصاحبة لقبر أو مدفن أو تابوت أو نصب تذكاري دفني يقيمه ذوو الميت لتخليد ذكراه ولإثبات حبهم وإخلاصهم له. وليست الألفاظ المستعملة لهذه الدلالات في الكتابات النبطية خاصة بها وحدها، فثلاثة منها من السامية المشتركة، وهي: (nṯš[4]، ‘rn’[3]، qbr’[2])، وأربعة أُخر مشتركة بينها وبين الساميات: فلفظ ktr’ مشترك مع العربية واللحيانية والجعزية[5]، ولفظ wgr’ مشترك مع العربية والأحسائية[6]، ولفظ gwẖ مشترك مع التدمرية والسريانية وكذلك العربية[7]، والتركيب الإضافي byt clm’ مشترك مع الفينيقية والآرامية والتدمرية[8]، وقد يجتمع في مستهل النقش النبطي -أحياناً- اللفظ الذي يعني "القبر" واللفظ الدال

على "النصب الدفني" معاً، نحو: (Milik 1958) (196 'mqbrt' wnfš . :'mqbrt' wtrty nfšt
CIS 196 11 من مادبا), n[f] š' wqbrt':, Altheim & stiehl 1968)

والغالب على هذا الضرب من النقوش العربية -في النبطية- أن يُذكر فيه اسم منشئ القبر أو التابوت أو النصب الدفني مقروناً باسم الميت واسم أبيه ورتبته أو مهنته -أحياناً- مع بيان الصلة بين المنشئ والميت، فمن أمثلته: "نصب = nfš فلانة الذي بناه لها فلان زوجها" (CIS II 162 من السويداء)، و: "هذا نصب فلان بن فلانة وفلانة زوجته، الذي بناه فلان ابنهما" (CIS II 191 من أم الجمال)، و: "هذا التابوت = ʿrnʾ الذي صنع فلان بن فلان لزوجته فلانة بنت فلان الإيباركوس" "(CIS II 173 من بصرى)، وقد يضاف إلى ذلك التاريخ كما في نقش من أم الرصاص: "هذا نصب فلان بن فلان الاستراتيجوس، الذي صنعه له أخوه الاستراتيجوس فلان في السنة الأولى لمالك الملك ملك الأنباط" (CIS II 195)، وفي آخر من البتراء: "هذا بيت الأبدية = byt ʿlmʾ لفلان بن فلام الذي أقامه له ابناه فلان وفلان، مات بشهر شباط سنة ٢٦ لحارثة ملك الأنباط محب شعبه" (Negev 1971). وأقصر من ذلك وأبسط بناءً ألا يرد في النقش سوى اسم الميت واسم أبيه فلا يدل على أنه دفني سوى اقترانه بقبر أو تابوت أو نصب دفني، نحو: "فلانة بنت فلان" (CIS II 175 من بصرى)، أو لفظ بمعنى "قبر" مضافاً إلى اسم الميت، نحو "مقبرة فلان" "(CIS II 181 من بصرى أيضاً).

وقد استنبط دارسو الفرع الغربي الشمالي من اللغات السامية، الذي يشمل الكتابات النبطية- من النقوش الدفنّية الطوال في هذا الفرع أهم عناصرها، وهي -عندهم- ستة:

أولها: ذكر القبر أو التابوت أو النصب الدفني؛ وثانيها اسم المنشئ أو الباني؛ وثالثها اسم الميت مع ذكر لقبه ونسبه أحياناً؛ ورابعها: إنزال اللعنة بمنتهك حرمة القبر أو

النصب؛ وخامسها: مباركة صائن القبر ومحتوياته؛ وسادسها: تاريخ النقش[٩]. وجعل هؤلاء الدارسون الكتابات النبطية في مدائن صالح من هذا الضرب، فهل هي كذلك؟

تقع مدائن صالح -التي كانت تسمى قديماً الحجر"[١٠]، وسط سهل رملي واسع تحيط به الجبال في شمالي الحجاز، وكانت في القرن الأول الميلادي مركز الأنباط التجاري الذي يصلهم بالخليج العربي وبلاد ما بين النهرين شرقاً، وبالبحر الأحمر غرباً وبجنوبي الجزيرة العربية جنوباً وبعاصمتهم البتراء شمالاً[١١]، زد على ذلك أهميتها العسكرية -آنذاك- التي يدل عليها أسماء الضباط المذكورة في نقوش مدافنها[١٢]، ومن المرجّح أن الرحالة داوتي Doughty، كان أول زائر أوروبي للمنطقة بين عامي ١٨٧٦-١٨٧٨، ضمن جولة شملت بلاد الشام وشمالي الجزيرة العربية، حيث اكتشف فيها المدافن المنحوتة في الصخور ونقل ما عليها من نقوش[١٣]. وتلاه الباحثان هوبر Huber وأويتنغ Euting في زيارة علميّة متأنية عام ١٨٨٤، انتهت -بعد انفصالهما- بمقتل أولهما وعودة الثاني إلى ألمانية حيث نشر في العالم التالي كتاباً تضمن صوراً للنقوش النبطية وقراءةً لها وترجمةً مذيلة بتعليقات لغوية لنولدكة[١٤]. ثم قام باحثان من المدرسة الإنجيلية في القدس هما الأبوان الدومينكيان جاسان وسافنياك Jaussen et Sanignac بثلاث رحلات إلى شمالي الجزيرة العربية في الأعوام ١٩٠٧ و١٩٠٩ و١٩١٠، ونشرا في كتاب صدر في جزأين عن تلك الرحلات دراسة أثرية شاملة لمدائن صالح وتحليلا لنقوشها المعروفة مع إضافة نقوش جديدة لم تنشر من قبل[١٥]. وبالرغم من زيارات باحثين آخرين من بعد[١٦]، فإن كتابهما هذا ما يزال -لدقته وشموله ووصفه الآثار والنقوش قبل أن تلحق بها العوامل الطبيعية وأيدي الزوار العابثين الأضرار- المرجع الأول عن المنطقة في المجالين الأثري والنقشي الكتابي (Epigraphie).

ويبلغ مجموع المدافن النبطية في هذا الموقع ثمانين -وإن كان ما يحمل منها كتابة لا يزيد على أربعة وثلاثين -قسمها الأبوان جاسان وسافنياك إلى مجموعات رمزا إليها

بالأحرف اللاتينية من A إلى F مقرونة بالأسماء المحلية -آنذاك- لكل موضع. وهذا بيان بالمدافن ونقوشها[17]:

١- المدافن A: (قصر فهد، أو: المدقة والهاجري): ومجموعها ثمانية، ونقوشها أربعة: فالنقشان js_1 ، و js_2، و js_3 من المدفن A_3 من A_5، و js_4 من A_8.

٢- المدافن B (قصر البنت): ومجموعها ثلاثة وعشرون، ونقوشها ستة عشر: فالنقش js_5 من المدفن B_1، و js_5، من B_5، و js_8 من B_6، و js_9 من B_7، و js_{10} من B_9، و js_{11} و js_{12} من B_{10}، و js_{13} و js_{14} من B_{11}، و js_{15} من B_{17}، js_{18} من B_{20}+ B_{21} (بين بين)، و js_{19} من B_{22}، و js_{20} من B_{23}.

٣- مدفن الفريد، ومنه النقش js_{21} .

٤- المدافن C&D (الخصرف أو الخسروف): ومجموعها تسعة عشر، ونقوشها سبعة فالنقش js_{23} من المدفن C_1، و js_{24} من C_6، و js_{26} من C_7، و js_{25} من C_{14}، و js_{27} من C_{17}، و js_{22} من D، و js_{28} من D.

٥- مدفن قصر الصانع: ومنه النقش js_{29}.

٦- المدافن E&F (الخريمات): ومجموعها ثمانية وعشرون، ونقوشها تسعة: فالنقش js_{30} من E_1، و js_{31} من E_3، و js_{32} من E_4، و js_{33} من E_6، و js_{34} من F_{14}، و js_{35} من E_{16}، و js_{36} من E_{18}، و js_{37} من F_{10}، و js_{38} من F_4[18].

فيكون -بذلك- مجموع نقوش المدافن ثمانية وثلاثين (js_{1-38})[19]، متفاوتة طولا إذ لا يتجاوز أقصرها سطرا (js_{21}) أو اثنين (js_{22})، أو ثلاثة (js_{33} ،js_{13})، في حين يصل أطولها إلى أربعة عشر سطرا (js_{34})، ومعظمها بين خمسة أسطر واثني عشر سطرا. ولكن الباحثين يستبعدون منها غالبا نقشين: أحدهما js_{17}، المعروف باسم "نقش رقاش"، للاختلاف في لغته أنبطية هي أم عربية[20]؟؛ فضلا عن تأخره زمنا إذ يعود إلى عام

٢٦٧م، أي إلى ما بعد انتهاء استقلال الأنباط بما يزيد عن قرن ونصف القرن؛ وثانيهما js_{18} لأنه من الضرب التذكاري. وينبغي إضافة ثالث إليهما هو js_{15} لأنه لم يبقَ منه سوى خمسة أحرف لا ينتج عن قراءتها بأي وجه كلام ذو معنى. أما مجموع المؤرخ من النقوش الخمسة والثلاثين الأخرى فهو واحد وثلاثون[٢١]؛ يرجع أقدمها إلى بداية التقويم الميلادي وأحدثها إلى عام ٧٦م، وهي موزعة على ثلاثة عهود فالمؤرخ منها بحكم حارثة الرابع (٩ ق.م.- ٤٠م) عشرون، وبحكم مالك الثاني (٤٠-٧٠م) ثمانية، وبالسنوات الخمس الأولى من حكم رب إل الثاني آخر ملوك الأنباط (٧١-١٠٦م) ثلاثة[٢٢].

ويُظهر تحليل بناء هذه النقوش -المكتوبة غالباً على لوحة منحوتة فوق الجملون بمدخل المدفن[٢٣]. اشتمال معظمها على عناصر تجري عادةً على هذا النحو: ذكر المدفن أو ما يشتمل عليه، فذكر اسم الباني أو المالك، فتحديد رتبته أو مهنته، فبيان لمن يحق له استعمال المدفن، فتفصيل لشروط التصرف فيه، فتحديد لعقوبة المخالفين، فبسط الحرمة على المدفن، فحظر العبث به وبنقشه، فتاريخ النقش، فذكر اسم النحات. وإليك تفصيلها[٢٤]:

١-ذكر المدفن: والتركيب المستعمل باطراد لهذا الغرض هو اسم الإشارة dnh متلوا بلفظ kfr`، أو -وهذا قليل- بلفظ qbr`[٢٥] للمدفن، أو بلفظ gwh̲` للجزء منه إن كان النقش داخل المدفن لا خارجه[٢٦]. واتبع اللفظ الدال على المدفن في أحد النقوش بلفظي bss` و krk`[٢٧] أي: القاعدة والفناء، كما اتبع في نقش آخر بلفظ `wn' مستراح، مثوى والمراد به هنا المدفن نفسه[٢٨].

٢-ذكر اسم المالك أو المنشئ: ويكون ذلك بثلاثة أساليب: أحدها -وهو الشائع- استعمال جملة مؤلفة من الاسم الموصول dy متبوعاً بفعل `bd "صَنَعَ" فاسم المالك: dy `bd؛ وثانيها: استعمال الاسم الموصول متبوعاً باللام الجاره دون

وساطة الفعل: dy lx؛ وثالثها -وهو أقلها- استعمال dy وحدهـا متبوعـة باسـم المالك: kfr ' dyx.[٢٩] والمالك -غالباً- رجل واحد وقد يكون امـرأة[٣٠]. وثمـة شواهد كثيرة على المشاركة في الملكية؛ فهي بين امـرأة وابنتـها[٣١] أو امـرأة وبناتها[٣٢] أو امرأتين من أسرتين مناصفةً بينهما[٣٣]، أو رجل وامرأة لم تُحـدد الصلة بينهما فله الثلث ولها الثلثان[٣٤]، أو رجل وابنتـه[٣٥]، أو أخويـن[٣٦]، أو أخوة وأمهم[٣٧]، وورد في أحد النقوش أن المالك وهب المدفن لزوجته[٣٨].

٣-تحديد رتبة المالك أو مهنتـه: فـهو اسـتراتيجوس 'srtg' [٣٩]، أو قـائد مئـة qnṯryn'[٤٠] أو إيباركوس hfrk'[٤١]، أو طبيب 'sy'[٤٢]، أو ftwr'[٤٣].

٤-بيان المستفيدين من المدفن: وهم -في الأعم الأغلب- المالك نفسه وأولاده وذريته مذكورين على هذا الترتيب في العبارة الشائعة: lnfšh wyldẖ w'hrẖ [٤٤] متلـوةً -أحياناً- بالتعبير القانوني: ṣdq b'ṣdq'[٤٥]، أو به وبعبارة: dy ytqbrwn bkfr' dnh معاً[٤٦]. على أن المالك يحدّد في معظم الأحيان المستفيدين تحديداً دقيقاً، وهـم -وفقاً لنسبة ذكرهم في النقوش- الزوجة[٤٧]، فـالأم[٤٨]، فـالأخ[٤٩]، فـالأب[٥٠]، فـالأخوات وحدهـن أو مـع أولادهـن[٥١]، فالخالـة[٥٢]. ويُسـمح بـالدفن -إضافةً إلى هؤلاء- لمن يبرز إذناً مكتوباً: ktb tqf[٥٣] من المالك نفسـه: wlmn dy ynfq bydh tb tqf mn yd أو من أشخاص آخرين سواه يحدّدهـم هـو نفسـه كذلك[٥٤].

٥-شروط التصرف بالمدفن: يمنع المستفيدون من التصرف به منعاً باتاً: شـراءً أو بيعاً أو رهناً أو هبةً أو تأجيراً، في العبارة المألوفة: yzbn 'w yzbn 'w yrhn 'w yntn 'w ywgr[٥٥] كما يشمل المنع إصدار أحد المستفيدين صكاً مكتوبـاً خاصـاً بالمدفن أياً كان الغرض من هذا الصك، في العبـارة: l' yktb bqbr' dnh ktb klh[٥٦] أو ما شابهها.

٦-تحديد عقوبة المخالفين: هي لعنة الآلهة أو الغرامة المالية، أو كلتاهما معاً[٥٧]، ووردت عقوبة ثالثة في شاهد واحد (JS26) هي أن تؤول حصة المخالف في المدفن إلى من يليه في درجة القرابة. والآلهة صاحبة الشأن هنا هي: ذو الشرى وحده[٥٨]، أو هو ومناة[٥٩] وقد يثلثهما اللات أوهبل[٦٠]. أما الغرامة فتكون للآلهة وللملك الحاكم بالتساوي[٦١] أو تكون للإله وحده، أو للملك وحده أو للكاهن وحده[٦٢].

٧-بسط الحرمة على المدفن: إذ ورد في أحد النقوش أن للمدفن حرمة تقابل ما هو محرم لدى الأنباط والسلميين[٦٣]، وورد في آخر أن تلك الحرمة تماثل ما للذي للشرى لدى كلتا الجماعتين[٦٤]، ووسِّع مدى الحرمة في ثالث ليشمل المدفن والنقش جميعاً[٦٥].

٨-حظر العبث بالمدفن ونقشه: سواء بكشف القبر: wl' yfth 'lyhm l 'lm (JS13)؛ أو بذلك وبإخراج الجثة أو أحد أعضائها منه: 'w ynfq mnh gt 'w šlw (JS16)[٦٦]، وإلا كان جزاء هؤلاء العابثين أن تنزل بهم لعنة "فاصل الليل من النهار" (JS2)، أو لعنة "سيد العالم"، مالم يكونوا من ذرية المتوفّى (JS17) [٦٧] أو لعنة ذي الشرى وجميع الآلهة، فضلاً عن غرامة مالية تدفع للملك (JS11).

٩-تاريخ النقش: ويكون عادة بتحديد الشهر والسنة من عهد واحد من الملوك الثلاثة المتعاقبين؛ حارثة الرابع فمالك الثاني فربَّ إل الثاني، باستعمال العبارة المألوفة: byrh x šnt x l x mlk nbtw bydh "في شهر كذا سنة كذا لفلان ملك الأنباط"

١٠- ذكر اسم النحّات أو النحّاتين: والموضع الثابت له هو نهاية النقش، والأسلوب الشائع فيه: fsl' 'bd " فلان النحات صنعه"، أو مختصراً بدون الفعل: fsl'.. "فلان النحات" وقد يشترك في العمل أحياناً اثنان من النحاتين أو ثلاثة[٦٨]

مما يرجح أن الحديث هنا عن المدفن والنقش معاً[٦٩]، وإن كان هذا العنصر لا يرد إلا في سبعة عشر من هذه النقوش.

وتتضح من هذا العرض أوجه الاتفاق بين هذه العناصر -مطردةً أو غير مطردة- ونظائرها في النقش الدفني في الساميّة الغربية الشمالية كما ذُكرت أعلاه، وهذا -على الأرجح- ما جعل الباحثين يعدّون نقوش المدافن في مدائن صالح من هذا الضرب. غير أن تفحص معيار التصنيف -هنا وهناك- ينتهي بنا إلى ثلاث نتائج هامة:

إحداها: أن معظم العناصر مشترك مع أضرب أخرى في الساميّة الغربية الشمالية كالنقوش المعمارية أو الوقفية مثلاً، وثانيتها: أن الفيصل -عند الباحثين- في إدراج نقش ما في الضرب الدفني هو ورود اللفظ الدال على القبر فيه، والثالثة: أن هذا المعيار مستمد من الشكل وحده، أي من أسلوب النقش مع إهمال مضمونه أو الغرض منه إهمالاً تاماً، في حين أن الغرض -فيما أرى- هو المرجّح دون سواه لنسبة النقش إلى هذا الضرب أو ذاك. وقد فطن بعضهم إلى هذا فبين أنّ المراد من النقش الدفني أن يكون ذكرى للميت وتوقيراً له، ولذا يُذكر فيه عمره وتُعدد أعماله، وتُمتدح فضائله، ويُتحسر على فقده، ويُدعى له بالسكينة والراحة في قبره[٧٠].

فلمَ لا يجد المرء شيئاً من هذا في نقوش المدافن في مدائن صالح -وهي لا تشكو من القصر -إنْ كانت -كما يزعمون- دفنيّة؟ إن مرد ذلك إلى جملة أمور:

أولاً: لأن مدافنها بُنيتْ في حياة أصحابها ولأن نقوشها كُتبتْ قبل وفاتهم[٧١]، فأنى لهذه النقوش -إذن- أن تتحدث عن أعمالهم وفضائلهم والأسى عليهم والدعاء لهم، وهم بعد أحياء يرزقون؟

ثانياً: لأن نقوشها لا تتحدث -كما هو مألوف- عن قبور فردية بل عن مدافن جماعية أعدّ كل منها ليكون -غالباً- مدفناً خاصاً بإحدى الأسر ويُستعمل إلى أجل غير محدد. والغرض من هذه النقوش هو -في المقام الأول- حفظ حقوق أصحاب المدافن

وصونها من التعدّي عليها أو العبث بها، ولذا فإنها تمتلئ بألفاظ بمعنى "القبر" (gwḥ`. qbr`, kfr')، وتخلو خلوّاً تاماً من الحديث عن "النصب الدفني" (nfš`) الذي يرافق عادة قبور الأموات على النحو الذي رأيناه -في نقوش أخرى- فيما سبق.

ثالثاً: لأن لعنة الآلهة -هنا- ليست لمن يعبث بالمدفن وما فيه فحسب- كما هو معروف في النقوش الدفنيّة- بل هي لعنة مزدوجة إذ تصيب كذلك مخالفي شروط استعمال المدفن.

رابعاً: لأن هذه النقوش -وحدها- تفرض على عدم الملتزمين بشروط استعمال المدافن وكذلك على العابثين بها غرامة مالية[٧٢]، فضلاً عن لعنة الآلهة الشائع ذكرها في النقوش الدفنية.

خامساً: لأن النقوش شبيهة -من حيث بناؤها ومضمونها- بصكوك كاتب العدل أو السجل العقاري في عصرنا هذا، ففيها تعبيرات قانونية تحدّد حقوق الوراثة والملكية والتصرف فيها، وكذلك العقوبتين الدينية والجزائية للمخالفين تحديداً دقيقاً.

فهذه النقوش -إذن- كتابات قانونية[٧٣]، كان ارتباطها بالمدافن مصادفة محضة إذ يمكن أن ترافق ضروباً أخرى من الممتلكات والمنشآت كتلك التي ورد ذكرها في الكتابات النبطية والآرامية واليونانية في برديات "أرشيف باباتا" المكتشف في كهوف عين جدي على البحر الميت، ففيه وثائق تملّك لأراضٍ وبستان نخيل بيعاً وشراء وهبةً، وفيه كذلك دعاوى تنازع على الملكية بين أفراد الأسرة[٧٤]، وفي عقود البيع والشراء من هذه الوثائق المسجلة في السجل النبطي الملكي بدءاً من عام ٩٤م، -أي في عهد رب إل الثاني آخر ملوك الأنباط- تعبيرات قانونية مشابهة لنظائرها في نقوش مدائن صالح؛ فقد نص أحدها على حق الملكية التامة للمشتري وكذلك حقه في البيع والشراء والرهن ونقل الملكية، وأن يفعل كل ما يرغب فيه بما اشتراه بدءاً من يوم كتابة العقد وإلى الأبد[٧٥]: bzbny` `l lyšb'.. dnhmn.

Lmzbn' wlzbnh wmrhn wlmnhl wlmntn wlm' bd bzbny' lhkdy ysb'.... šnh mn ywm d'tktyb štr' dnh w' d 'lm[٧٥].

فإذا صحّت هذه النتيجة التي وصلنا إليها فكيف نعلّل مسألتين؛ إحداهما: خلو نقوش مدائن صالح من عنصر هام في النصوص القانونية هو توقيع الشهود[٧٦]، والأخرى: الاشتراك بينها وبين النقوش الدفنية في عنصر لصيق بها هو التحذير من فتح القبر والعبث بما فيه؟ فأما المسألة الأولى فتعليلها أنه ورد في أحد النقوش ضرورة إيداع نسخة منه في المعبد[٧٧] (JS_{36})؛ ألا يكفي هذا الإجراء -إضافة إلى ما رأيناه من بسط الحرمة على المدفن- لتأكيد حق الملكية وإشاعته بين الناس وإضفاء شيء من القداسة عليه فيسدّ هذا كله مسدّ شهادة الشهود؟ وأما الثانية[٧٨] فليس غريباً -فيما أرى- ورود مثل ذلك في نص قانوني يريد به أصحابه صون حقوقهم وضمان عدم التعدي عليها.

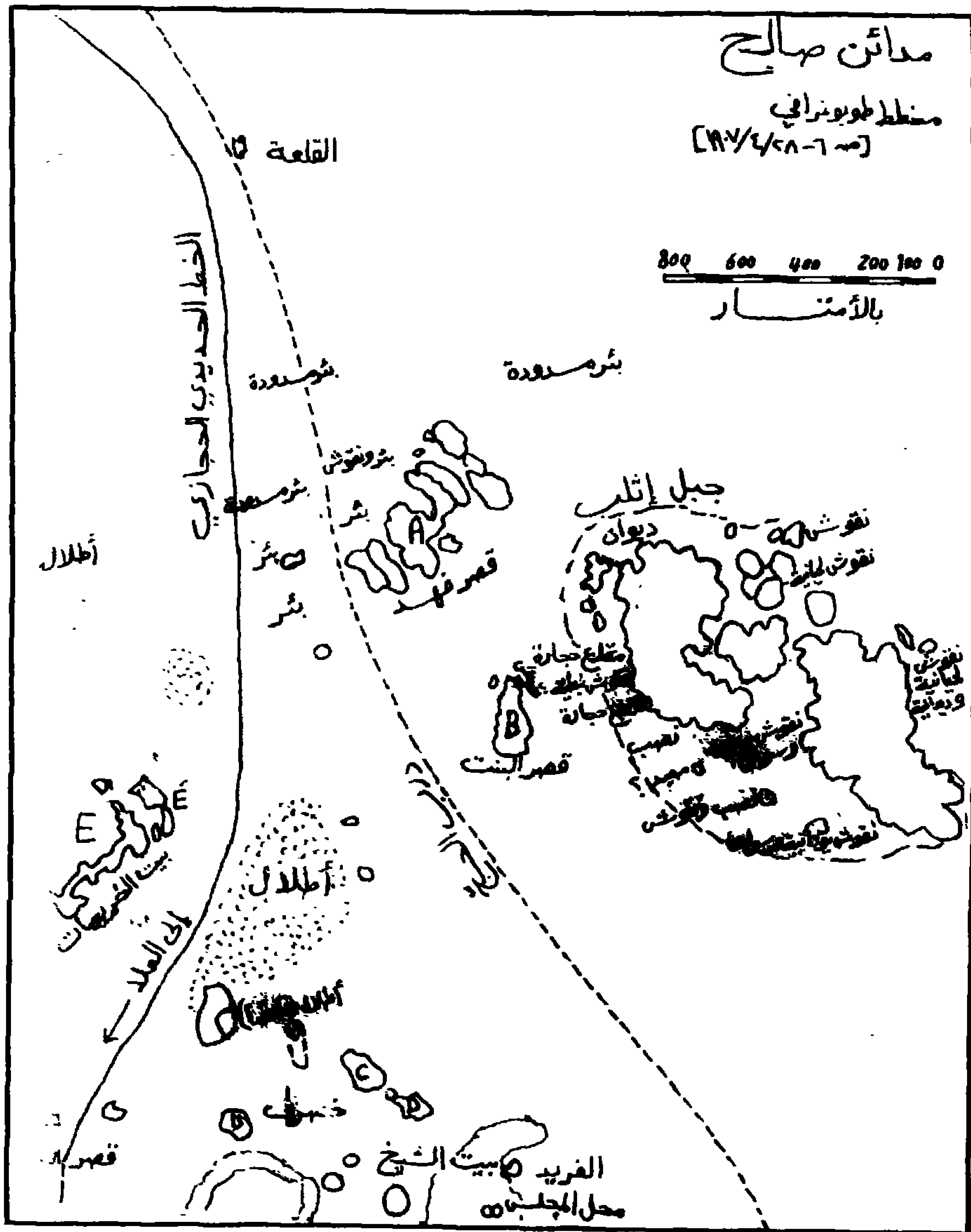
ومما يلفت النظر -أخيراً- أن أحد الباحثين تنبه منذ زمن طويل إلى خصوصية نقوش المدافن في مدائن صالح إذ قورنت بالنقوش الدفنية -في النبطية وسواها- فأشار إلى أنها "أغنى محتوى مما تتضمنه النقوش الدفنّية عادة[٧٩] ولعل ذلك هو الذي جعل بعضهم يجيز إخراجها من هذا الضرب وإدراجها في النقوش المعمارية؛ لأنها تتحدث عن بناء وبانٍ وزمن البناء والغرض منه، غير أنها تصنف على أنها دفنّية لأن البناء المذكور فيها هو القبر، مثلما تصنف النقوش الخاصة بالبناء المكرس للآلهة على أنها وقفية[٨٠].

ولكن أليست نقوشنا هذه -استناداً إلى ما تقدم- أقرب إلى النقوش القانونية منها إلى النقوش المعمارية؟

تذييل: وصل إليّ كتاب:

The Nabataean Tomb Inscriptions of Mada' in Salih by J. Healey (JSS, Suppl. 1) Oxford, 1993

مصوراً بعد كتابة البحث وطباعته وهو -فيما أعلم- أحدث ما نُشر عن كتابات المدافن النبطية وأغزره مادةً وأكثره شمولاً. وقد استطاع المؤلف نقحرة النقش القصير JS_{15} المؤلَّف من سبعة أحرف -لا خمسة- هكذا: 'fth ' bd "[النحات] فلان صنع"، وذكر أن القراءة مؤكدة (انظر pp.152-153). وأضاف إلى مجموعة النقوش نقشين آخرين من عهد رب إل الثاني، أحدهما (H_{17}) -وهو من واجهة المدفن E'_1- مؤلف من أربعة أسطر، والآخر (H_{18})- وهو من واجهة المدفن E'_3- لم يسلم منه سوى أجزاء من السطرين الأول والأخير، ولا يعرف عدد أسطره -كما يقول المؤلف- على وجه اليقين، فضلاً عن الطمس في كلا النقشين (انظر pp.163-165). ليرتفع -بذلك- عدد النقوش المؤرخة بعهد هذا الملك إلى خمسة. فإذا استثنينا هذه الإضافات القليلة إلى البحث فإن كتاب هيلي جعلني أكثر اقتناعاً بما أوردته في هذا البحث من آراء.



معرّب طبق الأصل عن: JS1, pl. III

الهوامش

١) Tomb or Funerary Inscription

٢) ووردت صيغ أخرى مشابهة، ومنها : mqbr في RES 805 من حوران، و mqbrt في CIS II 196 من مادبا، و qbrt في JS_{53} من مدائن صالح.

٣) انظر : DISO, p 25.

٤) وإن كانت الآراء في تفسير هذا اللفظ في النبطية وغيرها متباينة. انظر: DISO. p.183f، و Zayadine. p. 221 و: Lipinski 1975. p. 149f. ووردت صيغة المؤنثة nfšt في CIS II.

٥) في لسان العرب: الكفر: القبر، وفي النقوش اللحيانية: $JS_{45, 75}$ -- وفي الجعزية: Kafar "قبر"، انظر: Leslau p. 277.

٦) ورد wgr في $JS_{11, 12}$ وفي لسان العرب: "الوجر، مثل الكهف... والوجار جحر الضبع والأسد والذئب والثعلب..." وورد في الأحسائية مقترنا بلفظ qbr في Ja 1045. 1046. 1058.

٧) صيغته في التدمرية gwmh (CIS II 4175)، وفي السريانية bēt gmāhā القبر". انظر: Brockelmann. p. 120 وفي العربية جوخة "حفرة". وانظر بشأن الدلالة الهامش ٢٦ أدناه.

٨) هو في التدمرية شائع، انظر شواهده فيها وفي الفينيقية في: DISO. p. 35 وانظر شواهده في الآرامية في: Lipinski 1994, pp. 91. 143.

٩) انظر التفصيل في Mueller. p. 113 ff، وقارن بـ: Lidzbarski. p. 137 ff.

١٠) ورد ذكر "أصحاب الحِجْر" دون ذكر للأنباط أو سواهم -في الآية ٨٠ من سورة الحجر ويستدل من آيات أخرى أنهم قوم ثمود. أما صيغة الاسم في الكتابات النبطية فهي Hgr'.

١١) انظر: Bowersock, p. 70-71. وثمة إشارة إلى ميناء نبطي -آنذاك- يدعى Leuke Kome على ساحل الحجاز، انظر: Periplus, ch. 19.

١٢) انظر: Bowersock, p. 57-58, Negev 1976, p. 228-229.

١٣) نشر E. Renan سبعة وعشرين نقشاً عام ١٨٨٤م، في كتاب بعنوان: Documents épigraphiques recueillis dans le Nord de l'Arabie, par Ch. Doughty . paris, 1884. أما وصف الرحلة في كتاب من مجلدين فقد صدر بعد ذلك بأربعة أعوام، انظر: Doughty 1888.

١٤) مجموع النقوش في كتابه ثلاثون، اثنان منها من العلا (ديدان)، فضلاً عن بعض المخربشات، Graffiti، انظر: Euting 1885.

١٥) انظر: JS I, II, 1909, 1914، وانظر المخطط الطوبوغرافي لمدائن صالح المنقول منه في نهاية البحث.

١٦) انظر مثلاً: winnett & Reed 1970، و Parr et al, 1972.

١٧) ثمة وصف مفصل للمدافن في: JS I, p. 307-404. II, p. 78-108. قارن بـ: Negev 1976, p. 205-23، و: الأنصاري وآخرون: ص ٢٠-٥٠، و: Healy. p. 111-112، أما النقوش فلها مصادر أخرى -سوى Euting و JS- أهمها: مدونة النقوش السامية CIS II.

١٨) انظر جدول النقوش في نهاية البحث.

١٩) ذكر كانتينو أن النقوش الدفنية هي: JS 1-16, 19-38 مستثنياً بذلك النقشين 17:18 دون تعليل، انظر Cantineau I. p. 19 وينبغي هنا التنبيه إلى وجود نقوش أخرى في مدائن صالح بعيداً عن المدافن، منها JS 39;40 من "الديوان" ويرى معظم الباحثين أنها ليست دفنية. وربما كان ضم هذين النقشين هو الذي جعل هيلي يرفع العدد إلى أربعين نصاً طويلاً: major texts، انظر Healey. p. 110 وثمة نقش دفني من المنطقة يعود إلى سنة ٣٥٦م، اكتشف ونشر بعد هذه المجموعة بزمن طويل، انظر: Altheim & Stiehl 1968.

٢٠) ذهب بعضهم إلى أنه مليء بالتعبيرات العربية،انظر:Cantineau II,pp.38-39، وعدّه آخرون عربياً في ثوب نبطي، انظر: Roschinski, p. 162.

٢١) هو كذلك عند هيلي، انظر: Healey, p. 111، أما العدد عند Negev ثم خيري فهو ثلاثون؛ وإن كانت قائمة ثانيهما مقتصرة على ستة عشر نقشاً أحدها -وهو JS39- وقفي من موقع "الديوان". والصواب ما ذكرناه لأن Negev استثنى JS11 بالرغم من أنه مؤرخ، انظر: Negev, 1976 p. 207، و Khairy, pp. 164, 168.

٢٢) المؤرخ بحكم حارثة في قائمة Negev ١٩ نقشاً فحسب، ومرد ذلك إلى إغفاله النقش JS11. والتوزيع عدد خيري على العهود الثلاثة مختلف فهو ٢٠ +٩+٢ على الترتيب. وبالرغم من اقتباسه ما جاء عند Negev فإنه لم يعلل سبب الاختلاف بينهما، انظر: , Negev 1976 p. 208 و Khairy, p.164. وزاد كانتينو عدد المؤرخ بحكم مالك إلى تسعة ليرتفع -بذلك- مجموع النقوش المؤرخة عنده إلى ٣٢، انظر: Cantineau I , p. 19. ويمكن تاريخ نقشين آخرين غير مؤرخين هما JS2,JS13 من المدفنين A3, B11 استناداً إلى نقشين مؤرخين من المدفنين المذكورين هما JS1, JS14، فيزداد عدد المؤرخ بعهدي حارثة ومالك نقشاً واحداً لكل منهما. ويبلغ مجموع المؤرخ -عندئذ- ٣٣ نقشاً.

٢٣) تسمى اللوحة في اللاتينية: Tabula ansata، و "الجملون" هو الواجهة المثلثة أعلى المدخل.

٢٤) اعتمدنا قراءة JS وتقحرته لأن الناشرين استدركا وصححا ما وقع في نشرتي أويتنغ Euting والمدونة CISII من نقص وخطأ. كما أن بعض النقوش لا يرد في المصدرين المذكورين.

٢٥) ورد Kfr` في٢٧ نقشاً، في حين لم يرد qbr` إلا في أربعة، انظر جدول النقوش في نهاية البحث. ويدل تعاقبهما في بعض النقوش كما في النقشين JS8.9 على أنهما مترادفان، ويرى بعضهم أن qbr هو الأصل وأن Kfr متطور عنه، انظر: Levinson, p.211، و Qozi. p. 122.

٢٦) في النقوش JS2:11:13 والشائع ترجمته في اللغات الأجنبية إلى loculos، انظر مثلاً Cantineau II. p. 77. أما في العربية فقد ترجم نظيره في التدمرية gwmh` إلى"معزبة" انظر: البني ص ٢٦٥. انظر بشأن الأصل الاشتقاقي له: Lipinski.1975 . p.201، وO`Connor. p. 218، وقد ترد ألفاظ أخرى في النقش في سياق الكلام على تقسيم ملكية المدفن، نحو: sryh` في JS24.

٢٧) في النقش JS1. ولم يرد اللفظ الأول -وهو من اليونانية Basis- إلا في هذا الموضع. ولم تتفق المراجع التي بين يدي على تحديد المراد به في هذا السياق. أما Kwn` فورد في التدمرية وفي آرامية الدولة وإن كانت دلالته في الأخيرة مختلفة، انظر DISO. p. 127. وقد قُرئ اللفظ في هذا الشاهد قراءة أخرى هي Kwr` (انظر Eut.4 ونظيره CIS II 199). غير أن وروده في شاهد آخر هو CIS II 350 من البتراء يرجح القراءة الأولى.

٢٨) هذا تفسير نولدكة في تعليقه على النقش Eut6، وذكر أن اللفظ معروف في آرامية التلمود وفي السريانية، وتابعه على هذا Lidzbarski. p. 210 و:

Cantineau11.p57 II, p. 57 في حين ذهب رينان إلى أن القـــراءة 'm' "تـــابوت" الوارد في: CIS II 173 من حوران، وتابعه لفنسون ولكنه قال: إنه جـــزء مـــن المدفن، انظر: Levinson, p. 123.

٢٩) الأول في ١٩ نقشاً، والثاني في النقوش: Js10;22;33-35;37، والثـــالث فـــي النقشين JS2;23 والظاهر أن تعدد الأساليب لا يدل على وجود فرق دلالي، بـــل على تأثر النبطية بالآرامية والعربية معاً لأن الإضافة المباشرة فـــي الأسـلوب الثالث من الظواهر المميزة للعربية. قارن بـــ: O'Connor, p. 223.

٣٠) في النقوش: JS 23,26,34,35.

٣١) في النقش JS16.

٣٢) في النقش JS12.

٣٣) في النقش JS14.

٣٤) في النقش JS24.

٣٥) في النقش JS33. وذهب Negev 1976, p. 218 إلى أن الرجل والمـــرأة مـــن أسرتين مختلفتين غير أن كلمة brt أكملت من الناشرين المتعاقبين إلى : brt [h] "ابنته".

٣٦) في النقش JS 30.

٣٧) في النقش JS37.

٣٨) في النقش JS27.

٣٩) في النقشين: JS 6,32، وابنة استراتيجوس في: JS24.

٤٠) في النقش JS31.

٤١) في النقشين JS20;38.

٤٢) في النقش JS19.

٤٣) في النقش JS29. وهو لفظ مختلف في اشتقاقه ودلالته، انظر: Levinson, p. 206 و: هزيم: ص ٧١-٧٢. وقيل إن لفظ 'ghr الذي يتلو اسم صـاحب النقـش JS22 لقب، والصحيح أنه ليس كذلك، انظر هزيم: ص ٧٣-٧٤

٤٤) في النقوش: JS8;10;14;19;28;34;35 مع تغيير طفيـف فـي العبـارة فـي بعضها.

٤٥) في النقوش JS4;19;22;28;29;36، وفي سياق مختلف فـي: JS3;7;24 وقـد ترجم إلى "ورثة شرعيون"، انظر Lidzbarski, p. 144، أو "وفقاً لحق الوراثـة"، انظر Cantineau II, p. 139 و: Levinson, p.207 وقارن بـ: Khairy, p. 167.

٤٦) وردت العبارة في: JS9;20;36. ومن شواهد ورودهما معاً: JS4;36.

٤٧) في النقوش: JS 4;7;20;32;38.

٤٨) في النقوش: JS 1;20;37.

٤٩) في النقوش: JS 13;24;36.

٥٠) في النقشين: JS7;29

٥١) ذُكرن وحدهن في النقشين JS3;12 ومع أولادهن في JS1.

٥٢) في النقش JS13 وثمة قراءة أخرى في نظـيره CIS II 226 هـي: br brth "حفيدها" وأضاف المالك في أحد النقوش (JS9) أخاه إن أقام في الحجر وأدركـه الموت فيها.

٥٣) ورد "الإذن المكتوب" بهذه الصيغة في: JS8;33;37 وبصيغة tqf وحدها في: JS5:7 وبصيغة ktb وحدها في: JS19 وبصيغة ktb' w tqf في JS34. وحل اللفظ štr محل tqf -بالدلالة نفسها- في JS20، وهو معروف في التدمرية وسواها، انظر بشأن اللفظين الأخيرين Roschinski, p. 159 و: Cantineau, pp. 149, 157.

٥٤) كما في النقش JS7.

٥٥) في النقش JS8، ومع تغيير طفيف في: JS1;9;26;32;34 وأضيف إليها في: JS1: y'n' . وفي اشتقاق هذا اللفظ ودلالته ثلاثة آراء انظرها في: DISO, p. 98، وفي š'l يُعير.

٥٦) في النقش JS19، ومع تغيير طفيف في: JS9 والعبارات المشابهة في: JS3;8;34.

٥٧) اللعنة في النقش JS8، والغرامة في النقوش: JS5;9;28. ووردا معاً في النقشين: JS16;31.

٥٨) في النقش: JS1.

٥٩) في النقوش: JS8;19;31.

٦٠) في موضعين من النقش JS16 فاللعنة في أولهما -وهو السطر الرابع- من ذي الشرى واللات ومناة، واللعنة في ثانيهما -وهو السطر الثامن- من ذي الشرى وهبل ومناة، وإن كان اللفظ الدّال على اللعن هنا هو šmdyn- موضع خلاف من حيث قراءته ودلالته، انظر: DISO, p.307 و: Roschinski, p. 159.

٦١) ألف درهم حارثي لذي الشرى ومناة، ومثلها لرب إل الثاني (في JS34). وألف درهم لذي الشرى ومثلها لحارثة الرابع (في JS1) وثلاثة الاف لكل منهما

(في JS19)، وخمس مئة لكل منهما (في JS36) ومئة درهم فقط لإله اســمه tdhy ومثلها لحارثة الرابع (في JS12).

٦٢) لذي الشرى وحده في: JS28;31 (ألف درهم)، وللملك وحده في JS9 (ألفـــا درهم) وفي: JS5 (ألف فحسب) وللكاهن وحده في: JS16 (ألـــف كذلـــك). وقـــد سميت الغرامة في النقش JS16، وكذلك في النقـش JS36 qns، فـــانظر بشـــأنها: Cantineau II, p. 143، و: Levinson, p. 213، على أن النقش JS36 انفـــرد بـــأن الغرامة ألف درهم لاستراتيجوس في الحجر ومثلها للملك.

٦٣) في النقش JS1.

٦٤) في النقش JS19.

٦٥) في النقش JS8، قارن بـــ: Qozi, p. 121 و: Pirenne, p. 202.

٦٦) وبعبارة مشابهة في: JS2;9;11.

٦٧) لهذا النقش خصوصية ينفرد بها عن سائر نقوش المدافن، وقد تقدم الحديـــث عنها. وانظر بشأن الآلهة المذكورة Cantineau 11, p. 39 و Pirenne, p. 207 ff.

٦٨) كما في النقوش: JS7;19;20;36.

٦٩) انظر: lidzb, p. 124 وقارن بـــ: Khairy, p. 165.

٧٠) انظر: Mueller, p. 131.

٧١) ما عدا النقش JS17 المشار إليه أعلاه وثمة نقش آخر -سبقت الإشارة إليـــه- أحدث منه زمناً، إذ يعود إلى عام ٣٥٦م، وقد عثر عليه في مدائن صالح عـــام ١٩٦٥، ولكن موقعه الأصلي غير معروف، انظـــر: Altheim & Stiehl, V,I, 1968, pp. 305-309. والجدير بالذكر أن بعض النقوش الدفنية في السامية الغربية

الشمالية وضعها أصحابها في حياتهم، والسبب في ذلك أن هؤلاء كانوا بلا عقب، انظر Lidzbarski. p. 139.

٧٢) قيل إن الغرامة عرفت قبل ذلك في النقوش الدفنية اليونانية من آسية الصغرى عامة وليكيا Lycia خاصة ثم انتقلت من هناك إلى جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية، انظر: Lidzbarski. p. 143 . ولكن نقوش مدائن صالح تعود -كما رأينا- إلى فترة سابقة لخضوع الأنباط لسيطرة الرومان.

٧٣) Legal Inscriptions.

٧٤) انظر: Yadin. p. 227-258 و: Polotsky. pp. 258-262.

٧٥) انظر: Yadin. p. 241.

٧٦) على النحو المعروف في التدمرية مثلاً.

٧٧) Byt qyš'، وورد لفظ qyš' وحده مرتين أخريين بصيغة qyšh في النقشين: JS8:16 وقيل إن الاسم بصيغتيه لأحد آلهة الأنباط.

٧٨) شواهد هذا العنصر في الفينيقية (KAI13:14)، والعبرية (KAI 191 B.) والآرامية القديمة (KAI225:226) وآرامية الدولة (KAI 260) والسبئية (RES 4090: 4091)، واللحيانية (CLL 63).

٧٩) نولدكة في تعليقه على نقوش أوتينغ، انظر: Euting p. 80.

٨٠) انظر: Lidzbarski. p. 163.

جدول النقوش

المدفن	مصادر النقوش			عدد الأسطر	المنشئ	المالك	الرتبة أو المهنة	التاريخ النبطي			التقويم الميلادي	العقوبة الدينية والجزائية	عدد المدانين	ملاحظات
	EUT	CIS	JS					اليوم والشهر	السنة	الملك				
B6	2	197	8	9	Qbr'	رجل	—	Nysn	9	حارثة الرابع	1م	اللعن	—	
B19	3	198	16	12	kfr'	امرأة وبنتها	—	Ibl	9		1م	اللعن والغرامة	واحد	
A3	4	199	1	10	k. Bss', krk'	رجل	—	S'bt	13		4	اللعن والغرامة	"	المالك من تيماء
E1	19	200	30	10	kfr'	أحول	—	طمس	16		7	الغرامة	—	
الصفع	5	201	29	6	"	رجل	'fwr'	Nysn	17		8	—	واحد	
C7	6	202	25	5	k., 'wn'	رجل	—	Nysn	24		15	—	—	
C17	7	204	27	6	kfr'	رجل	—	26'b	25		16	—	—	
B22	9	206	19	10	Qbr'	رجل	'sy'	'yr	35		26	اللعن	اثنان	
B5	10	207	7	9	"	رجل	—	Nysn	36		27	—	ثلاثة	
E18	12	209	36	10	kfr'	رجل	—	"	40		31	الغرامة	اثنان	
A5	13	210	3	10			—	'yr				—	"	
B1	—	—	5	11			—	Nysn				الغرامة	واحد	
B10	8	203	12	12	"	امرأة وبناتها	—	'yr	43		34	"	"	التاريخ في CIS هو ٣٤ الحارثة والمالكات من تيماء
B10	—	211	11	10	Gwṭy'	امرأة	—	10'b	"			"	—	النقش داخل المدفن
B7	14	212	9	10	kfr'	رجل	—	Ibl	44		35	"	واحد	
C6	15	213	24	9	"	رجل وامرأة	—	"	45		36	—	"	
E4	16	214	32	7	"	رجل	'srtg'	Nysn	48		39	—	"	
E6	17	215	33	7	Qbr'	رجل وابنته	—	—	"		"	—	—	
D	11	208	28	9	kfr'	رجل	—	Nysn	7		؟	الغرامة	واحد	التاريخ هو ٢١ في EUT أو ٢٨ أو ٢٩ في CIS و ٠ في JS
E3	20	217	31	12	"		Qnṭryn'	"	طمس			"	"	
A5	—	—	2	5	Gwṭy'	رجل وأبناء	—	غير مؤرخ				—	—	النقش داخل المدفن والراجح أن المالك هنا هو نفسه في A8 ليكون من عهد [illegible]
A8	22	219	4	8	kfr'	رجل	—	3'b	3	مالك الثاني	42	—	واحد	
B9	23	220	10	4	"		—	—	9		48	—	"	
B23	24	221	20	8	"		Hmk'	'DR	11		50	—	ثلاثة	
E19	25	222	37	5	"	ثلاثة أخوة	—	—	17		56	—	—	
B11	—	203	14	5	"	امرأتان	—	—	18		57	—	—	
C14	26	223	26	5	"	امرأة	—	—	21		60	—	—	
F4	—	—	38	9	"	رجل	Hmk'	Ibl	24		63	—	—	
B4	—	—	6	12	"	"	'srtg'	طمس	طمس			طمس	—	الأسطر من ٢- ١٠ مطموسة
B11	—	226	13	3	Gwḥ'	امرأة	—	غير مؤرخ				—	—	داخل المدفن وربما كان المالك هنا هو نفسه في JS14 لكن صح هذا فهو من عهد مالك
E14	27	224	34	14	kfr'		—	'yr	2	رب إل الثاني	73	الغرامة	—	
E16	28	225	35	3	"		—	—	4		75	—	—	
D	—	—	22	5	"	رجل	—	17 Sywn	5		76	—	—	المالك من الحجر
C1	18	216	23	2	"	امرأة	—	غير مؤرخ				—	—	المالكة من مازن أو مربية
بـ	51	227	21	1	—	رجل	—	غير مؤرخ				—	—	
5 30-2	—	271	17	9	Qbrw	"	—	Tmwz	162	تقويم بصري	267	اللعن	—	

انظر بشأن سنوات حكم رب إل الثاني: Z.Fiema and R. Jones,(ADAJ(1990), pp.239-246، وانظر بشأن عدد النقوش المؤرخة من عهدة التذييل الملحق بهذا البحث.

ثبت المصادر والمختصرات

Althein, F. und R. Stiehli: Die Araber in der alten Welt. I-V (Berlin 1963-1969)

Bowersock, C. Roman Arabia (London, 1983).

Brockelmann,J.:Lexicon Syriacum(Halle,1928,Neudr. Hildesheim, 1966).

Cantineau, J.: Le Nabatéen I. II (Paris. 1930, 1932).

CIS :Corpus Inscriptionum Semiticarm .pars secunda, Inscriptiones Aramaicas continens

CLL: Caskel, W. : Lihyan Und Lihyanisch (Dusseldorf, 1952)

DISo: Jean Ch. et J. Hoftiyzer : Dictionnaire des Inscriptions Semitiques de l'ouest(Leiden,1965)

Doughty, Ch.: Travels in Arabia Deserta ,2 vols. (Cambridge 1888)

Euting, J.: Nabataeische Inschriften aus Arabien (Berlin 1885)

Healey, J.: The Nabataeans and Madain Salih. in: Atlal 10, part III 1986 PP. 108-116

Ja: Jamme, A. Sabaean and Hasaean inscriptions from. Saudi Arabia (Roma 1966), part II , PP.65-82

JS: Jaussen, A. et R. Savignac: Mission archéologique en Arabie I.11. (Paris 1909, 1914)

KAI: Donner, H. und W. Rőllig : Kanaanäisch Und aramäische Inschriften I-III (Wiesbaden 1966-1969)

Khairy, N.: An Analytical Study of the Nabatean monumental Inscriptions at Medā'in Sāleh . in: ZDPV.,96,1980. PP.163-168

Leslau, W.: Compartive Dictionary of Ge'ez (Wiesbaden 1987)

Levinson, J.: The Nabatean Aramaic Inscriptions .Dissertation (Ann Arbor 1982)

Lidzbarski, M.: Handbuch der nordsemitischen Epigraphik (Weimar

1898. Neudr. Hildesheim 1962)

Lipinski. 1975: Lipinski, E Studies in Aramaic Inscriptions and Onomastics. 1. (Leuven 1975)

Lipinski. 1994: Studies in Aramaic inscriptions and Onomastics . II. (Leuven 1994)

Mililk. J.: Nouvelles Inscriptions Nabatéennes. in Syria 35, 1958, PP.227-251

Mlueller. H.p.: Die phönizische Grabinschnift ausdem zypern-Museum KAI 30 und die Formgeschichte Des nordwestsemitischen Epitaphs. in: ZA. 1975-1976. PP.104-132

Negev. 1971: Negev, A. A Nabatean Epitaph from Trans-Jordan .in:

IEJ 21.1971.PP.50-52

Negev. 1976: The Nabatean Necropolis at Egra in: RB 83. 1 976,PP.203-236

O'Connor. M.: The Arabic Loanwords in Nabatean Aramaic..in:

JNES45,1986, PP.213-229

Parr et al: Parr, P. , G. Harding and J. Dayton : Preliminary Survey in N. W. Arabia, 1968. In: Bull.Inst. Univ. London 8-9 (1 969), PP.193-242, 10(1972), PP.23-61

Periplus: The Peirplus of the Erytythraean Sea. Translated by

G. W. Huntingford (London 1980)

Pirenne. J.: La Religion des Arabes préislamiques d'Après trois sites Rupestres et leurs inscriptions. in:Festschrift J. Henninger. Bonn ,1976, PP.177-217

Polotsky, H.: The Greek Papyri from the cave of the Letters in

IEJ 12. 1962 . PP.258-262

Qozi, Y.: Remarques sur une Inscription Nabatéenne de Mada'in Sailh (al-Higr) In ARAM2 : 1&2 (1990).pp. 113-122

RES: Répertoire d'épigraphie sémitique

Roschinski, H.: Sprachen , Schriften und Inschriften in Nordwestarabien. in: <u>Bonner Jahrbücher 180(1980)</u> pp. 155 -188.

Winnett, F. and W. Reed: Ancient Records fr. North Arabia (Toronto 1970).

Yadin Y: Expedition D. The cave of the Letters, in: <u>IE.J 12(1962)pp</u>. 227 - 257

Zayadine, F.: Die Felsarchitektur petra. In <u>Petra und das Königreich der Nabatäer</u>. Hrsg. M. Lindner (München 1983) PP. 212-248.

- الأنصاري، عبد الرحمن، وأحمد غزال وجقري كنج: **مواقع أثرية وصور من حضارة العرب (العلا، الحجر)**. جامعة الملك سعود ١٩٨٤.

- البني، عدنان: **تدمر والتدمريون**. دمشق ١٩٧٨.

- ابن منظور: **لسان العرب**، ١٥ مجلداً، بيروت، د. ت.

- هزيم، رفعت: **الألقاب والرتب السياسيّة والعسكرية في الكتابات النبطية**، أبحاث اليرموك المجلد ١٢ العدد الثاني، ١٩٩٤، ص ٥٧-٨٧.

أسماء الأعلام المؤنثة في النقوش العربية الشمالية

(المودية والصفاوية واللحيانية)

الدكتور سلطان المعاني

"أستاذ الكتابات السامية في قسم الآثار"

جامعة مؤتة - الأردن

أسماء الأعلام المؤنثة في النقوش العربية الشمالية (المودية والصفاوية واللحيانية)

الدكتور سلطان المعاني

"أستاذ الكتابات السامية في قسم الآثار"

جامعة مؤتة - الأردن

هدف البحث وأهميته:

لم يأل دارسو الكتابات السامية* جهداً في دراسة أسماء الأعلام[1]، بيد أن الأسماء المؤنثة بينها كانت أقل حظاً بالدرس والتحليل، وتحاول هذه الورقة إلقاء الضوء على أسماء الأعلام المؤنثة في النقوش العربية الشمالية.

---

* أول من أطلق هذه التسمية في عام ١٧٨١ المستشرق النمساوي "شلوتسر"، معتمدا على ما جاء في (سفر التكوين [١٠-١]): "وهؤلاء مواليد بني نوح سام وحام ويافث ومن ولد لهم بعد الطوفان". وشاعت هذه التسمية مذ ذلك لدى المستشرقين، ثم سرت في كتابات الباحثين العرب اقتباسا وتقليدا؛ وعلما أن هذا المصطلح لا يستند إلى أسس علمية، إضافة إلى صدوره عن أصل توراتي. ولا نجد أصلا له في مختلف النقوش والكتابات القديمة (رافدية أو مصرية أو كنعانية/ آرامية إلخ...) كما أننا لا نجد أثرا للتسمية في القرآن الكريم. وقد أطلق الدكتور جواد علي (**تاريخ العرب قبل الإسلام**، ج٢، ص٢٨١) اسم (الأقوام العربية) على أسلافنا الأوائل. نكرر قائلين إن مصطلح (السامية والساميين" خاطئ، وكما قيل "خطأ شاع استعماله". ولو لم يلجأ الصهاينة _كما نعلم- إلى الابتزاز السياسي، بترديد نغمة "سامية ولا سامية"، لمررنا على الأمر مرور الكرام. ونرى أن الدكتور جواد علي قد اقترب من الصواب في مصطلحه؛ وعلى كل، فعلى الباحثين العرب أن يقترحوا ويناقشوا ويتفقوا على تسمية أكثر مطابقة لمنطق التاريخ واللغة وعلم الأنساب (هيئة التحرير).

وتأتي أهمية هذا البحث من اعتماد النقوش كمصدر أساسي لدراسة جانب مهم من حياة العرب من خلال النقوش الصفاوية والثمودية واللحيانية، ألا وهو الأسماء المؤنثة، وما تبرزه من ملامح لغوية، وما تعكسه من دلالات مختلفة، ومقارنة ذلك مع لغة العرب الفصحى.

تقديم:

إن طبيعة موضوعات النقوش العربية الشمالية تجعل الرجل محور النقوش وصانع مادتها، ولذا فقد زخرت بأسماء الأعلام المذكرة، مع عدم خلوّها بطبيعة الحال من الأسماء المؤنثة.

وقد جعلت العربية -شأنها شأن باقي اللغات السامية[٢]- نهايات الأسماء المذكرة عاطلة عن الأشغال بعلامات جنسية مميزة، وجعلت المؤنثة تتصل بنهاية، ولا تحمل هذه النهاية بالضرورة الإشارة إلى الجنس الحقيقي. ويلوح تناغم أسماء الأعلام في النقوش العربية الشمالية مع العربية المحضة في هذا الجانب، بيد أننا نلحظ غلبة التأنيث الاصطلاحي على الحقيقي، في حين تعبر خصوصية الحال في الأسماء على التأنيث أو التذكير في مواقع أخرى. إن التفريق بين المؤنث الحقيقي والمذكر الحقيقي لم يكن أصلاً من خلال علامات لغوية خاصة، وإنما عن طريق اختلاف اللفظ كقولنا ذكر وأنثى[٣].

أما الأسماء المجازية الدالة على التأنيث، التي اتفق عليها عند العرب وأغلب الشعوب السامية فقد اختصت بكينونات دون غيرها، كأعضاء الجسم، وما دل على مدينة، بيد أن هناك أسماء أخرى اتفق على تأنيثها سماعياً، فالساميون يؤنثون -مثالاً لا حصراً- النار والحجر والبئر من غير علامات التأنيث[٤]. ورغم أن علامات التأنيث العربية محدودة، فقد جعلها بعضهم خمس عشرة علامة، منها ما يكون للأسماء وهي الألف المقصورة كقولك سعدى، والألف الممدودة كقولك حمراء، والتاء كقولك الهندات،

والنون كقولك أنتن، والكسرة كقولك أنت، والياء كقولك هذي قامت، أو للأفعال وهي التاء مثل قامت، والياء كتضربين، والكسرة في قمت، والنون اختلطت بالفعل مثل قمن، أو الأدوات وهي التاء في ربت رجل ضربت، والهاء في هيهات، والهاء والألف في أنها(٥). غير أن الأنباري قد قسم الأسماء المؤنثة على أربعة أقسام، فقال: "اعلم أن الأسماء المؤنثة تنقسم على أربعة أقسام: أولهن أن يكون الاسم المؤنث فيه علامة فاصلة بينه وبين المذكر.. والقسم الثاني: أن يكون الاسم المؤنث مستغنياً بقيام معنى التأنيث في عن العلامة...والقسم الثالث: أن يكون الاسم المؤنث مخالفاً لفظ ذكره مصوغاً للتأنيث، فيصير تأنيثه معروفاً لمخالفته لفظ ذكره مستغنى فيه عن العلامة... والقسم الرابع: أن يكون الاسم الذي فيه علامة التأنيث واقعاً على المذكر والمؤنث كقولهم: شاة للذكر والأنثى(٦).

وقد شغلت علامات التأنيث في العربية نهايات الأسماء المؤنثة في العربية الشمالية، والتي يمكن درجها حسب نهاياتها على النحو التالي:

١- **تاء التأنيث**: وهي علامات التأنيث وأكثرها أمثلة في العربية خصوصاً وباقي اللغات السامية عموماً، وينمّ عنها فتح ما قبلها، إذا كانت الكلمات ذوات مقاطع، وإلا فإن ما قبلها يلزم السكون وتتمثل هذه العلامة في الأسماء: الأثلة، الأراكة، أمية، بسرة (في الثمودية)، جحشة، جمرة، جميلة، حية، خيرة، دورة، دومة، ربابة، رملة، زهرة، سعدة، سكينة، سلمة، سمية، سودة، شجرة، شرة، ضباعة، عبدة، عثمة، عزة، علية، عمرة، عنزة، عنيزة،غربة، غزالة، غزية، فهدة، قرمة، كثيرة، لبة، لبابة، لطيفة، الملاءة، نائلة، نسرة، نعمة، نمرة، وهبة.

٢- **الهاء**: وهي تاء التأنيث، وقع على نهاية الجملة التي تشغلها النبر، فلفظت في حالة الوقف هاء؛ وقد مثلها من الأسماء البخيلة< البخيلة، وبرزة< برزة ، دره< درة، بسره<بسرة، (في الصفوية)، بحجه< بحجة. إن الصورة الصوتية الجديدة

التي تحدث للتاء في حالة الوقف وذلك بقلبها هاء، لا يشير بالضرورة إلى علامة صوتية بينهما(٧).

٣- **الألف والهمزة:** الأسماء في صيغة فعلاء، مؤنث أفعل، تندرج تحت هذا البند، ويمثلها هنا الاسم بلجاء.

٤- **الألف المقصورة:** ومنها الأسماء على صيغة فعلى، مؤنث أفعل الدال على التفضيل، وفي النقوش العربية الشمالية، التي بين أيدينا يندرج تحت هذا البند اسما سعدى (بضم السين)، وسلمى (بفتح السين). **والألف الممدودة:** كنهاية للأسماء المؤنثة تمثلت في اسم ثريا، الذي ورد خلافاً لذلك في الثمودية منتهياً بالتاء، ث ر ي ت(٨).

٥- **المؤنث السماعي:** وهي رباب، وسجاح، وحسن، ورئم، وسحر، وعتب، ونعم.

لم يشر سياق النقوش الصفوية التي تضمنت أسماء الأعلام السابقة إلى جنس صاحب الاسم المؤنث، بل إنها بأكملها جاءت متبوعة بالكلمة /ب ن/ لتدل على جنس صاحبها المذكر. أما كلمة بنت > /ب ت/ فلم ترد في النقوش العربية الشمالية إلا لماماً(٩)، وما كان ورودها ليفيد في هذا المقام، إذ لم تكن مسبوقة باسم صريح يدل عليها إلا ما ندر، ويكاد النقشان التاليان يكونان المثالين الوحيدين لهذه الظاهرة:

ل م ت ي ب ت خ ر ع ت(١٠).

"لماتي بنت خارعة"

ورد الاسم ماتي < /م ت ي/ في عدد وافر من النقوش الصفوية اسم علم مذكر(١١)، وليس هنالك أمثلة على وروده اسم علم مؤنث سوى هذا النقش.

أما الحرف الأخير من الاسم فيذكرنا بنهايات بعض الأسماء المؤنثة النبطية، وهي الياء حلت محل الألف المقصورة الخاصة بالتأنيث(١٢).

أما الاسم الثاني فهو /ا ع ذ ق/ ويظهر في النقش التالي:

ل ا ع ذ ق ب ن ت و ه ب ا ل ب ن ظ ن ا ل[١٣].

"لأغذاق بنت وهب ايل بن ظنان ايل"

الاسم أعذاق مشتق من عذق "الماهر"، الحذق، الطيب الرائحة"، وقد ورد في نقش صفوي آخر اسم علم مذكر[١٤]، في حين ورد منتهياً بالتاء في نقش معيني في العربية الجنوبية[١٥].

وقد تراوحت هذه الأسماء بين اسم جنس مثل جحشة، واسم عين مثل غزالة وعنزة، واسم معنى مثل غربة وهبة، واسم صفة مثل جميلة وسمية، وهي بمجملها أسماء منقولة عن أفعال ومصادر، يمكن درجها صرفياً تحت الصيغ التالية: فعل وفعلة، فعل، فعل وفعلة، فعل وفعلة، فعال وفعالة، فعال وفعالة، فعالة، فعيل وفعيلة، فعيل وفعيلة، فاعل ، وأفعل.

لم تقم هذه الدراسة على البحث في وظيفة علامات التأنيث، ولا على التثبت من جنس المؤنث تأنيثاً حقيقياً، فقد أغنت دراسات أخرى مؤونة ذلك، وإنما قامت على توضيح ظاهرة التأنيث في النقوش العربية الشمالية، سواء من خلال تلك الأسماء التي أنثت تأنيثاً اصطلاحياً وفق المصطلح اللغوي الشكلي، أو تلك الأسماء التي خلت من علامات التأنيث، غير أنها عبرت عن أحوال تميز المؤنث عن المذكر فأنثت تأنيثاً مجازياً. ومن خلال المقارنة بين عربية النقوش اللحيانية والثمودية والصفوية وبين عربية القرآن الكريم، نجد أنه لا انفصال زمني بين المرحلتين قد أثر على الإرث اللغوي المشترك، وباين بين تصورات العرب وأذواقهم، وباعد بين رؤيتهم وذهنيتهم في التفريق الجنسي، فالمذكر والمؤنث من الأسماء لم يخرج في المرحلتين عن القاعدة المقررة في تقسيم الاسم الجنسي، والمتتبع لدلالات الأسماء وأنواعها يلاحظ رحلة التناغم الدلالي بينهما، وهي من حيث الموضوعات كالآتي:

- الدلالات النباتية تبرز في الأسماء التالية: الأراكة، دومة، زهرة، نبت، جمرة.
- الدلالات الحيوانية: ويندرج تحتها الحيوانات البرية والمدجنة التالية: أروى، ثور، جحشة، حمزة، حية، رئم، ضباعة، عزة، عنيزة، وغزالة.
- الدلالات الدينية ويمثلها سعدة، وهبة، وضباعة.
- دلالات ذات بعد سياسي اجتماعي، مثل: الأثلة، سمية، علية، نائلة، عزة، لبابة، نعم.
- الدلالات الزمانية ومنها هنا براء، سحر وصبح.
- الدلالات المعنوية مثل براء، أبلى، الأثلة، أمان، النوار، أمية، أمة، البخيلة، برزة، خيرة، سعدة، سكينة، سلمى، عبدة، غزية، كثيرة، لطيفة، جميلة، حسن، نعمة.
- الدلالة الوصفية كبسرة: زهرة، غربة، عمرة، سجاح، الملاءة.
- والدلالات التي تشير إلى مظهر طبيعي أو ظاهرة طبوغرافية وتمثلها الأسماء: رملة، ثريا، درة، رباب، سودة، شرة، عتب، عنان، لهب.
- التسمية بالملامح الجسدية: مثل سجاح، سلمة، عثمة.

جدول الأسماء:

يقوم هذا الجدول على إيراد الأسماء المؤنثة في العربية الشمالية ومثيلاتها في العربية الكلاسيكية، وذكر المعنى أو المعاني المحتملة للأسماء. وقد بدء بكتابة الاسم كما هو في العربية الفصحى، ثم وضعت الأسماء التي وردت في النقوش بين قوسين.

- **أبلى** (أ ب ل ا) بمعنى "بلاء، حزن"[١٦]، وهو في العربية بمعنى "الاجتهاد" أيضاً[١٧]، ورد الاسم في النقوش الصفوية مرتين[١٨]، كما ويرد في اللحيانية الاسم بلاء[١٩].

- **الأثلة** (أ ث ل ت)، ورد في العربية الشمالية بدون اللاحقة تاء[٢٠]. وقد جاء الاسم في العربية مذكراً (أثل) أيضاً، وتعني الكلمة "الشرف والمجد" وهي بالضم بمعنى "الأصل في الأشياء" وقال الشاعر الأموي العابد عبد الرحمن القس في امرأة تدعى أثلة:

أثلة جر جيرتك الزيالا وعاد ضمير ودكم خبالا

فامي مستقيلك أثل لبي ولب المرء أفضل ما استقالا[٢١]

قارن السبئية /أ ث ل ت/[٢٢].

- **الأراكة**: (أ ر ك ت)، وهي في العربية واحدة آراك، جمع أرائك "شجرة شوكية"، وقد قال الشاعر الأموي زيد بن مفرغ الحميري في جاريته:

أما الأراك فكانت من محارمنا عيشاً لذيذاً وكانت جنة رغدا

وجاء ورودها في الثمودية دون غيرها من النقوش العربية الشمالية[٢٣].

- **أروى** (أ ر و) ورد الاسم في الصفوية[٢٤]، بمعنى "ماعز جبلي"، جمعها أروية، وهو من أشهر أسماء النساء في العربية مثل: أروى بنت عبد المطلب بن هشام بن عبد مناف، عمة الرسول عليه السلام، وأروى بنت عثمان بن عفان، وأروى بنت أمية الأكبر بن عبد شمس أخت حرب بن أمية جد معاوية بن أبي سفيان[٢٥].

- **أمان**[٢٦] (أ م ن) ورد الاسم في الصفوية والثمودية[٢٧]. والاسم في العربية يفيد معنى حفظ الود والعهود، أو الطمأنينة والسلم، واشتهر الاسم اسماً لمغنية مشهورة من العصر العباسي[٢٨].

قارن القتبانية /ا م ن/[٢٩]، والنبطية /ت م ي ن/[٣٠] والتدمرية /ا م ي ن/[٣١].

- **أمة** (أ م ت)، ذكر الاسم في الصفوية[٣٢] والثمودية[٣٣]، ويعني "العبدة، والجارية، الرقيقة"، ومن أسماء العربيات أمة بنت خالد بن سعيد بن العاص، وأمة بنت خليفة، وأمة بنت أبي الحكم وهن من الصحابيات رضي الله عنهن. وقد وردت كلمة أمة في الأسماء المركبة، وخصوصاً في الأسماء ذات الدلالات الدينية، ومنها أمة الله، وأمة الجليل، وأمة الخالق، وأمة الرحمن، وأمة السلام وغيرهن في العربية، ومنها / ا م ت ح م د/ في اللحيانية[٣٤]، /أ م ت ي ث ع ن/ في اللحيانية[٣٥]. قارن /ا م ت ا ل م ق ا/ في السبئية[٣٦]، /ا م ت ل ت/ في التدمرية[٣٧]، /ا م ت ب ل/ في النبطية[٣٨].

- **أمية** (أ م ي ت)، ورد الاسم في كل من الصفوية والثمودية[٣٩]، بمعنى "مجتهد"[٤٠]، وهو في العربية مصغر الأمة أو ميه، أو مي "العبدة" أيضاً، وممن سمي به من العربيات، أمية بنت رقيقة، وأمية بنت قيس أبي الصلت الغفارية وغيرهن[٤١]. قارن /ا م ي ت/ في النبطية[٤٢]، و /أ م ي ت/ في التدمرية[٤٣].

- **بجرة** (ب ج ر ت)، ذكر الاسم في الصفوية أكثر من مرة[٤٤]، وقد أشارت النقوش النبطية للاسم مؤنثاً[٤٥]. قارن /ب ج ر ت/ في التدمرية[٤٦].

- **بحجة** (ب ح ج هـ)، ذكر الاسم في الصفوية مرات عديدة[٤٧].

- **البخيلة** (ب خ ل ه)، ورد الاسم في الصفوية مرات عديدة[٤٨] بمعنى الشح والبخل.

- **براء** (ب ر ء)، مصدر يوصف به وهو بمعنى "سليم، خالص النية" أو "أول أو آخر ليلة في الشهر"، والاسم كثير الورود في الصفوية[٤٩].

- **برزة** (ب ر ز ت) "العفيفة الطاهرة، الجليلة ذات الرأي الثابت، ملفتة للنظر، ذات حضور" ومنهن بنت مسعود بن عمرو الثقفية بايعت رسول الله عليه السلام[٥٠]، ذكر الاسم ست مرات في الصفوية كاسم علم[٥١].

- **بسرة** (ب س ر ت، ب س ر ه)، بمعنى "اليافعة، والغضة"، وممن سمي بهذا الاسم من العربيات بسرة بنت لبيد بن ربيعة العامري، وبسرة بنت حسان العدوي الفزاري، وقد ورد الاسم بالتاء المتحركة في النقوش الثمودية[٥٢]، وفي حالة الوقف في الصوفية[٥٣].

- **بسمة** (ب س م ت)، جاءت النقوش الثمودية والصفوية على ذكره[٥٤]. قارن العبرية /basemat/[٥٥]، والمعينية /ب ش م ت/[٥٦].

- **بلجاء** (ب ل ج أ) بمعنى "طلقة الوجه المتهللة، واسعة العينين، البيضاء واسعة الوجه"، ورد الاسم في الصفوية [٥٧].

- **ثريا** (ث ر ي ت)، يرد الاسم في النقوش الثمودية باللاحقة تاء[٥٨]، ويرد في الصفوية والثمودية بدونها أيضاً[٥٩]، ولعل المعنى يدلل على نجم الثريا أو على الرخاء والغنى، ومنهن عند العرب الثريا بنت علي بن عبد الله بن الحارث بن أمية الأصفر بن عبد شمس، وهي من الأميرات اللواتي شبب بهن عمر بن أبي ربيعة في قصائده[٦٠].

- **ثور** (ث و ر) ورد الاسم في الصفوية[٦١]، وهو في العربية اسم علم مذكر ومؤنث معا[٦٢]، وقد كانت زوجة معن بن أوس تدعى بهذا الاسم[٦٣].

- **جحشة** (ج ح ش ه)، ورد الاسم في اللحيانية[٦٤].

- **جمرة** (ج م ر ت)، ورد الاسم في الصفوية[٦٥]، وجمرة واحدة جمر وهو القطع المتقد من الخشب، وممن تسمى بهذا الاسم من العربيات جمرة بنت قحافة، وجمرة بنت عبد الله بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب.

- **جميلة** (ج م ل ت)، ورد الاسم في أحد النقوش الصفوية[٦٦]. قارن النبطية /ج م ل ت/[٦٧]، التدمرية /ج م ل ت/[٦٨].

- **حسن** (ح س ن)، ورد الاسم في الصفوية والثمودية[٦٩]. وحسن في العربية اسم مغنية معروفة[٧٠]. قارن السبئية /ح س ن/[٧١].

- **حمزة** (ح م ز ت)، ورد الاسم في اللحيانية بمعنى "الأسد، وهو ضرب من البقول والخمر"[٧٢]. جاء الاسم في العربية مذكرا أغلب الأمر، غير أنه ورد اسما مؤنثا ومثال ذلك حمزة زوجة عمران بن حطان[٧٣].

- **حملة** (ح م ل ت)، ورد الاسم في النقوش العربية الشمالية بكثرة[٧٤]، وهو في العربية مؤنث حمل بمعنى "السحاب الكثير الماء". وقد ورد هذا الاسم في الجمهرة أيضاً[٧٥]. قارن السبئية /ح م ل ت [٧٦].

- **حية** (ح ي ت)، ورد الاسم في اللحيانية والصفوية والثمودية[٧٧]. ويرد الاسم مذكرا في النبطية[٧٨]. قارن /ح ي ت/ في القتبانية[٧٩]. وهو في العربية بمعنى "الغضة، المخصبة" ومنهن حية بنت عبد مناف بن قصي القرشي.

- **خالصة** (خ ل ص ت)، ورد الاسم في الثمودية والصفوية مرات عديدة[٨٠]. وجاء في العربية بمعنى "زبدة الخلان وأفضلهم، الصديق الودود الحبيب، النقية البيضاء"[٨١].

- **خمرة** (خ م ر ت)، قليل الورود في الصفوية[٨٢]، غير أنه يرد في العربية أيضاً[٨٣].

- **خيرة** (خ ي ر ت)، وقد ورد الاسم في الصفوية[٨٤] والثمودية[٨٥]، والاسم في العربية بمعنى "الكريمة، الشريفة، ذات الخير" ومنهن خيرة بنت أبي حدود سلامة بن عمير الأسلمية وهي أم الدرداء رضي الله عنهما، وخيرة زوجة الشاعر الأعشى.

- **درة** (د ر ه)، ويرد الاسم في الصفوية عشرات المرات بالحرف هاء في نهايته وليس التاء المربوطة[٨٦]، وهي بمعنى "يصون"[٨٧]، أو اللؤلؤة، وممن تسمى بهذا الاسم من النساء العربيات درة بنت أبي لهب الهاشمي صحابية رضي الله عنها، ودرة بنت أبي سلمة صحابية أيضاً[٨٨].

- دومة (د و م ت)، وقد رود الاسم في الثمودية[٨٩]، ويعني "شجرة التمر الصغيرة".

- رئم (ر ء م)، ورد هذا الاسم في الصفوية والثمودية[٩٠]، ورئم تعني "الغزال، الأبيض الناصع".

- **رباب** (ر ب ب)، ورد الاسم في الثمودية[٩١]. ورباب في العربية تعني "الغيمة الماطرة"، ومن النساء الرباب بنت أنيف بن عبيد بن مصاد الكلبي. قارن السبئية /ر ب ب/[٩٢].

- **ربابة** (ر ب ب ت)، ورد الاسم في الثمودية[٩٣]، وهي واحدة رباب، ولعلها تشير إلى الآلة الموسيقية المعروفة. قارن /ر ب ب ت/ في السبئية[٩٤].

- **رملة** (ر م ل ت)، ورد الاسم في الثمودية مرة واحدة[٩٥]، وهو هنا على صيغة الوحدة من رمل، ومن النساء العربيات اللواتي تسمين بهذا الاسم رملة بنت أبي سفيان بن حرب بن أمية.

- **زهرة** (ز ه ر ت)، ورد هذا الاسم في الصفوية[٩٦]، وهي واحدة الزهر، وتعني "صفا لونه، حسن، البياض الشديد وصفاء اللون".

- **سجاح** (س ج ح)، ورد هذا الاسم في عدد من النقوش الصفوية[٩٧]، وسجاح في العربية اسم امرأة تميمية ادعت النبوة وهي صاحبة مسيلمة. وتقول العرب سجح الخد والوجه سجحاً وسجاحة بمعنى سهل وطال في اعتدال، أو هو حسن الخلق ولطفها[٩٨].

- **سحر** (س ح ر)، ورد الاسم في الصفوية اسم علم[٩٩]. والاسم مشتق أما من السحر بكسر السين أو من سحر معنى آخر الليل قبيل الفجر، وهو أيضاً البياض يعلوه السواد[١٠٠]. قارن السبئية والمعينية /س ح ر/[١٠١].

- **سرة** (س ر ت)، ذكر الاسم في النقوش الصفوية[١٠٢]، وعلها الوقبة التي وسط البطن أو بمعنى الريحانة[١٠٣].

- **سعدة** (س ع د ت)، ورد الاسم في الصفوية والثمودية[١٠٤]، ويعني "اليمن والبركة: . قارن السبئية /س ع د ت/[١٠٥]، و /س ع د ت ا ل ب/[١٠٦].

- **سعدى** (س ع د ه)، ورد الاسم في الصفوية[١٠٧].

- **سكينة** (س ك ن ت)، ورد الاسم في الصفوية[١٠٨]، والكلمة في العربية تحمل معنى"الهدوء وكاسم علم، خفة الروح"، ومن اللواتي تلقبن بهذا الاسم آمنة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

- **سلمة** (س ل م ت)، يرد الاسم في النقوش العربية الشمالية مرات عديدة[١٠٩]، وهو بمعنى "المرأة الناعمة الأطراف"، وقد جاءت النقوش البنطية على إيراده[١١٠]. قارن /س ل م ت/ في الحضرمية والمعينية والقتبانية والسبئية[١١١].

- **سلمى** (س ل م ه)، ورد الاسم في الصفوية واللحيانيـــة[١١٢]، وذكرتـــه النقـوش النبطية منتهياً أما بالواو /س ل م و/[١١٣]، أو بالهاء /س ل م ه/[١١٤]، ويفيد الاسـم معنى الصلح والسلام.
- **سمية** (س م ي ت)، ورد لاسم في الصفوية[١١٥]، وهو في العربية بمعنى "شريفة الاسم"، ومنهنّ سمية أم عمار بن ياسر رضي الله عنهما. قارن /س م ي ت/ فـــي السبئية[١١٦]، و /س م ي ا/ في التدمرية[١١٧].
- **سودة** (س و د ت) ورد الاسم في الصفوية[١١٨]، وتصغيرها سويداء، وهي فـــي العربية بمعنى الأرض ذات النخيل، وقد جاءت النقوش النبطية على ذكرها باسم /أ ش و د ت/[١١٩]، وقارن أيضاً /س و د ت/ في الحضرمية[١٢٠].
- **شرة** (ش ر ت)، ورد اسم في الصفوية والثمودية[١٢١]، وهو في العربية بمعنـــى "الحدة أو الجبل والجهة"، ولعل الاسم من أسماء الأضداد.
- **صبح** (ص ب ح)، الاسم كثير الورود في النقـــوش الصفويـــة والثموديـــة[١٢٢]، والاسم يحمل دلالة "حمرة الصبح، الإشراق" ودلالة "الأمر الواضح"[١٢٣]. قـــارن /ص ب ح/ في المعينية والقتبانية والسبئية[١٢٤].
- **ضباعة** (ض ب ع ت)، جاءت المفردة في النقوش الصفوية[١٢٥]، وضباع تعنـــي "رفع اليدين بالدعاء". قارن /ض ب ع ت/ في السبئية[١٢٦].
- **طايلة** (ط ي ل ت)، ورد الاسم في الصفوية[١٢٧]، وهو مؤنـــث طـــائل بمعنـــى "الثأر، السلطة، الغنى"[١٢٨].
- **عبدة** (ع ب د ت)، ورد الاسم في الصفوية[١٢٩]، ويعني "الأنفة والقـــوة"، ومـــن الشهيرات بهذا الاسم عبدة بنت عبد الله بن يزيد بن معاوية، وعبدة بنت هشام بـــن عبد الملك[١٣٠].

- **عتب** (ع ت ب)/ ورد الاسم في الثمودية[١٣١]، من الجذر عتب بمعنى "الشدة، ما بين الجبلين، الوعر". قارن القتبانية والسبئية /ع ت ب/[١٣٢].

- **عثمة** (ع ث م ت)، ورد الاسم في النقوش الصفوية[١٣٣]. وهي في العربية بمعنى "آثار جرح، ندبة"، ومن الشهيرات بهذا الاسم عثمة زوجة عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي أحد فقهاء المدينة[١٣٤].

- **عزة** (ع ز ت)، ورد الاسم في الصفوية[١٣٥]، وعزة بفتح العين تعني "غزالة" وبكسرها تعني "الحمية، الأنفة والقوة" ومن النساء عزة الأشجعية، من الصحابيات الرواة.

- **علية** (ع ل ي ت) جاء الاسم في النقوش الثمودية[١٣٦]، وقد ورد الاسم في النبطية مذكراً[١٣٧]، وهو كأسم علم يعني "الشريفة رفيعة القدر"[١٣٨]. قارن /ع ل ي ت/ في القتبانية[١٣٩]، و /ع ل ي ت/ في التدمرية[١٤٠]، و /ع ل ي ت/ في النبطية[١٤١].

- **عمرة** (ع م ر ت)، وردت الكلمة بكثرة في النقوش الصفوية والثمودية[١٤٢]، وهي كأسم مؤنث وبفتح عين الاسم بمعنى "زينة للرأس"، وبضم العين تعني "السفر إلى المكان العامر"، وقد جاءت النقوش النبطية باسم /ع م ي ر ت/كاسم علم مؤنث[١٤٣]. قارن أيضاً /ع م ر ت/ في التدمرية[١٤٤]، وفي المعينية والقتبانية والسبئية[١٤٥].

- **عنان** (ع ن ن)، ورد الاسم في اللحيانية والصفوية[١٤٦]، وهي في العربية بمعنى "الغيمة الماطرة"، ومن النساء عنان الشاعرة زمن أبي فراس الحمداني[١٤٧]. قارن التدمرية /ع ن ن/[١٤٨].

- **عنيزة** (ع ن ز ت)، ورد الاسم في الصفوية[١٤٩]، وهي تصغير عنزة، ومن النساء عنيزة بنت طريف بن عمرو بن ثمامة الطائية.

- **غربة** (غ ر ب ت)، ورد الاسم في اللحيانية[١٥٠]، وغربة بفتح الغين تعني في العربية "البياض الصافي" وبضمها "البعد ، الحدة"[١٥١]. قارن /غ ر ب ت/ في المعينية[١٥٢].

- **غزالة** (غ ز ل ت)، ورد الاسم في الصفوية[١٥٣]، ويعني الاسم فيما يعني "الشمس عند طلوعها"[١٥٤].

- **غزية** (غ ز ي ت)، ورد الاسم مرات عديدة في النقوش الصفوية[١٥٥]، وهي في العربية تصغير غزوه "ماطلب وقصد"، ومن النساء غزية بنت الحويرث بن العنبس بن وهبان بن حذافة بن جمح.

- **كثيرة** (ك ث ر ت)، جاء الاسم في عدد من النقوش الصفوية[١٥٦].

- **لبابة** (ل ب ب ت)، وقد ورد الاسم في اللحيانية[١٥٧]، وتعني الكلمة في العربية "نبيلة" ومن الشهيرات بهذا الاسم لبابة بنت عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، ولبابة بنت أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، ولبابة بنت عبد الله بن جعفر بن أبي طالب.

- **لطيفة** (ل ط ف ت)، ورد الاسم في الصفوية[١٥٨]، والاسم يعني "المليحة، أو الكلمة الرقيقة"، ومن الشهيرات بهذا الاسم لطيفة بنت محمد بن محمد الأماسي[١٥٩].

- **لهب** (ل ه ب)، ورد الاسم في النقوش الصفوية[١٦٠]، واللهب لسان النار أو الغبار المرتفع واشتهرت مغنية عباسية بهذا الاسم[١٦١].

- **الملاءة** (م ل أ ت)، ورد الاسم في الثمودية[١٦٢]، والملاءة في العربية "الملحفة، الغطاء"، وهو كأسم علم يحمل دلالة الستر والتواري، وممن حمل الاسم من النساء ملاءة بنت أوفى الحرشي العامري.

- **مانعة** (م ن ع ت)، كثر ورود هذا الاسم في النقوش العربية الشمالية[١٦٣]، بمعنى "الذي يمنع ويحمي"، وقد ذكرت النقوش النبطية الاسم مذكراً ومؤنثاً[١٦٤].

- **نائلة** (ن أ ل ت)، ورد في الصفوية[١٦٥]، وهو في العربية مؤنث نائل ويعني "الكريمة أو العطية".

- **نبت** (ن ب ت)، ورد الاسم في النقوش الصفوية والثمودية[١٦٦]. قارن /ن ب ت/ في السبئية[١٦٧].

- **نعم** (ن ع م)، وهو كثير الورود في النقوش الصفوية، وقد جاء بالإضافة إلى النقوش العربية الشمالية في النقوش العربية الجنوبية أيضاً[١٦٨]، والاسم بمعنى "الظرف، والأناقة، الرغد، الوسرة"، ومن النساء نعم بنت العزى بن رباح بن عبد الله بن قرط. قارن /ن ع م/ في التدمرية[١٦٩]، والحضرمية والمعينية والقتبانية[١٧٠].

- **نعمة** (ن ع م ت)، ورد الاسم في الصفوية والثمودية، وهو في العربية بمعنى "الرزق، الإحسان والمسرة". قارن /ن ع م ت/ في القتبانية والسبئية[١٧١].

- **النوار** (ن و ر)، ورد الاسم في الصفوية والثمودية[١٧٢]، وهو بمعنى "الخجول التي تحرص على سمعتها، أو المرأة النفور من الريبة"[١٧٣].

- **وائلة** (و أ ل ت)، ورد الاسم في النقوش الصفوية والثمودية مرات عديدة[١٧٤]، والكلمة مؤنث وائل بمعنى "الراجع إلى الله، الملتجئ، السريع، الشديد"[١٧٥]. قارن /و أ ل ت/ في المعينية والقتبانية[١٧٦].
- **وهبة** (و ه ب ت)، ورد الاسم في الصفوية[١٧٧]، وهو بمعنى "العَطية". قارن. /و ه ب ت/ في المعينية[١٧٨].

الهوامش والإحالات

١) حول بعض هذه الدراسات انظر قائمة المصادر والمراجع.

٢) انظر Benz, 1972, p 238

٣) عمايرة، ١٩٨٦.

٤) ابن التستري، ١٩٨٣؛ الفراء، ١٩٧٥؛ ابن الحاجب، ١٩٨٥.

٥) الأنباري، ١٩٧٠.

٦) الأنباري، ١٩٧٨.

٧) عبد التواب، ١٩٧٠.

٨) Jaussen & Savignac, 1909, 74, 101

٩) WINNETT & HARDING, 1978, 577, 1861, CIS 3031

١٠) WINNETT & HARDING, 1978, 214

١١) HARDING, 1971, 527

١٢) انظر: Khraysheh, 1986

١٣) WINNETT & HARDING, 1978, 1861

١٤) WINNETT, 1957, 682

١٥) RES 2901/I

١٦) HARDING, 1971

١٧)الخزرجي، ١٩٨٦.

١٨)OXTOBY, 1968, nr. 249, 355

١٩)RYCKMANS.1934

٢٠)HARDING, 1971

٢١)الوسيط، ص ٦؛ هزاع بن عيد الشمري، جمهرة أسماء النساء وأعلامهن، ط١، دار أمية للنشر والتوزيع، ١٤١٠ للهجرة، ص ١٠.

٢٢)BRANDEN, 1956

٢٣)JAUSSEN & SAVIGNAC, 1909, nr. 574

٢٤)LITTMANN, 1943, nr. 1276

٢٥)HARDING, 197 هزاع الشمري، ص ١٨-٢٠.

٢٦)Caskel. 1966

٢٧)CIS, nr.1112,,WINNETT & HARDING, 1978, nr. 1417, 1468- .3361, LITTMANN, 1943, nr. 819, 968, RES, nr. 4246

٢٨)HARDING, 1971

٢٩)Cantineau, 1932

٣٠)Stark, 1971, Khraysheh, 1986

٣١)LITTMANN, 1943, nr.1035, WINNETT & HARDING, 1978, nr.1608

٣٢)WINNETT & REED, 1970

٣٣)JAUSSEN & SAVIGNAC, 1909, nr.76

٣٤) JAUSSEN & SAVIGNAC, 1909, nr.73/1

٣٥) Jamme. nr.706/1

٣٦) Stark, 70

٣٧) Cantineau, 1932

٣٨) HARDING, 1953, nr.131, WINNETT & HARDING, 1978, nr. 721,- JAUSSEN & SAVIGNAC, 1909, 324,822

٣٩) HARDING, 1971

٤٠)الوسيط، ٢٨.

٤١)هزاع الشمري، ٥٣.

٤٢) Cantineau, 1932

٤٣) Stark, 1971

٤٤) OXTOBY, 1968, nr.52, WINNETT & HARDING, 1978, nr.3558

٤٥) CIS nr. 161,11, Khraysheh, 1986

٤٦) Stark, 1971

٤٧) OXTOBY, 1968, nr.363, WINNETT & HARDING, 1978, nr.2281

٤٨) CIS, nr.197, 3892, WINNETT, 1957, nr.63

٤٩) .HARDING, 1971

٥٠)اللسان، مادة: برز، الخزرجي ١٩٨٦، هزاع الشمري، ي ٨٢.

٥١) CIS, nr.1742,1748, OXTOBY, 1968, nr. 107, WINNETT, 1957, nr. 539

٥٢) JAUSSEN & SAVIGNAC, 1909, nr. 513

٥٣) LITTMANN, 1943, nr.1154

٥٤) LITTMANN, 1943,nr. 87, Branden nr. 23

٥٥) Stamm,1980

٥٦) HARDING,1971

٥٧) HARDING, 1953, nr.71

٥٨) BRANDEN, 1956 JAUSSEN & SAVIGNAC, 1909, nr.74, 101, HARDING & LITTMANN, 1952,nr. 134,

٥٩) CIS, nr. 54,183, 502, WINNETT & REED, 1970

٦٠) HARDING, 1971. هزاع الشمري، ص ١٢٨.

٦١) CIS, nr.3787-9, LITTMANN, 1943, nr. 87, WINNETT & HARDING, 1978, nr.2281

٦٢) Caskel, 1966

٦٣)الأغاني، ١٠: ١٦٥.

٦٤) JAUSSEN & SAVIGNAC, 1909, nr. 131

٦٥) OXTOBY, 1968, nr. 94, WINNETT, 1957, nr. 931

٦٦) LITTMANN, 1943, nr. 1032

٦٧) Cantineau, 1932

٦٨) Stark, 1971

٦٩) LITTMANN, 1943, nr.1143, WINNETT,1957, nr. 694, CIS, n r. 977/2

٧٠) الأغاني: ١٢: ١٣٧.

٧١) HARDING, 1971

٧٢) IJAUSSEN & SAVIGNAC, 1909, nr.9

٧٣) الأغاني: ١٦: ١٥٧.

٧٤) CIS nr.819, OXTOBY, 1968, nr. 238, LITTMANN, 1943, nr.241, 242, HARDING 1971

٧٥) Caskel, i966

٧٦) HARDING, 1971

٧٧) CIS nr.2144, OXTOBY, 1968, nr. 448, LITTMANN, 1943, nr.220, RES, nr. 3902, WINNETT & HARDING 1978, ne 2281.

٧٨) CIS, nr. 316,2

٧٩) HARDING, 1971

٨٠) CIS, nr.58, HARDING, 1953, nr. 152, WINNETT, 1957, nr. 16, HARDING & LITTMANN, 1952, nr. 468

٨١) الوسيط، مادة: خلص، الخزرجي، ١٩٨٦.

٨٢) WINNETT & HARDING, 1978, nr. 2281

٨٣) Caskel, 1966

٨٤) RAYCKMANS, 1955

٨٥) WINNETT & REED, 1970

٨٦) CIS nr.683, 1328, OXTOBY, 1968, nr. 110, 211, Dussaud, 1929, RAYCKMANS, 1941, WINNETT & HARDING 1978, nr. 50 هزاع الشمري، ص ٢٢٨.

٨٧) HARDING, 1971

٨٨) الوسيط: مادة: درر، هزاع الشمري، ص ٢٣٤.

٨٩) JAUSSEN & SAVIGNAC,1909, 33

٩٠) LITTMANN, 1943, nr.914, JAUSSEN & SAVIGNAC, 1909, nr.289

٩١) -LITTMANN, 16 BRANDEN, 1956, HARDING &

٩٢) HARDING, 1971

٩٣) JAUSSEN & SAVIGNAC,1909, nr. 690, FAKHRY, 1952

٩٤) FAKHRY, 1952, HARDING, 1971

٩٥) JAUSSEN & SAVIGNAC, 1909, nr. 45

٩٦) CIS nr.146

٩٧) WINNETT, 1957, nr.290

٩٨) اللسان، مادة: سجح.

٩٩) CIS, nr. 2653, LITTMANN, 1943, nr.1289

١٠٠) اللسان، مادة: سحر.

١٠١) HARDING, 1971

١٠٢) WINNETT & HARDING, 1978, nr. 571

١٠٣) اللسان، مادة: سرر.

١٠٤) CIS, nr.765, 884, LITTMANN, 1943, nr.1044,

١٠٥) HARDING, 1971

١٠٦) RES, nr. 4031/2

١٠٧) CIS, nr.2953

١٠٨) CIS, nr.3605

١٠٩) CIS, nr.3987, HARDING, 1953, nr.130, JAUSSEN & SAVIGNAC, 1909, nr.29,

١١٠) CIS, nr.2799

١١١) BROWN & BEESTON, 1954, HARDING, 1971

١١٢) JAUSSEN & SAVIGNAC, 1909, nr.384/3, WINNETT & HARDING, 1978, nr.1367

١١٣) CIS, nr.210

١١٤) CIS, nr.796

١١٥) CIS, nr.4453

١١٦) FAKHRY, 1952, nr.3/5

١١٧) Stark, 1971

١١٨) WINNETT, 1957, nr. 294, WINNETT & HARDING,1978, nr. 2037

١١٩) CIS, nr. 743

١٢٠) HARDING, 1971

١٢١) WINNETT & HARDING, 1978, nr.2730, JAUSSEN & SAVIGNAC, 1909, nr.23

١٢٢) CIS, nr.24, OXTOBY, 1968, nr. 305

١٢٣) الخزرجي، ١٩٨٦، بيستون وآخرون، ١٩٨٢، ١٤٠.

١٢٤) HARDING, 1941, nr. 3, HARDING, 1971

١٢٥) CIS, nr.196, 2905

١٢٦) RES, nr. 3471

١٢٧) CIS, nr. 105, 3415

١٢٨) الخزرجي، ١٩٨٦.

١٢٩) CIS, nr. 382

١٣٠) الخزرجي، ١٩٨٦.

١٣١) HARDING & LITTMANN, 1952, nr. 372, RES, nr.3902

١٣٢) HARDING, 1971

١٣٣) WINNETT & HARDING, 1978, nr.506, 3615

١٣٤) اللسان، مادة: عثم.

١٣٥) CIS, nr. 758

١٣٦) JAUSSEN & SAVIGNAC, 1909, nr.295

١٣٧) Khraysheh, 1986, CIS, nr. 885

١٣٨) اللسان، مادة: ع ل ا .

١٣٩) HARDING, 1971

١٤٠) Stark, 1971

١٤١) Cantineau, 1932

١٤٢) CIS, nr. 17, LITTMANN, 1943, nr. 270

١٤٣) Khraysheh, 1986

١٤٤) Stark, 1971

١٤٥) HARDING, 1971

١٤٦) CIS, nr.1190, WINNETT & HARDING, 1978, nr.1651

١٤٧) اللسان، مادة: عنن.

١٤٨) Stark, 1971

١٤٩) WINNETT & HARDING,1978, nr. 2958

١٥٠) JAUSSEN & SAVIGNAC, 1909, nr. 324

١٥١) الزمخشري، مادة: غرب.

١٥٢) HARDING, 1971

١٥٣) CIS, nr.1856, 2204

١٥٤) الخزرجي، ١٩٨٦.

١٥٥) LITTMANN, 1943, nr. 541, 689 CIS, nr. 237, 1153

١٥٦) CIS, n2 121.˚121,2211

١٥٧) JAUSSEN &SAVIGNAC, 1909, nr. 347/1

١٥٨) CIS, nr.299

١٥٩) الخزرجي، ١٩٨٦.

١٦٠) CIS, nr.279, 587 هزاع الشمري، ص ٦٤٣.

١٦١) اللسان، مادة: ل ه ب.

١٦٢) HARDING, 1971

١٦٣) HARDING, 1971

١٦٤) Khraysheh, 1986

١٦٥) WINNETT & HARDING, 1978, nr. 2569

١٦٦) CIS, nr.2174, WINNETT & HARDING, 1978, nr.704

١٦٧) HARDING, 1971

١٦٨) JAUSSEN & SAVIGNAC, 1909,nr. 54/2, CIS, nr.96, Jamme, nr.919/3, G1, 978/1

١٦٩) Stark, 1971

١٧٠) HARDING, 1971

١٧١) HARDING, 1971

١٧٢) CIS, nr.4776, WINNETT& HARDING, 1978, nr.1327, WINNETT & REED, 1970

١٧٣) اللسان، مادة: نور.

١٧٤) LITTMANN, 1943, nr.899,JAUSSEN &SAVIGNAC, 1909, nr.607, OXTOBY,1968, nr.67, WINNETT & HARDING, 1978, nr.1075, I

١٧٥) الخزرجي، ١٩٨٦.

١٧٦) HARDING, 1971

١٧٧) CIS, nr.268

١٧٨) JAUSSEN & SAVIGNAC, 1909, nr.89

قائمة المصادر والمراجع

١-المصادر العربية:

- ابن التستري، الكاتب، **المذكر والمؤنث**، حققه وقدم له وعلق عليه أحمد هويدي، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٩٨٣.
- ابن الحاجب، **القصيدة الموشحة بالأسماء المؤنثة السماعية**، تحقيق وشرح طارق عبد الله، دار المنار، الزرقاء، ١٩٨٥.
- ابن منظور، **لسان العرب**، بولاق، ١٣٠٨ هجرية.
- الأصبهاني، أبو الفرج، **الأغاني**، ٢٠ جزءاً، دار التوجيه اللبناني (عن طبعة بولاق الأصلية)، بيروت.
- الأنباري، أبو بركات، **البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث**، تحقيق رمضان عبد التواب، القاهرة، ١٩٧٠م.
- ، **كتاب المذكر والمؤنث**، تحقيق طارق الجنابي، بغداد، ١٩٧٨م.
- أنيس ابراهيم وآخرون، **المعجم الوسيط**، جزءان، دار الفكر، بيروت، بلا تاريخ.
- بيستون، الفرد، وجاك ريكمنز، ومحمود الغول، وولتر مولر، **المعجم السبئي**، بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٨٢.
- الخزرجي، عبود أحمد، **أسماؤنا (أسرارها ومعانيها)**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٦.
- الزبيدي، محمد مرتضى، **تاج العروس**، تحقيق عبد الستار، عبد الفتاح، الكويت، ١٩٦٥.

- الزمخشري، جار الله محمود بن عمر، **أساس البلاغة**، تحقيق عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٩.

- الشمري، هزاع بن عيد، **جمهرة أسماء النساء وأعلامهن**، ط١، دار أمية للنشر والتوزيع، السعودية، ١٤١٠ هجرية.

- عمايرة، اسماعيل أحمد، **ظاهرة بين اللغة العربية واللغات السامية دراسة لغوية تأصيلية**، مركز الكتاب العلمي، عمان، ١٩٨٦.

- الفراء، يحيى بن زياد، **المذكر والمؤنث**، تحقيق رمضان عبد التواب، القاهرة، ١٩٧٥.

- نامي خليل يحيى، "**نقوش خربة براقش**"، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٥٤-١٩٥٦.

٢-المصادر الأجنبية

- Benz,F. **Personal Names in the Phoenician and Punic Inscriptions**, Rome, 1972.

- Branden, Van den, **Les textes thamoudéens de Philby**, 2 vols. Bibliothèque du Museon 39 & 41, 1956.

- Branden, Van den, **Les Inscriptions Thamoudeenes**, Louvain, 1950.

- Cantineau, J. **Le Nabatéen**, 2 Bde, Paris, 1930-32

- Caskel W., **Gamharat Al- Ansab** das genealogische werk des Hisam Muhammad al- Kalbi, Lieden. CIS Corpus Inscriptionum Semiticarum.

- Dussaud, R. , **Les Releves du Capt. Ress**, in Syria X, 1929

- Fakhry, A. **Archaeological Journey to Yemen, Epigraphical Texts**, Part II, Cairo, 1952.

- Harding, L. "**New Safaitic Inscriptions**", ADAJ, Vol. I, 1941.

- Harding, L. "**The Cairn of Hani'**", ADAJ, Vol. II, 1953.

- Harding, L. **An Index, and Concordance of pre-islamic Arabian Names and Inscriptions,** University of Toronto Press, 1971.

- Harding, L. & Enno Littmann, **some Thamudic Inscriptions from the Hashimite kingdom of Jordan**, Leiden, 1952.

- Jamme, A, Texts nos. 1-2127 (according to Harding).

- Jaussen, A. & Savignac, **Mission archéologigue en Arabia** vols. I-II and Atlas, Paris, 1909, 1914.

- Khraysheh, F. Die **Personennamen. in.den nabataeischen Inschriften des . Corpus Inscriptionum Semiticarum** (Diss. Marburg), 1986.

- Littmann, E. **Safaitic Inscriptions**, Leiden, 1943.

- Noth, M. Die **Israelitischen Personennamenim Rahmen der gemeisemitischen Namengebung.** Hildesheim,1966 (Nachdruck der Ausgabe Stuttgart 1928).

- -Oxtoby, G, **Some inscriptions of the Safaitic Bedouin,** American Oriental Series, 50, New Haven, 1968.

- Rayckmans, G. **Les Noms Propres sud-sémitiques**, 3 vols. Louvain, 1934.

- Rayckmans,G., **Inscriptions safaitiques de Transjordanie**, in Vivre et Penser 1, 1941.

- Rayckmans,G., **Inscriptions safaitiques rel.** par Henry Field, Bibliotheca Orientalis XII, 1955.

- RES **Répertiore d' Épigraphie Sémitique**, Paris, 1907-1950.

- Segert, S., "**Diptotic Geographical Feminine Names in the Hebrew Bible**" ZAH 1/1: 99-100.

- Stamm,J. **Beitaege zur hebraeischen und altorientalischen Namenkunde, Goettingen, 1980**

- Stark, K. **Personal Names in Palmyrene Inscriptions**, Oxford, 1971.
- Winnett, V. **Safaitic Inscriptions from Jordan**, University of Toronto Press, 1957.
- Winnett, V. & L. Harding, **Inscriptions from Fifty Safaitic Cairns**, Near and Middle East Series 9), Toronto, 1978.
- Winnett, V.& W. Reed, **The Thamudic Inscriptions**, Ancient Records from North Arabia, Toronto, 1970

المدرسة الإسلامية وتطورها معمارياً
في العصر الإسلامي

الدكتور: وائل منير الرشدان
الدكتور: خلف فارس الطروانة
جامعة اليرموك

المدرسة الإسلامية وتطورها معمارياً في العصر الإسلامي

الدكتور: وائل منير الرشدان
الدكتور: خلف فارس الطروانة
جامعة اليرموك

تمهيد:

اهتّم المسلمون اهتماماً كبيراً بالعلم من القرآن الكريم مصدر عقيدتهم ووحي حياتهم حين أقسم الله تعالى فيه بالقلم، وحينما أخذ العلم والعلماء منزلة رفيعة في الإسلام، مثلما حثّ القرآن رسول الله (ص) والمؤمنين كذلك على القراءة والتعلم والعلم استدلالاً بقوله: "**اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم**" صدق الله العظيم. (القرآن الكريم، سورة العلق، الآيات من ١-٥). إن هذه الآيات القرآنية تحمل دعوة صريحة إلى التعلّم كما تؤكد أهمية العلم والتعليم في حياة الإنسان بشكل عام والمسلم بشكل خاص، وآيات أخرى تؤكد مساواة المؤمن بالعالم وفي المقام حيث جاء في محكم **تنزيله "يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات**" صدق الله العظيم. (القرآن الكريم، سورة المجادلة، آية ١)(١).

لهذا يلاحظ أن الرسول الكريم (ص) قد بدأ بتعليم أصحابه للقرآن الكريم ليسهّل عليهم الفهم لتعاليم دينهم الإسلامي الحنيف، كما جعل الرسول (ص) يدعوهم إلى العلم

بأحاديث شريفة منها: (طلب العلم فريضة على كل مسلم[٢]، وقوله أيضاً (اطلب العلم ولو في الصين).

ومن بعده سار الخلفاء الراشدون على هدى الرسول محمد (ص) في دعمهم وتشجيعهم للعلم والعلماء بأنفسهم، فجالسوهم في المساجد، تشجيعاً ومتابعة، في ضوء احتياجاتهم إلى القراءة والكتابة وقلّد ذلك المتعلمون. فقد ذكر المؤرخون أن الرسول محمد (ص)، بعد تحقيقه للنصر في غزوة بدر كان قد طلب من الأسرى الذين يرغبون بإطلاق سراحهم، تعليم عشرة من أطفال المسلمين القراءة والكتابة[٣]، فكانت هذه السياسة هي أول خطوات الرسول (ص) في تحقيق التعليم بالمجتمع الإسلامي، ولم تطل الفترة حتى بدأ الإسلام يثبّت في نفوس أصحابه، وبدأ الخلفاء والأمراء والسلاطين بتشييد العديد من المؤسسات التعليمية على شكل دور السكن (البيوت)، ثم المساجد، والكتاتيب، ودور القرآن ودور العلم والحكمة، وفي البيمارستانات، وفي القصور، والحوانيت وكذلك ما عرف بالوراقين، وأخيراً الخانقاوات، ثم المدارس التي شاع انتشارها على وجه الخصوص في العصرين الأيوبي والمملوكي بفترتيه الأولى والثانية وتعدّ مدارس بيت المقدس خير دليل وشاهد على ذلك.

ونظراً لأهمية هذه المؤسسات بدءاً من البيوت، وانتهاء بالمدارس سيقوم الباحث بتعريف هذه المؤسسات التعليمية آخذاً أولوية الاستعمال والسبق ترتيباً ومنهجية في الاستعراض والحديث.

دور السكن (البيت والمنازل):

لقد كانت دار الأرقم بن أبي الأرقم هي أول منشأة تعليمية إسلامية وأول دار تمّ التعليم فيها، فقد كانت أشبه بالملتقى الفكري والثقافي. فيها يجتمع الرسول (ص) بالأصحاب لتدارس تعاليم الدين، وتفاسير القرآن الكريم، وأخذ مبادئ ذلك الدين الإسلامي الجديدة، وبعد تعددت البيوت التي أصبحت مراكز علمية وتعليمية يؤمها المعلمون

والمتعلمون، فكانت منها دار (أبي سلمان)، مركزاً للمناظرة والمجادلة فيها يلتقي أبو حيان التوحيدي والمقدسي وغيرهم(٤)، وهذه "دار الدين" لابن سيناء مثالاً عريقاً على ذلك(٥). إن هذه الدور كانت تمثل النواة الأولى والبذرة البكر لتأسيس المدارس الإسلامية المتطورة ، التي شهدها التاريخ الإسلامي فيما بعد.

المساجد:

لقد جاء القرآن الكريم "**إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر، وأقام الصلاة وآتى الزكاة**"، (القرآن الكريم، سورة التوبة، الآية ١٩). إن هذه الآية تحمل في دلالاتها وثناياها حثّاً صريحاً على تعمير بيوت الله بالعلم والحلقات الدينية الفقهية والتعليمية، ومن هنا شيّد المسلمون والخلفاء الراشدون المساجد في أكثر مدنهم، حتى أصبحت هذه المساجد من أهم المباني الإسلامية، والمراكز التعليمية، ففيها تقام العبادات.....، وأصبحت أيضاً جلسات علم، وتعليم، وذكر وتوحيد، ومجالس شورى، حتى أصبحت المساجد ذات رسالة تعليمية هامة والمتتبع لسيرة التعليم الإسلامي يجد أن للمساجد دوراً تربوياً أساسياً وثقافياً في حياة المجتمع المسلم والدولة الإسلامية. ولذلك نجد أن المسلمين قد أقاموا المساجد وشيّدوها هنا وهناك وفي سائر أمصار الدولة الإسلامية. ففي مصر، أقيم مسجد عمرو بن العاص أول مسجد عرف باسمه في سنة ٢١ هـ/ ٦٤١م، وكذلك مسجد الكوفة وغيرها من المساجد.

واستمّر بناء المساجد في العصر الأموي واتسع مداه، ففي دمشق شيّد الجامع الأموي بدمشق، ومسجد قبة الصخرة، والمسجد الأقصى، ومسجد القيروان، وغيرها من المساجد الكبرى. إضافة إلى قصور الأمويين الخاصة بهم وما جاورها من مساجد كمسجد قصر الحلابات، ومسجد خربة المفجر، ومسجد أم الوليد، ومسجد قصر المشتى...الخ. وازداد هذا النشاط في العصر العباسي حيث شيّد العديد من المساجد

فهذا جامع المنصور في بغداد، الذي بناه أبو جعفر المنصور وأبدع فيه وتفنن بإتقانه عام ١٤٥هـ/٧٦٢م.

وفي العصر الفاطمي أيضاً بنى جوهر الصقلي المسجد الشهير الأزهر سنة ٣٦٠هـ / ٩٧٠م، والذي أصبح مركزاً مهماً للتعليم، وهو الآن جامعة إسلامية عريقة من أهم الجامعات الإسلامية في زماننا هذا.

دور القراء (الكتاتيب):

وتقسم إلى ثلاثة أنواع هي:

الكتاتيب:

- تعتبر هذه الكتاتيب من المدارس الأولى في الإسلام، مهمتها تعليم القراءة والكتابة كان يؤمّها في الغالب الصبيان، وقد ورد ابن خلدون في مقدمته: "أهل المشرق... إن عنايتهم بدراسة القرآن وصحف العلم وقوانينه في زمن الشبيبة ولا يخلطون بتعليم الخط ولا يتداولوه في مكاتب الصبيان".(٦)، وقد ازداد عدد الكتاتيب في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي)، حتى أصبح فيه واحداً في كل حي وفي كل قرية وكانت ترفد المدارس بالطلبة الذين يجيدون القراءة والكتابة(٧).

- **دور القرآن:** كانت رسالتها تعليم القرآن الكريم ويرجح بأنها ظهرت في الربع الأخير من القرن الأول بعد أن قام الخليفة عثمان بن عفان بجمع القرآن، وكانت مخصصة لتعليم الصبيان تلاوة القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة(٨).

- دور العلم والحكمة: ونسميها اليوم بالمكتبات والتي أنشأها المسلمون في العديد من المدن الإسلامية، التي كانت زاخرة بالعديد من المؤلفات العربية والأعجمية واليونانية والمترجمة. وأول هذه الدور (دار الحكمة) أنشأها الخليفة الرشيد في بغداد سنة ١٨٥هـ، في عهد ابنه المأمون، الذي شجّع الترجمة من اللغات

اليونانية والأعجمية والهندية. وفي سنة ٣٩٥هـ/ ١٠٠٥م، فتحت (دار الحكمة) في القاهرة، التي كانت مجلساً للحكماء والفقهاء وطلاب العلم(٩).

البيمارستانات:

المستشفيات هي مبانٍ جعلت لمعالجة المرضى أولاً، ثم لتدريس علوم الطب والصيدلة ثانياً. وأولى هذه المباني أنشئت في زمن الوليد بن عبد الملك في مدينة دمشق سنة ٨٦هـ/ ٧٠٥م(١٠)، وآخر بناه المنصور العباسي في بغداد، ويذكر بعض المؤرخين أن الرشيد هو أول من بناه في بغداد في سنة ٢٥٩هـ/ ٨٧٢م. وكذلك الحال في مصر، فقد بنى أحمد بن طولون بيمارستان في مدينة القطائع سنة ٢٥٩هـ/ ٨٧٢م(١١)، وكانت تلقى فيه المحاضرات في الطب، وكانت تحتوي على عدد كبير من الكتب المتخصصة تقارب المائة ألف مجلد في عددها. وكذلك أُنشئ في سنة ٣٠٦هـ/ ٩١٨م، ببغداد البيمارستان المقتدري. وفي سنة ٥٧٧هـ/ ١٣٠٥م، أنشئ بيمارستان بغرناطة في الأندلس، وفي القرن الثامن الهجري أنشأ السلطان العادل نور الدين البيمارستان النوري في دمشق(١٢)، وكذلك أنشئ العديد من البيمارستانات منها بيمارستان القيمري أو الصالحية، الذي أنشأه الأمير الكبير سيف الدين علي بن يوسف القيمري بالصالحية، الذي توفي سنة ٦٥٤هـ(١٣).

حوانيت الوراقين:

ظهرت في بداية العصر العباسي وانتشرت بعد ذلك في كافة أنحاء الدولة الإسلامية وقد فتحت للأعمال التجارية وأصبحت فيما بعد دوراً للثقافة، والحوار العلمي، وملتقى الأدباء والشعراء والعلماء وأصبحت مكاناً لاجتماعاتهم ومناظراتهم ومن أشهر حوانيت الوراقين حانوت (ابن النديم) وحانوت (ياقوت الحموي)، صاحب (معجم الأدباء)(١٤)، ولم تقلّ هذه الحوانيت في أهميتها عن سابقتها من المراكز التعليمية.

القصور:

اهتم الخلفاء والسلاطين المسلمون بمجالس العلم والمناظرات العلمية والشعرية الفقهية والحكمة، وعلم المنطق والكلام، وقد جاء في المصادر التاريخية أن العديد من الخلفاء كانوا يجلسون فيه، ويشاركون في هذه المناظرات ومنهم عبد الملك بن مروان، وولده الوليد بن عبد الملك، وهارون الرشيد وولده المأمون(١٥)، وهذه القصور كانت من مراكز التعليم أيضاً لأبناء الخلفاء والأمراء، وفيها قام المؤدب على تثقيف وتعليم وتأهيل الأبناء لتحمل مسؤولياتهم القادمة(١٦).

المدرسة:

يبدو من اسم المدرسة أن وظيفتها الأساسية كانت تدريس العلوم الفقهية، لأن المدرسة لغة، هي الموضع الذي يُدَرس فيه(١٧).

وقد اتفق العلماء على تسمية المدرسة للبناء الذي يتكون من صحن مكشوف وإيوانين متقابلين، أو أربعة أواوين متقابلة، وإيوان القبلة يكون أوسعها ويعرف بإيوان الصلاة والإيوان: هو أحد العناصر المعمارية المميزة للمدرسة وهو عبارة عن ساحة مستطيلة الشكل مصمتة من ثلاث جهات ومفتوحة من جهة واحدة على الصحن، ويغطيها قبو كبير(١٨)، وهي تمثل إحدى المباني الدينية في العمارة الإسلامية. وهذه المباني أخذت على عاتقها رفد المسيرة التعليمية كمكان للدراسة والتعليم حيث كانت هذه المهمة مقتصرة في السابق على المساجد، وكانت أروقة المسجد مخصصة للأساتذة يستعملونها فصولاً للدراسة في شكل حلقات، وروى المقريزي، عن نشأة المدارس حيث يقول بها: "والمدارس مما حدث في الإسلام، ولم تكن تعرف في زمن الصحابة ولا التابعين وإنما حدث عملها بعد الأربعمائة من سنين الهجرة". وأول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة في الإسلام أل نيسابور(١٩). وهناك إجماع فيما بين المؤرخين والعلماء على أن "نيسابور" هي أول المدن التي عرفت المدارس، والتي بدأت في دور

المدرسين، ومن ثم أصبح لها مبنى خاصاً بها وبناء على ما أورده المؤرخون نجد أن أول هذه المدارس التي أنشئت في هذه المدينة هي مدرسة حسان القرشي الأموي المتوفى سنة (٣٤٩هـ/٩٦٠م)، إذن يجب أن تكون قد بنيت هذه المدرسة قبل ثلاثين أو أربعين عاماً من وفاة مؤسسها[٢٠].

كذلك أنشأ ابن حيان التميمي قبل عام (٣٥٤هـ/ ٩٦٤م)، مدرسة له في نيسابور وأنشأ هذه المدرسة في داره[٢١]، وفي عام ٣٩١هـ/ ١٠٠١م، أنشأ الأمير شجاع الدولة صادر بن عبد الله مدرسة له في مدينة دمشق، ولكن العلبي يؤكد بأن تاريخ بناء هذه المدرسة يعود إلى عام ٤٩١هـ وليس لعام ٣٩١هـ[٢٢]، ويؤكد ابن خلكان وياقوت الحموي، بأن أبي بكر بن فورك الأصفهاني المتوفي عام ٤٠٦م، قد بنى مدرسة له ولكن يجب أن تكون قد بنيت قبل هذا التاريخ[٢٣].

وبنيت العديد من المدارس في "نيسابور" بعد ذلك من أهمها (المدرسة السعدية) التي بناها الأمير نصر بن سيكتكين، أخو السلطان محمود عندما كان والياً على نيسابور، وقد بنيت العديد من المدارس بعد ذلك إلى أن بدأ السلطان السلجوقي طغرل بيك في بناء المدارس. وأشار ناصر خسرو[٢٤]. أثناء رحلته في نيسابور (٤٣٧هـ/ ١٠٤٦م). واستمّر اهتمام السلاجقة ببناء المدارس في بغداد والموصل وغيرها، ذلك عندما بدأ نظام الملك، "الوزير السلجوقي" بإنشاء المدارس في كافة المناطق حتى قيل إنه قد بنى في كل مدينة مدرسة[٢٥]. وذكر الرحالة ابن جبير إنه شاهد في سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م، في مدينة دمشق عشرين مدرسة، وفي حلب ست مدارس، وفي الموصل مثلها، وفي بغداد ثلاثين مدرسة، ولم يكن هذا الاهتمام بأقل من ذلك في العصر الأيوبي، حيث كان لهم في مدينة دمشق وحدها خمسون مدرسة. واثنتان وعشرون مدرسة في حلب، وفي مصر أنشأ الفاطميون المدارس بالإسكندرية والقاهرة، أهمها المدرسة العوفية، والسلفية، والمدرسة السرورية[٢٦]. وأكمل الأيوبيون بناء المدارس في مصر وقد بلغت حسب روايات المؤرخين أربعة وعشرون مدرسة

تقريباً في كل من الفسطاط، ومدرستين في الفيوم، وأقدمها المدرسة الناصرية الأولى، والتي عرفت فيما بعد باسم المدرسة الشريفة، والتي أنشأها صلاح الدين الأيوبي[٢٧]، وآخر هذه المدارس الأيوبية المدرسة الصالحية.

والجدير بالذكر أن معظم هذه المدارس الأولى، التي وجدت في نيسابور، والشام، والعراق، ومصر، وكذلك المدارس التي توجد في الإسكندرية والفيوم والقاهرة، قد اندثرت أو تهدمت ولم يبقَ إلا بعض أجزاء من مبانيها فيما عدا بعض أطلال وأجزاء من المدرسة الكاملية والصالحية، التي أنشئت في العصر الأيوبي تبين تخطيطها إضافة إلى أطلال بعض المدارس في الشام والعراق[٢٨]. وهناك اختلاف بين العلماء على أقدم المدارس الإسلامية وقد بنوا نظرياتهم على تخيل المباني وذهب كل منهم لتأييد نظريته لرسم هذه المباني حسب تخيلهم.

أما في سورية، فيعتقد أن أقدم المدارس السورية الباقية هي مدرسة كومشتكين في بصرى الشام، وأنشئت في سنة ٥٣٠هـ/ ١١٣٦م، وأحدث دراسة لهذه المدرسة نشرت في دليل مدينة بصرى، الذي أصدر بالعربية والألمانية وتخطيطها كما جاء في هذا الدليل أنها تعتمد في تصميمها على أربعة إيوانات[٢٩]، وهذا يتعارض مع ما جاء به كل من أحمد فكري وكامل حيدر[٣٠]، الذين قاموا بوصفه على أنه مبنى مستطيل الشكل يتوسطه صحن مكشوف مربع الشكل طول ضلعه خمسة أمتار ونصف (٥,٥) وعمقه سبعة أمتار ونصف (٧,٥)، ويحيط بالصحن من جهاتها الأخرى قاعات كانت مخصصة للدراسة وسكن الطلاب، ومنشآت أخرى كالمطبخ والمكتبة والحمامات، وقاعة لمشرف المدرسة والأساتذة[٣١]. وفي سورية وجدت العديد من المدارس، التي أنشئت في هذه الفترة منها مدرسة "دار الحديث النوري" في دمشق، والتي أنشأها السلطان نور الدين محمود سنة (٥٤٩ -٥٦٩هـ/ ١١٥٤-١١٧٤م)، ولم يبقَ منها سوى إيوان القبلة وبعض أجزاء من الجزء المقابل للإيوان[٣٢]. وقد حاول

العلماء عمل مخطط لهذه المدرسة ولكن المخططات جاءت غير متطابقة مع بعضها البعض.

- **مدرسة خان أتون في حلب**: بنيت سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م، وهذه المدرسة كانت مخصصة للمذهب الحنفي، وقد أورد أحمد فكري وصفاً لما تبقى من هذه المدرسة، والتي يستدل على ما تبقى منها أنها تحتوي على إيوان القبلة وصحن مكشوف مربع الشكل طول ضلعه ١٤ متراً، وإيواناً للقبلة(٣٣).
- **المدرسة النورية الكبرى**: بناها نور الدين زنكي في دمشق سنة ٥٦٧هـ/ ١١٢٧م، "وتخطيطها يُظهر أنها تتكون من صحن مكشوف طوله ٢٠,٥م، وعرضه ١٦م، وإيوان القبلة مستطيل الشكل طول ضلعه ١٤م وعرضه ٦م، وكما يوجد في زوايا المدرسة قاعات مستطيلة، وقد أيد هذا التفسير هرتزفيلد، الذي فسّر أن المدرسة تتكون من إيوانين متقابلين هما إيوان القبلة والإيوان المقابل له، إضافة إلى وجود حجرات وغرف تحيط بالصحن المكشوف(٣٤).
- **المدرسة العادلية**: أنشأها نور الدين زنكي في دمشق وهي تشبه إلى حد كبير (المدرسة النورية) السابق ذكرها، إلا أن نور الدين توفي قبل إتمام إعمارها، أتمها من بعده الملك المعظم عيسى في سنة ٦١٩هـ/ ١٢٢٢م. ودفن بها الملك العادل سيف الدين أيوب سنة ٦١٥هـ/ ١٢١٨م(٣٥).
- **المدرسة الظاهرية (البرانية)**: بنيت في مدينة حلب سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م، وأوقفت على المذهب الشافعي هي تعتمد في تصميمها على صحن مكشوف مستطيل الشكل وعلى إيوانين أوسعهما إيوان القبلة(٣٦).
- **المدرسة السلطانية**: بنيت في مدينة حلب سنة ٦٢٠هـ/ ١٢٢٤م،، وهي تعتمد في تصميمها على صحن مكشوف مربَع الشكل وتحتوي على إيوان القبلة

والحجرات تحيط بالصحن المكشوف وبنيت في الزاوية الشرقية لإيـوان القبلة حجرة الضريح، وبنيت هذه المدرسة للمذهبين الشافعي والحنفي[٣٧].

- **المدرسة البختية:** التي أنشأها شاذ بخت،معتوق الملك العادل محمود بن زنكـي وبنيت سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م، أوقفها على فقهاء المذهب الحنفي، وهي تشبه في تخطيطها العام المدرسة النورية حيث إن تخطيطها تكون من صحـن مكشـوف مستطيل الشكل وإيوانين إيوان القبلة والإيوان المقابل له، ويحيط بالصحن عـدد من الغرف[٣٨]. وهناك مدرسة أخرى تعود إلى نفس الفترة وهي مدرسة معـرة النعمان وأنشأت في سنة ٥٩٥هـ/ ١١٩٩م.

نلاحظ من هذا العرض السريع لمدارس هذه الفترة أن تصميمها يتكوّن من إيوان واحد أو إيوانين متقابلين، وصحن مكشوف تحيط به غرف أو حجرات وبعضـها يحتـوي على ضريح للمؤسس أو للمنشئ. وبعضها يحتوي على طابقين. أما في العراق وفـي نفس الفترة أنشئت المدرسة المستنصرية، التي بينت سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٨م، بناهـا الخليفة العباسي المنتصر بالله، وهي أول مدرسة فـي الإسـلام تخصـص لتدريـس المذاهب الأربعة وهي أكبر المدارس السابقة من حيث الحجم وهي لا زالـت تحتفـظ بعناصرها المعمارية، التي توضح تصميمها وتخطيطها وتصميمها ما يماثل المدرسـة النظامية، التي أمر بإنشائها نظام الملك الذي وزر لثلاثة سلاطين من السلاجقة، وبـدأ في بنائها سنة ٤٥٧هـ/ ١٠٦٥م، وانتهى من بنائـها عـام ٤٥٩هـ/ ١٠٦٧م[٣٩]. والمدرسة مقامة على مساحة مستطيلة الشكل طولها ١٠٥م، وعرضـها ٨٤م جنوبـاً و٤٤ شمالاً[٤٠]. وتصميمها يتكون من صحن مستطيل الشكل مدخلها يقع إلى الجهـة الشمالية، ومسجد المدرسة يتجه نحو الجنوب وهو مكون من بلاطـة واحـدة وفـي الجانبين الشرقي والغربي يتوسطهما إيوانين، يحيط بهما باقي الجهات المطلـة علـى الصحن غرف لسكن الطلبة والمدرسين مكون من طـابقين، الطـابق الثـاني كـان

مخصصاً أيضاً لسكن الطلبة أو المدرسين، وبنيت المنافع العامة في الركن الشمالي الشرقي من البناء.

أما في مصر فإن المدارس قد عرفت ابتداءً من العصر الفاطمي، فقد أنشئت مدرسة بنيت على مشهد السيد الشريف معاذ بن داود في سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٣م[٤١]، وأنشأ مسرور الخادم مدرسة عرفت باسم المدرسة السرورية، وأنشئت في مدينة الإسكندرية المدرسة العوفية التي أنشئت في عهد الخليفة الحافظ لدين الله[٤٢]، التي أمر ببنائها الوزير رضوان بن ولخشي في عام ٥٣٢هـ/ ١١٣٨م[٤٣]، أما في العصر الأيوبي فقد أنشئت العديد من المدارس وقد تحدث الأستاذ أحمد فكري عن إنشاء حوالي أربع وعشرين مدرسة أنشئت في الفسطاط، والقاهرة، ومدرستين في مدينة الفيوم، ومن أهم هذه المدرسة الناصرية، التي بناها صلاح الدين الأيوبي في سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م[٤٤]. عندما كان وزيراً للخليفة العاضد، وأنشأ صلاح الدين أيضاً المدرسة القمحية، وكذلك الملك العادل مدرسة بالقاهرة عرفت باسم المدرسة العادلية. وبنى الملك العادل عدداً آخر من المدارس وكذلك أمراء جنده. أمر الكامل ناصر الدين محمد بإنشاء المدرسة الكاملية في سنة (٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م)، كما أمر السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب في سنة (٦٣٩هـ/ ١٢٤٢م)، بإنشاء المدرسة التي تعرف باسم المدرسة الصالحية، لقد اندثر معظم المدارس الكاملية ولم يعرف تصميمها وتخطيطها ولكن بقيت بعض آثار من المدرسة الكاملية والمدرسة الصالحية حيث تعدّان هما نواة المدارس المصرية وحلقة تطورها، وقد حاول العديد من العلماء رسم مخطط للمدرسة الكاملية، التي كانت تعتمد في تصميمها على صحن مكشوف وإيوانين متقابلين، وغرف الطلبة كانت تحيط بالصحن المكشوف[٤٥]، مخطط، وهذه المخططات هي محاولة لتصوير ما كانت عليه هاتان المدرستان. أما المدرسة الصالحية فهي مدرسة أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب وانتهى العمل بها في سنة (٦٤١هـ/

١٢٤٣م)، وقد أنشئت لتدريس المذاهب الأربعة: الحنفي، والشافعي، والمالكي، والحنبلي. وهي أول مدرسة أنشئت في مصر(٤٦).

وتخطيط المدرسة يستدل من بقاياها وبعد إجراء الحفريات الأثرية، أن المدرسة تتكون من كتلتين معماريتين تقسمهما حارة الصالحية إلى قسمين يدخل إليها بباب مؤازر بعقدين يصلان بين كتلتي البناء.

أما تخطيط المدرسة، فقد أثار جدلاً ونقاشاً علمياً بين مجموعة من العلماء العرب والأجانب من حيث تخطيط المدرسة وحول ما أورده بعض المؤرخين عن عدد الأواوين فيها، وقد تناول أحمد فكري هذه الآراء بشكل مفصل ويمكن أن نستخلص ما جاء من هذه الآراء كما يلي:

اتفق العلماء، كريزول، وفان برشيم، وهرتس، على أن المدرسة الصالحية كانت تتكون من مدرستين مستقلتين، وذلك اعتماداً على ما أورده المؤرخ المقريزي، حيث يرى كريزول وهيرتس، بأن عدد الأواوين أربعة في كل كتلة معمارية و مدرسة، أيوانين متقابلين، وقد أورد كريسويل مخطط افتراضي لهذه المدرسة وتتكون كما قلنا سابقاً من كتلتين معماريتين كل كتلة معمارية بها إيوانين متقابلين(٤٧)، المدرسة الأولى في الناحية الجنوبية إيوان للحنابلة والمقابل له للحنفية، يفصل بينهما صحن مكشوف، أما المدرسة الثانية في الناحية الشمالية تتكون من إيوانين: إيوان للمالكية وإيوان للشافعية، ويفصل بين هاتين الكتلتين ممر وقبر تعلو مدخله مئذنة، وقد أيد هذه النظرية عبد الرحمن فهمي(٤٨). ونلاحظ في هذه المرحلة أنه أضيف إلى المدرسة ضريح للمنشي.

أما في العصر المملوكي فنجد أن المدارس أصبحت تتخذ نمطاً معمارياً متميزاً حيث عمل المعماري المملوكي على دمج المدرستين، كما في المدرسة الصالحية في كتلة معمارية واحدة وهو ما يعرف باسم المدارس ذات الأربعة إيوانات المتعامدة على

صحن أوسط، وأول هذه المدارس كانت مدرسة السلطان المنصور قلاوون، التي بنيت في سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٥٨م(٤٩) بالنحاسين، وتمتاز مدارس العصر المملوكي البحري بالفخامة والاتساع في البناء والمساحة عمق إيوان القبلة واتساع ضلعيه الطوليين واتساع مساحة الصحن المكشوف اتساعاً عظيماً، مع وجود ميضاءة في وسطه(٥٠).

كما نلاحظ أن هذه المدارس ألحقت بها بعض الوحدات المعمارية ذات أهمية كبيرة بالنسبة للعامة، وهي السبيل، وكان الكتاب يعلو السبيل ومن أشهر المدارس التي أنشئت في العصر المملوكي البحري، التي تتبع هذا التصميم مدرسة الناصر محمد (٦٩٨-٧٠٣هـ/ ١٢٩٩-١٣٠٩م)، بالنحاسين، مدرسة الملك الجوكندار، (٧١٩هـ/ ١٣١٩). في باب الغلام، مدرسة صرغتمش (٧٥٧هـ/١٣٥٦م)، بالخضري مدرسة السلطان حسن (٧٥٧-٧٦٤هـ/ ١٣٥٦-١٣٦٢ن)، بميدان (صلاح الدين)، مدرسة أم السلطان شعبان (٧٧٠هـ/ ١٣٩٦م)، مدرسة الجاي اليوسفي (٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م)، (سوق السلاح)(٥١). وقد استمّر نظام المدارس ذات الإيوانات المتعامدة على صحناً أوسط خلال العصر المملوكي الجركسي وأصبحت هذه المدارس أصغر حجماً وأقل مساحة عما كانت عليه في العصر المملوكي البحري، وهذا أدى إلى صغر مساحة المدرسة وأصبحت أكثر رشاقة عن ذي قبل.

وأصبح في بعض الأحيان مسقوفاً بسقف خشبي يتوسطه شخشيخة، وإن كانت بعض الأمثلة الشاذة مثل مدرسة خايربك (بباب الوزير)، حيث نجد إن الصحن مغطى بقبو مروحي يتوسطه مثمن يعلوه شخشيخة، وهنا نجد أن الفسقية أو الميضاءة قد اختفت نتيجة لتغطية الصحن وأصبح يدخل لها من باب جانبي بالصحن(٥٢). ونجد في هذه المرحلة أن المعمار عمد إلى دمج نظام المدارس ذو الأربعة إيوانات مع نظام المساجد الجامعة ذات الأروقة، نلاحظ أنه قد استقى معظم عناصره من تصميم المدرسة وما أضافه المعمار تقسيم الإيوانات بواسطة بوائك وقد ألحق بهذا النوع من المدارس

بعض العناصر المعمارية التي كانت توجد في المدارس من مدافن وأسبلة وكتاتيب(٥٣)

ونلاحظ أن بداية هذا الدمج قد ظهر في مدرسة السلطان المنصور قلاوون (٦٨٣-٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م)، بالنحاسين، وهو ما نجده في إيوان القبلة فقط واستمّر استخدام هذا التصميم فيما بعد، حيث ظهر في العديد من المدارس مساجد أهمها، مسجد أحمد المهمندار، (٧٢٥هـ/ ١٣٢٤-١٣٢٥م)، بالدرب الأحمر، ومسجد أصلم السلحدار (٧٤٥-٧٤٦هـ/ ١٣٤٤-١٣٤٥م)، بزرع النوى. ومسجد وخانقاه الأمر شيخو (٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م)، بالصليبية. وهنا نجد أن هذا التصميم قد اتضحت صفاته ومعالمه المعمارية، وقد استمّر هذا النظام في عصر المماليك البرجية في كل من مسجد السلطان الظاهر برقوق، (٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م)، بالنحاسين، وخانقاه ابن الناصر فرج ٣٠-٨/ ٨١٣هـ/ ١٤١١م، ومسجد برسباي ٨٣٥هـ/ ١٤٣٣م، بالصحراء ومدرسة حاتم البهلوان (٨٣٣هـ/ ١٤٧٨م، بالسروجية، ومدرسة أبو بكر مزهر (٨٨٤هـ/ ١٤٧٩-١٤٨٠م)، ببرجوان(٥٤).

أما في إيران وشمال شرق آسية فنجد أن السلاجقة استحدثوا المدارس في العمارة الإسلامية، حيث يرجع الفضل إلى الوزير نظام الملك، الذي توفي عام (٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م)، في نشر المدرسة كمؤسسة حكومية تقدم لطلاب التعليم الإقامة والأكل. وقد بنى نظام الملك العديد من المدارس في نيسابور، وطوس، وبغداد، وغيرها من المدن، ولم تصلنا أية مدارس تعود إلى هذه الفترة سواء أكان في إيران أم في العراق أم الأناضول. وأقدم النماذج لهذه المدارس المدرسة الشرابية التي بناها شرف الدين إقبال الشرابي، التي أكتمل بنائها سنة (٦٢٣هـ/ ١٢٢٥م)، أما تصميمها المعماري فيتكون من صحن مربع الشكل مكشوف يطل عليه من الجهة الشمالية إيوان مغطى بقبو مدبب ويحيط بالفناء غرف للإقامة وقاعات في زوايا البناء، خصصت للمحاضرات والبناء يتكون في أجزائه من طابقين(٥٥)، ومدرسة "جيجرجالي" في قونية، التي يعود تاريخ

بنائها لعام (٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م)، والمدرسة تتكون من إيوان تحف به قاعتين لكل منهما قبة[٥٦]، وانتقل هذا النظام إلى بلاد الشام في عهد الأتابكة، حيث تميزت المدرسة بوجود إيوان أو أكثر على جوانب الصحن، وكذلك انتقلت من سورية إلى مصر، وفي العصر الإيراني المغولي استخدم المعمار نفس التصميم، الذي كان سائداً في العصر السلجوقي. وفي أغلب المدارس التي تعود إلى هذه الفترة، قد تهدمت واندثرت معالمها المعمارية، أما أقدم المدارس، التي ما زالت تحافظ على معالمها مدرسة فرجرد على حدود أفغانستان، فقد بينت سنة (٨٤٩هـ/١٤٤٥م)[٥٧]، ونلاحظ أن تصميم هذه المدرسة يعتمد على أربعة أواوين مغطاة بأقبية تحيط بالصحن وهي تشبه المدارس المملوكية المتطورة، التي تعتمد على أربعة أواوين وصحن مكشوف. أما في بلاد فارس، فقد استخدم هذا التصميم في بناء المساجد في العصر السلجوقي، ومن أهم الأمثلة عليه مسجد قزوين (٥٠٩هـ/ ١١٥م)، ومسجد رادستان (٥٧٦هـ/ ١١٨٠م)، وفي العصر الصفوي أيضاً استخدم المعمار نفس التصميم الذي كان سائداً في العصر السلجوقي، وهو الذي يعتمد على أربعة إيوانات متعامدة على صحن مكشوف ومن الأمثلة جامع الشاه (مسجد شاه) ١٠٣٤هـ/ ١٦٣٠م)، وعلى نفس التصميم بنيت مدرسة مادري شاه سنة (١١١٨هـ/ ١٧٠٦م)[٥٨].

ومن هنا نلاحظ أن هناك علاقة مشتركة بين المدارس التي ظهرت في مصر وفي إيران من حيث استخدام تصميم المدارس، التي تعتمد في تصميمها على أربعة أواوين متعامدة وصحن مكشوف، وقد انتقل استخدام هذا الطراز أو التصميم إلى بناء المساجد وخاصة في نهاية العصر المملوكي، وكذلك استمّر استخدام هذا الطراز في إيران، في المدارس، والمساجد معاً كذلك استمّر استخدام المآذن في المدارس والمساجد معاً كعنصر معماري، أما في سورية والعراق فنجد أن التخطيط المعماري للمدارس السورية يختلف اختلافاً كبيراً عن المباني التي ظهرت في مصر وإيران، حيث نجد أن المدارس السورية تعتمد في تصميمها على إيوان واحد أو إيوانين ومثال ذلك

مدرسة نور الدين بدمشق المشيدة سنة (٥٦٧هـ/ ١١٦٢م)، ومدرسة "شاذ بخت" في حلب، فهي تعتمد في تصميمها على إيوانين، ونلاحظ أن المدارس السورية لا يوجد بها مآذن، كما في المدارس المصرية والإيرانية، أما في العراق، فنجد أن أهم مميزات المدرسة أنها تتكون من إيوانين أو ثلاثة أواوين، مثل المدرسة المستنصرية في بغداد وخلوها من المآذن، وعند استعراض المدارس الإسلامية بشكل عام نجد أن جميعها تمتاز بميزات مشتركة، وهذه الميزات أو الصفات كما أوردها أحمد فكري هي:

- إن جميع هذه المدارس تعتمد في تصميمها على إيوان واحد أو إيوانين أو أربعة أواوين تحيط بفناء (صحن) واسع مكشوف.
- إن جميع المدارس اعتمدت جدار القبلة قاعدة لتخطيط المبنى حيث نجد أن هناك جداراً في كل الأواوين متجهة ناحية القبلة.
- وجود (بيت الصلاة)، في كل مدرسة ويكون في الغالب في إيوان القبلة وهي أكبر القاعات الرئيسة في المدرسة.
- تعتمد المدارس على فناء (صحن مكشوف)، لإدخال الضوء والشمس والهواء إلى سائر أرجاء المدرسة ويختلف شكلها من مدرسة إلى أخرى.
- إن جميع هذه المدارس تحتوي على بيوت للطلاب والمدرستين تتكون من غرف صغيرة، وربما تكون من طابق واحد أو طابقين.

وهذا لا ينفي وجود بعض الاختلافات الثانوية في التصميم المعماري العام.

أسباب ظهور المدارس:

اختلف العلماء والمؤرخون حول أسباب بناء المدارس الإسلامية المستقلة فمنهم من قال: إن التدريس في المساجد قد عمل على إعاقة الصلاة وذلك لتحلق الطلاب حول

أساتذتهم ويصدرون أصواتاً تؤدي إلى إعاقة الصلاة وإزعاج المصلين والمتعبدين وقد أورد أحمد شلبي: إنه نتيجة لتطور العلوم بتطور الزمن وإدخال علم الكلام وعلم الجدل والمناظرة ونتيجة للحوار والنقاش، الذي يدور خلال هذه اللقاءات وهذا بدوره يتنافى وطبيعة تدريسها في المساجد(٥٩).

وهنا نجد أن هذا المبرر لا يجانب الصواب، لأن العلم في المساجد لا يعيق إقامة الصلاة لأن الأساتذة والطلاب يؤدون الصلاة مع المصلين وهذا لا يتعارض مع زمن إقامة الصلاة بوجهها الصحيح وهناك رأي آخر لفريد شافعي، يؤيده فيه كامل حيدر(٦٠)، يرجعون السبب الرئيسي لإنشاء المدارس الإسلامية إلى دوافع سياسية ودينية معاً، أما الدوافع السياسية فتعود إلى محاربة المذهب الشيعي، الذي كانت تدعو إليه الدولة البويهية والدولة الفاطمية بالإضافة إلى بعض المذاهب والحركات الإسلامية، التي كانت سائدة في ذلك الوقت مثل المعتزلة والباطنية، ولعل هذا الأمر هو الذي جعل المدارس في بدايتها تقتصر في علومها على العلوم الدينية واللغوية. ومن الدوافع السياسية الأخرى نجد أن الهدف الذي سعى إليه نظام الملك الوزير السلجوقي أن يظهر للعالم الإسلامي والمسلمين حرصهم على الإسلام والدين الإسلامي فيستميل بذلك مشاعر المسلمين ويثبتون حكمهم في البلاد وتتم لهم السيطرة على البلاد الإسلامية، من خلال الخلفاء والأمراء، وهناك عامل آخر يؤكد أن مؤسس المدرسة كان يحتفظ بإدارتها ويوجّه نظام التدريس فيها بما ينسجم مع مصالحه السياسية لأن الخليفة لم تكن له السيطرة مباشرة على المدارس(٦١)، أما الدوافع الدينية فتركز على أن نظام المدرسة مرتبط ارتباطاً وثيقاً بنظام الوقف، الذي يعتبر وجهاً من وجه البر والتقوى(٦٢). ومجمل القول: إن أسباب بناء المدارس الإسلامية تتنوع بين دوافع سياسية أو دينية أو كلتاهما معاً.

نظام المسجد وعلاقته التخطيطية بالمدرسة:

يعدّ المسجد من أول المباني الإسلامية التي لقيت اهتماماً وعناية كبيرة لدى المسلمين لأنها بيت الله، الذي تقام فيه الصلوات، وتعقد فيه الاجتماعات، ومنه تُسيّر الجيوش الفاتحة، ومكان لحلّ خلافات المسلمين حيث كان القاضي يجلس في المسجد لحلّ القضايا ومكان للتدريس وتثقيف المسلمين. ولهذا نجد أن المسلمين قد اهتموا بمكان المسجد وتخطيطه علماً بأن المساجد الإسلامية قد اقتدت بمسجد الرسول (ص)، الذي بناه في المدينة المنورة، وهو أول مؤسسة تربوية إسلامية، وعند دراسة تخطيط المساجد الإسلامية، نجد أنها تعتمد على العناصر التالية:

- إن جدار القبلة هو قاعدة التخطيط وتصميم المسجد الذي ينطلق منه بناء المسجد ويتوسط هذا الجدار (المحراب).
- رواق القبلة أكبر جزء في البناء.
- يتوسط المسجد صحن مكشوف يحيط به الأروقة، وهذا الصحن له وظيفة أساسية في إدخال الضوء والهواء إلى المسجد.
- يحيط بالصحن أروقة أكبرها رواق القبلة وهي عبارة عن ممرات مسقوفة غايتها حماية المصلين من الشمس ومن الأمطار.

إن المساجد الإسلامية قد راعت هذه العناصر المشتركة ونجدها قائمة في معظمها وإن هذه العناصر المعمارية هي عناصر مشتركة مع المدارس أيضاً فمثلاً نجد أن العنصر الأول (جدار القبلة): قد اعتمد عنصراً أساسياً من عناصر المدرسة. أما العنصر الثاني (الرواق): وهو أكبر العناصر المعمارية في المساجد، وفي المدارس الإسلامية نجد أن إيوان القبلة هو أكبر الإيوانات ويوجد به أيضاً المحراب، أما العنصر الثالث (الصحن المكشوف): فهو من العناصر المشتركة فيما بين المساجد والمدارس. أما

العنصر الرابع (الأروقة): بالمساجد نجد أن المعماري الإسلامي استعاض عنها بالإيوانات والقاعات والغرف لإيواء الطلبة والمدرسين والمقيمين على المدرسة. بالإضافة إلى ما تقدم نجد أن العديد من المساجد والمدارس تمتاز بوجود ضريح لمؤسس المسجد أو المدرسة، وهو ما نجده بكثرة في مدارس الفترة المملوكية(٦٣).

من هذا الاستعراض نجد أن تخطيط المدارس الإسلامية كان يمثل تطوراً عن تخطيط المساجد على الرغم من التطور الذي حدث على المدارس الإسلامية في الفترات التاريخية المتلاحقة، حيث بقيت هذه العناصر المعمارية مشتركة فيما بين المساجد والمدارس الإسلامية، فنجد أن هناك اختلافاً وظيفياً فيما بينها يظهر بالتالي:

١- إن وظيفة المسجد الأساسية إقامة الصلوات والشعائر الدينية فيما أن وظيفة المدرسة هي التدريس.

٢- المساجد لأغراض دينية فيما أن المدارس قد بنيت لوظيفة تربوية إضافة إلى أسباب دينية وسياسية أخرى.

٣- إن الدراسة كانت تتم في المساجد والمدارس معاً ولكنها ليست منظمة في المساجد يجلس المدرس في المسجد ومن حوله الطلبة ويدرس ما شاء كحلقات تعليمية، أما في المدارس فنجد أن هناك مناهج يتبعها المدرس وأن الطلاب لا يستطيعون الخروج والدخول إلى المدرسة إلا بإذن. ويوجد فيها مكان إقامتهم ومأكلهم ومسكنهم، والتدريس منتظم في ساعات وأياماً محددة(٦٤)، كواقع التعليم في المؤسسات النظامية التربوية حالياً.

ومن وظائف المدارس، كما يوردها أحمد فكري أن المدرسة منشأة دينية لها شروط خاصة وأن تسميتها كانت مستمدة من البيوت المخصصة لسكن الشيوخ والفقهاء والمدرسين والطلبة وليست من قاعات التدريس على الرغم من مدلولها اللفظي(٦٥).

ويبدو من اسم المدرسة أن وظيفتها الأساسية كانت التدريس، ومع أننا نجد أن المساجد كانت تقوم أيضاً بهذه المهمة وأن التدريس كان قائماً في العديد من المساجد قبل نشوء المدارس إلا أن للمدرسة وظيفة وحيدة رئيسة أساسية تتمثل بالتدريس، ثم توفر السكن الملائم للفقهاء والمدرّسين والطلبة ومن بعد ذلك إجراء الأجر في المدارس حسبما أشارت المصادر التاريخية والوقفيات الخاصة، التي أكدها أحمد فكري في كتابه مساجد القاهرة ومدارسها (باب وظائف المدرسة)[٦٦].

ملخص:

لقد ركزت هذه الدراسة على إبراز القيم والقواعد الهندسية من الناحية المعمارية التي تتمتع بها المدرسة الإسلامية عبر العصور التاريخية الإسلامية. وبشكل محدود تحدثت الدراسة عن المدارس ودورها في الحركة الفكرية. إذ إن الباحث يرى أن هناك دراسات كثيرة عالجت موضوع نظام التعليم والناحية الفكرية التي تقوم عليها هذه المدارس ومن أبرزها بعض الدراسات الحديثة مثل تلك التي قام بها الدكتور عبد الجليل عبد المهدي من الجامعة الأردنية حول: المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي والمملوكي بجزأين، نشر سنة ١٩٨١، في مكتبة الأقصى، ثم الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي لنفس المؤلف نشر سنة ١٩٨٠م، بدعم من الجامعة الأردنية- إضافة إلى كتابات ومذكرات المؤرخين ورحالتهم حول هذا الموضوع وعذر الباحث في التركيز على الحديث عن الطراز المعماري أو المدرسة الإسلامية إذ إن معظم الدراسات السابقة قد ركزت على إبراز دور المدارس في الحركة الفكرية ولن تعنِ بالحديث عن الطراز المعماري لها، أو ما يتصل بذلك على حد قول الدكتور عبد الجليل عبد المهدي بكتابة المدارس في بيت المقدس. وأن دراسة الجوانب المعمارية في هذه الدراسة تكسبها أهمية خاصة إذا تركز على آثار شاهدة على أصالة الحضارة الإسلامية.

لقد قمت في هذه الدراسة بتعريف أهم المؤسسات التي قامت على تحقيق رسالة التعليم بدءاً بدور السكن (البيوت والمنازل)، ثم المساجد، ثم دور القراءة (الكتاتيب). مع التعرض إلى أقسامها وكذلك البيمارستانات التي كان يتم فيها حوانيت التعليم أيضاً، وكذلك حوانيت الوراقين، والقصور وأخيراً المدرسة بمفهومها الحديث والمعاصر من خلال استعراض بعض المدارس الإسلامية من الناحية المعمارية والتي من أبرزها:

مدرسة دار الحديث النوري في دمشق التي بنيت سنة ٤٤٩هـ/ ١١٥٤م، ومدرسة النورية الكبرى التي بنيت سنة ٥٦٧هـ/ ١٧١٢م، ومدرسة خان أتون سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م، والمدرسة العادلية، والمدرسة الظاهرية والمدرسة السلطانية، والكثير من المدارس المملوكية. ومن المعروف على وجه الخصوص أن المساجد التعليمية قد تعددت في تاريخ الثقافة الإسلامية، ومنها المسجد النبوي في المدينة، والمسجد الحرام في مكة، والمسجد الجامع في الكوفة، والمسجد الأقصى في القدس، والجامع الأموي في دمشق، وجامع ابن طولون، والجامع الأزهر في مصر وقد قامت هذه المساجد بدورها في تاريخ الثقافة الإسلامية وكذلك البيمارستانات، التي عمل فيها عدد من أشهر الأطباء بتاريخ العالم الإسلامي، حيث كان علم الطب مادة تدرس نظرياً وعملياً، وأنشئت مدارس خاصة له. وكذلك الخوانق والزوايا وهي من المعاهد والمؤسسات الدينية الإسلامية، مثلما هي دور علم وعبادة تقوم بأدوار مختلفة. وفي العصر الأيوبي والمملوكي شهدت المدرسة حالة تطور معماري تمثّل بظهور المدارس التي تعتمد في تخطيطها على إيوانين أو أربعة أواوين يتوسطها صحن مكشوف. فكانت هذه الحالة من التطور المعماري هي السمة الظاهرة في تاريخ عمارة المدارس الإسلامية.

الحواشي

١) **القرآن الكريم**، سورة العلق، آية ١-٥، سورة المجادلة، آية ١١.

٢) الغزالي، أبو حامد بن محمد،أحياء **علوم الدين**، ج١، المطبعة اليمنيـة بمصـر، ١٨٩٤، ص ١١.

٣) عاقل، نبيه، **تاريخ عصر الرسول والخلفاء الراشدين**، المطبعة الجديدة، دمشـق، ١٩٨١-١٩٨٢، ص ١٠٥.

٤) القفطي، أبو الحسن جمال الدين علي بن يوسـف بـن ابراهيـم الشيشـاني (ت ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨)، **أخبار العلماء بأخبار الحكمـاء**، مطبعـة السـعادة، مصـر ١٩٠٨، ص ٢٨٢.

٥) حيدر، كامل، **العمارة العربية الإسلامية** (نشوء المدارس الإسلامية وخصائصـها في العصر العباسي)، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٥، ص ١٠.

٦) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م)، **المقدمة**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢، ص ١٠٤.

٧) حيدر، كامل، **العمارة العربية الإسلامية**، ص ١٤.

٨) الحموي، ياقوت، شـهاب الديـن يـاقوت بـن عبـد الله الحمـوي البغـدادي، (ت٦٢٣هـ/١٢٢٥م)، **معجم الأدباء أو طبقات الأدباء** (إرشاد الأديب إلى معرفة الأديب)، المطبعة الهندية بالموسكي، ١٩٢٣-١٩٣٠، ج٤، ص ٢٧٢.

٩) فكري، أحمد، **مساجد القاهرة ومدارسها**، ج٢، دار المعارف، مصـر، ١٩٦٩، ص ١٤٧.

١٠) حيدر، كامل، **العمارة العربية الإسلامية**، ص ١٦.

١١) المقريزي، الشيخ تقي الدين بن علي بن عبد القادر (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٣١م)، **المواعظ والاعتبار في الخطط والآثار في مصر والقاهرة والنيل وما يتعلق بهما من الأخبار**، الخطط، المطبعة الأميرية بالقاهرة، ١٨٥٣م، ج٢، ص ٤٠٥. غليونجي، بول شوقي، جلال، **موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين**، دار المطابع المستقبل، القاهرة، ١٩٨٥، ج١، ص٢٢.

١٢) العلبي، أكرم، **خطط دمشق**، (دراسة تاريخية شاملة، دار الطباع، الطبعة الأولى، دمشق ١٩٨٩، ص ٢٦٠-٢٦٢.

١٣) العلبي، أكرم، **خطط دمشق**، ص ٢٦٢-٢٦٣.

١٤) شلبي، أحمد، **تاريخ التربية الإسلامية**، مطبعة دار الكشاف، بيروت، ١٩٥٤، ص ٤٠.

١٥) الحموي، ياقوت، **معجم الأدباء**، ج٦، ص ٥٦.

١٦) **المرجع السابق**، ج٥، ص ١٢٥.

١٧) **المرجع السابق**، ج٥، ص ٤٥، فكري أحمد، **مساجد القاهرة ومدارسها**، ج٢، ص ١٥٤.

١٨) شيحة مصطفى، **الآثار الإسلامية في مصر من الفتح العربي حتى نهاية العصر الأيوبي**، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الأولى، ١٩٩٢، ص ٣٦.

١٩) المقريزي، **الخطط**، ج٢، ص ٢٦٣.

٢٠) معروف، بشار، **مدارس العراق في العصر العباسي**، بحث في كتاب حضارة العراق، مطبعة دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٨٥، ج٨، ص ١١٨، حيدر، كامل، **العمارة العربية الإسلامية**، ص ٢٤.

٢١) الحموي، ياقوت، **معجم الأدباء**، ص ٤٢.

٢٢) العلبي، أكرم، **خطط دمشق**، ص ١٩٧.

٢٣) ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن ابراهيم بن أبي بكر (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)، **وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، مطبعة دار القلم، ١٩٧١، ج٧، مطبعة دار صادر، والأجزاء الباقية بدون سنة طبع، ج٤، ص ٢٧٢، الحموي، ياقوت، **معجم الأدباء**، ج١، ص ٢٨٨.

٢٤) . حيدر، كامل، **العمارة العربية الإسلامية**، ص ٢٤.

٢٥) السبكي، أبو ناصر عبد الوهاب بن تقي الدين (ت ٧٧١هـ/ ١٣٧٠م)، **طبقات الشافعية الكبرى**، مطبعة الحيثية بالقاهرة (١٣٢٤-١٩٠٦م)، ج٤، ص ٣١٣-٣١٤.

٢٦) فكري، أحمد، **مساجد القاهرة ومدارسها**، ص ٥٠.

٢٧) المقريزي، **خطط**، ج٢، ص ٣٦٣-٣٦٤.

٢٨) **المرجع السابق**، ص ٥٦.

٢٩) الند، فليمنغ، مانيك، ميخائيل، المقدادي، رياض، بصرى، **الإسلامية دليل مختصر**، معهد الآثار الألماني في دمشق، المطبعة الاقتصادية، عمان ١٩٩٠، ص ٣٦.

٣٠) فكري، أحمد، **مساجد القاهرة ومدارسها**، ص ١٠٠، حيدر، كامل، **العمارة العربية الإسلامية**، ص ١٠١.

٣١) فكري، أحمد، **مساجد القاهرة ومدارسها**، ص ١٠٠.

٣٢) العلبي، أكرم، **خطط دمشق**، ص ٩٠-٩٣.

٣٣) فكري، أحمد، **مساجد القاهرة ومدارسها**، ص ١٠٤.

٣٤) العلبي، أكرم، **خطط دمشق**، ص ٢٢٥-٢٢٧.

٣٥) **المرجع السابق**، ص ١٤١-١٤٤.

٣٦) فكري، أحمد، **مساجد القاهرة ومدارسها**، ص ١١١-١١٢.

٣٧) **المرجع السابق**، ص ١١٢-١١٣، الديماوي، عبد القادر، **العمارة العربية الإسلامية**، دار البشائر، دمشق، ١٩٩٩، ص ١٦٠.

٣٨) فكري، أحمد، **مساجد القاهرة ومدارسها**، ص١١٧.

٣٩) حيدر، كامل، **العمارة العربية الإسلامية**، ص ١٠٤.

٤٠) فكري، أحمد، **مساجد القاهرة ومدارسها**، ص١١٥.

٤١) **المرجع السابق**، ص ٩٤.

٤٢) **المرجع السابق**، ص ٥٠.

٤٣) **المرجع السابق**، ص ٥٠.

٤٤) **المرجع السابق**، ص ٥١.

٤٥) **Creswell, K.A.C.: The Muslim Architecture of Egypt 2 Vols , Oxford, 1950-1952, p. 123.**

فرغلي، أبو الحمد، **الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة**، الـدار المصرية اللبنانية، الطبعة الثانيةـ ١٩٩٣، ص١٩٩-٢٠١، شيحة، مصطفى، **الآثـار الإسلامية**، ص ٢٢٦.

٤٦) فكري، أحمد، **مساجد القاهرة ومدارسها**، ص ٦٠. شيخة، مصطفى، **الآثـار الإسلامية**، ص ٢٢٥. حيدر، كامل، **العمارة العربية الإسلامية**، ص ١١٤.

٤٧) **Creswell, K.A.C.: The Muslim Architectule of Egypt Vols 2 , p. 127-129**

٤٨) فهمي، عبد الرحمن، القاهرة، **تاريخ فنونها**، وآثارها العمارة قبل العصـر المملوكي، مؤسسة الأهـرام، ١٩٧٠، ص ٢٣٢. شـيخة، مصطفـى، **الآثـار الإسلامية**، ص ٢٣٥-٢٤٠. فرغلي، أبو الحمد، **الدليل الموجز**، ص١٩٩.

٤٩) نجيب مصطفى وآخرون، القاهرة، **تاريخ فنونها**، وآثارهـا (العمـارة فـي عصر المماليك)، مؤسسة الأهرام، ١٩٧٠، ص ٢٣٢.

٥٠) **المرجع السابق**، ص ٢٤٥.

٥١) **المرجع السابق**، ص ٢٤٥.

٥٢) **المرجع السابق**، ص ٢٤٥-٢٤٦.

٥٣) **المرجع السابق**، ص ٢٤٦-٢٤٧.

٥٤) **المرجع السابق**، ص ٢٤٧.

٥٥) حيدر، كامل، **العمارة العربية الإسلامية**، ص ٦٢.

٥٦) عبد الحميد، سعد، **العمارة والفنون في دولـة الإسـلام**، منشـأة المعـرف بالإسكندرية، ١٩٨٦، ص ٤١٢.

٥٧) **المرجع السابق**، ص ٤٤٦.

٥٨) **المرجع السابق**، ص ٥٣٤-٥٣٦.

٥٩) شلبي، أحمد، **التربية الإسلامية**، ص ٥٨.

٦٠) شافعي، فريد، **العمارة العربية** ص ٢٤٨-٢٥٠. حيدر، كامل، **العمارة العربية الإسلامية**، ص ٢٩-٣٠.

٦١) معروف، بشار، **مدارس العراق**، ص ٨٥.

٦٢) حيدر، كامل، **العمارة العربية الإسلامية**، ص ٣٠.

٦٣) فكري، أحمد، **مساجد القاهرة ومدارسنها**، ص١١٨.

٦٤) ابن جماعة، أبو اسحاق ابراهيم ابن جماعة الكتاني (ت٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م)، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، نشره محمد هاشم القدري، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م، ص ٢٣٥-٢٤٤.

٦٥) فكري، أحمد، **مساجد القاهرة ومدارسها**، ص١٦٣.

٦٦) المرجع السابق، ص ١٥٤-١٦٣.

المؤثرات العربية الإسلامية على شعوب الصين في عهد إمبراطورية (يين) المغولية في القرنين الثالث والرابع عشر الميلاديين

الدكتور: أحمد محمد الجوارنة

قسم التاريخ

جامعة اليرموك

اربد

المؤثرات العربية الإسلامية على شعوب الصين في عهد إمبراطورية (يين) المغولية في القرنين الثالث والرابع عشر الميلاديين

الدكتور: أحمد محمد الجوارنة
قسم التاريخ
جامعة اليرموك
اربد

تقديم:

ظلت بلاد الصين بمنأى عن المؤثرات العربية الإسلامية المباشرة، ببعديها الجغرافي والسكاني، ذلك لأن هذه البلاد لم تصلها الفتوحات العسكرية العربية، وإن هي طرقت حدود الصين، وطفقت تهدد سيادة الدول والممالك المنتشرة هناك، عندما أعلن قتيبة بن مسلم الباهلي عن نيته في اجتياح الأقاليم الصينية وضمها للدولة الأموية، على غرار ما فعل في أواسط آسية، وذلك في أواخر القرن الأول الهجري(١).

وهي أول محاولة عسكرية جادة من قبل العرب لاحتلال الصين، ثم ما حصل في عام ١٢١٧م، حينما شنّ علاء الدين الخوارزمي، سلطان الدولة الخوارزمية، سلسلة من

الحروب ضد جنكيز خان، أدّت إلى اجتياح الأقاليم الصينية الشرقية بصفة مؤقتة[٢]، وهي الاعتداءات التي اتخذها المغول ذريعة لاجتياح العالم الإسلامي وإسقاط أنظمة الحكم السياسية، ورغم جدية هذه المحاولات التي استهدفت الصين، إلا أنها لن تحقق فتحاً ولا سيطرة عربية إسلامية دائمة على الأقاليم الصينية، وبذلك فشلت في إيصال رسالة الإسلام وثقافته إلى بلاد الشرق الأقصى، وفي ذات الوقت، نقف عند حركة هامة سعة من خلالها التجار المسلمون، سواء من الهند أو إيران أو الجزيرة العربية والعراق، إلى نشر المعتقدات الدينية الإسلامية في المناطق الجنوبية، كإندونيسية والفلبين وجزر الملايو وتايلاند وماليزية، والتي تعرف ببلاد جنوب شرق آسية، وهي أقاليم منفصلة تمام الانفصال عن الصين، ورغم ذلك فقد طال التأثير الإسلامي على المناطق الساحلية الجنوبية للصين، وهي بطبيعتها محدودة النطاق، إذن، كيف نفذ الإسلام بثقافته ومعتقداته إلى بلاد الصين الشمالية والغربية والوسطى، حتى وصل إلى الجزيرة الكورية واليابان، والتي اشتهرت عند المؤرخين والرحالة العرب والأجانب ببلاد (الصين صين)؟ ومن المسؤول عن نشاط الدعوة الإسلامية وثقافة العرب في تلك المناطق؟ وما هي السبل التي مارسها رجالات الإسلام في اختراق جدار الصين العظيم الذي ظل معزولاً عن العالم الإسلامي حتى القرن الثالث عشر الميلادي؟ وهل كان من محصلات الاجتياح المغولي للعالم الإسلامي تلاقح الفكر والثقافة المغولية الممزوجة بثقافة الصين بثقافة العرب المسلمين؟ هذه التساؤلات وغيرها مما ستسعى هذه الدراسة للإجابة عليها والمتعلقة بأثر العرب والمسلمين على شعوب الصين في ظل الحكم المغولي في القرنين الثالث والرابع عشر الميلاديين.

١:١- خضعت الصين للسيطرة المولية المباشرة في مطلع القرن الثالث عشر الميلادي وتحديداً سنة ١٢١٥م، وذلك على يد جنكيز خان، فسيطرت على الأقاليم الشمالية الغربية والشمالية الشرقية، وفي عام ١٢١٨م، احتوت أقاليم تركستان الشرقية[٣]، وعندما اتخذ جنكيز خان قراره الخطير باجتياح الدولة

الخوارزمية الإسلامية، والتي كانت تسيطر على أواسط آسية وإيران وأفغانستان، وأصدر أوامره إلى أولاده بقيادة الحملات العسكرية التي جاءت على أربع جبهات، وذلك لتسهيل مهمة السيطرة على دولة الخوارزميين وبالسرعة الممكنة، لتسقط المدائن الخوارزمية مدينة تلو الأخرى، ومن أُترار إلى بنكت وفرغانة ومراغة وجند وخُجندة وسمرقند وبخارى وخوارزم...إلى أن وصلوا إلى مدائن فارس كالري وقزوين ونيسابور وإلى الحدود العراقية، ليفرغوا من مهمة إسقاط الدولة الخوارزمية بحدود سنة ١٢٢٤م(٤)، ولقد اتخذ المغول سياسة التفريغ السكاني، سواء عن طريق الإبادة الجماعية، وفرض الهجرات القسرية على الناس، أو مصادرة الكفاءات البشرية، كالعلماء والحرفيين والصنائعيين وغيرهم وإرسالهم إلى بلاد الصين ومنغولية، وقد كشفت المصادر العربية الإسلامية عن مجموعات كبيرة من أولئك العلماء والحرفيين الذين تم أسرهم على يد المغول، والحقيقة أن تلك المصادر لا تسعفنا في معرفة الحجم الحقيقي لعدد الأسرى المسلمين الذين صودروا من بلادهم إلى الصين، في حين كانت أكثر المدن استنزافاً لطاقاتها العلمية والحرفية الخلاقة هي مدن: بخارى وسمرقند ونيسابور.

و قبيل وفاة جنكيز خان سنة ١٢٢٧م، أمر بتوزيع البلاد المفتوحة بما فيها بلاد الصين على أبنائه الأربعة، وكانت الصين من نصيب أسرة "تولي خان" الابن الأصغر، وفقاً لتشريعات المغول وقواعدهم في الحكم، فقد مُنح تولي خان منصب "الخان الأعظم" لأنه أصغر الأبناء، وكونه امتاز بالشجاعة والبطولة وسداد الرأي والتدبير، ومحط مشورة والده في جميع الملمات، ومشرفاً على مواطن أبيه ومعسكراته وأمواله وخزائنه وذخائره وأمرائه وحرسه الخاص(٥)، وعلى الرغم من بقاء "تولي خان" الخان الأعظم مدة خمس سنوات (١٢٢٧-١٢٣٢م)، إلا أن المصادر التاريخية المعاصرة لا

تقدم أية معلومات حول سياسته الدينية خصوصاً تجاه الإسلام والمسلمين، وكذلك عدم ظهور أية مآثر للزعماء والعلماء المسلمين الذين عاشوا في بلاد الصين ومنغولية.

وعقب وفاة "تولي خان" سنة ١٢٣٢م، آلت الخانية العظمى إلى "أوكتاي خان" حاكم ولاية منغولية، الذي احتضن أبناء شقيقة "تولي" ورعاهم وأكرمهم غاية الإكرام، كما نالت والدتهم "سيور قوقتيتي بيكي" نفس الرعاية والإكرام، التي راحت تستثمر تأييد الخانِ الأعظم لها ولأبنائها، فعملت على استقطاب العناصر المتنفذة داخِل المغولي، من خلال تقديم الهدايا والأموال، حرصاً منها على توفير الدعم اللازم لبيعة ابنها "منكوخان" كخان أعظم للمغول في بلاد الصين، وحققت نجاحاً كبيراً بعد وفاة "كيوك خان" ابن "اوكتاي خان" في حشد تأييد أمراء المغول لعقد مؤتمر الشورى العام (القورليات)، الذي انعقد سنة ١٢٥٠م، وتمخض عنه بيعة "منكوخان" خاناً أعظم للمغول، ثم أجلس على سرير الملك في مدينة "قراقورم"[٦]، وبذلك سيطر منكوخان على أقاليم الشرق الأقصى، لاسيما بعدما انتشرت جيوشه تفتح الأقاليم الشمالية والغربية والشرقية والجنوبية لبلاد الصين، وتكللت جهوده بفتح مدينة خان باليق (بكين حالياً) ليؤسس إمبراطورية مغولية جديدة عرفت بأسرة يين (Yuan) وذلك على أنقاض أسرة الصين العريقة "سونغ"، التي حكمت الصين من سنة ٩٦٠م، وحتى عام ١٢٥٠م[٧].

٢:١- تشير معظم المصادر التاريخية وكتب الرحلات التي وصلت إلى بلاط إمبراطورية المغول في بلاد الصين إلى أن الحياة الدينية والعقائدية السائدة وسط المغول والشعوب الصينية هي الديانة البوذية(الوثنية)، التي سيطرت على مسار الدولة السياسي والاجتماعي، وكانت أكثر انتشاراً في مؤسسة المغول العسكرية، وإذا ما عرفنا أن إمبراطور المغول في الصين هو الخان الأعظم لكافة ممالك المغول، فهذا يعني أن الديانة البوذية كانت بدون شك ديانة كل المغول، في بلاد ما وراء النهر ودولة القبيلة الذهبية وكذلك إيلخانية المغول في إيران والعراق،كما نلاحظ حرص الدولة المغولية على التقيد التام والالتزام الثابت بمقررات الجد

المؤسس جنكيزخان، الذي صاغ قوانين وتشريعات عرفت بالياساق، بينما لا يعتبر الياساق بأي شكل من الأشكال عقيدة دينية، بل ميثاق مغولي خاص استوعب المسائل السياسية والعسكرية والاجتماعية، وغاية ذلك الحفاظ على وحدة الأسرة المغولية، وبناء دولة قوية روحها التشريع والقانون.

وحينما نعالج المصادر التاريخية قريبة العهد بحكم "منكوخان"، نجد أن الزعيم المغولي "أوكتاي خان" يفوض مصالح الدولة وتدبير شؤونها إلى زوجة "تولي" الكبرى الملكة "سيوربيكي"، التي تتمتع بالحكمة والعقل وسداد الرأي، ويؤكد المؤرخ رشيد الدين الهمذاني أن هذه السيدة المغولية تعتنق الديانة المسيحية، وعملت على ترويج الديانة المسيحية بين أتباعها(٨)، وإذا اعتمدنا رواية الهمذاني وسلمنا بها، فتكون الديانة المسيحية أسبق من الإسلام إلى البلاط المغولي في بلاد الصين.

وعندما نطالع سيرة السيدة المغولية نجدها رغم إيمانها بالمسيحية تنظر إلى بقية الأديان الأخرى نظرة ودّ وتسامح، لاسيما تجاه الإسلام والمسلمين الذين وجدوا منها كل تقدير واحترام، وسعت بكل جد إلى إظهار تكريمها للإسلام وشريعته، وهنا يعيد رشيد الدين، تأكيده على أن ملكة المغول تغدق الأموال والصدقات والعطايا على أئمة المسلمين ومشايخهم، ومصداق ذلك أنها منحت كيسا من الفضة (بالش) لإقامة مدرسة في مدينة بخارى، على أن يتولى ذلك العمل ويشرف عليه، شيخ الإسلام سيف الدين الباخرزي، كما أمرت بشراء الضياع ووقفها على هذه المدرسة. ولقد اختير لها المدرسون وطلاب العلم، وكانت توالي إرسال الصدقات إلى الأطراف والنواحي، وتنفق الأموال على المساكين والفقراء من المسلمين وظلت تسلك هذه الطرق إلى أن توفيت في شهر ذي الحجة سنة ٦٤٩هـ/ ١٢٥١م(٩).

صحيح إن زوجة تولي خان لم تعتنق هي وأتباعها الإسلام، إلا أنها في نفس الوقت لن تظهر عداءً ضده، بل أبدت تسامحاً وتقديراً لأتباع الديانة الإسلامية، وهي بادرة

إيجابية على بداية تعايش مغولي صيني مع المسلمين، وخطوة نحو قبول المعتقـــدات الإسلامية في إمبراطورية المغول، وهي أيضاً بداية أولى تجاه تأثير إســـلامي -ولـــو على نطاق محدود- في بلاد الصين المغولية، ويعتبر توجه السيدة المغوليـــة بمثابـــة إرساء قواعد التسامح الديني في بلادها، وذلك ما خضع لتأثيره منكوخان، بعدما اعتلى عرش المغول، إذ اتخذ سياسة دينية متسامحة إزاء الأديان، ولـــم يتعـــرض بـــالأذى والاضطهاد لأية معتقدات، مما ترتب على ذلك، انتشار حريـــة الاعتقـــاد والتبشـــير الديني، وهذا ما أكدته الموسوعة البريطانية، التي ورد فيها: "إن الكنائس والمســـاجد والمعابد البوذية قد شيّدت في عاصمة الإمبراطورية قراقورم (قبل أن تصبح العاصمة بكين) التي أضحت من أهم المدن وأعلاها مكانة في زمانه(١٠).

١:٣- يبدو أن سياسة التسامح الديني في بلاط الإمبراطورية المغولية فـــي الصيـــن ظهرت في مرحلة مبكرة، وأخذت تطغى على القرارات السياسية للدولة لاســيما عندما اعتلى "منكوخان" عرش الإمبراطورية، حيث أصدر مرســوماً (فرمانــاً) يقضي بتخفيض الضرائب عن الرعية، فأعفى منها المشايخ الكبار وطائفة رجال الدين والأئمة من المسلمين، وكبار القساوسة والرهبان والأحبار من النصـــارى، واللامات المشهورين من البوذيين(١١)، فكان من نتائج تطبيقه هذا المرسوم تثبيت قواعد التسامح والعدالة الاجتماعية، واستقطاب هجرات جماعية كبيرة من التجار المسلمين وغيرهم، لاسيما قبائل التازيك (الطاجيك) وقبائل الترك المسلمين إلـــى دولة المغول في الصين، تدفعهن الرغبة للعيش فـــي ظـــل حكومـــة متســـامحة عادلة(١٢)، كما ويلاحظ اهتمام مسيحي في توثيق العلاقات والروابـــط المغولـــية بالمسيحية، وهذا ما بدا واضحاً من موقف ملك فرنسة (لويس التاســـع ١٢٢١-١٢٧٠)، الذي أرسل إلى بلاط "مكوخان" سنة ١٢٥٢م، بعثة برئاســـة الراهـــب "غيوم روبك" (Rubrique)، الذي وصل إلى قراقورم واجتمع بنمكوخان(١٣)، كمـــا

سنلاحظ اهتماماً أوروبياً كبيراً في إقامة علاقات مع دولة المغول، وذلــك مــن خلال الوفود المتتالية على بلاط بلاد المغول في بلاد الصين.

أما عن علاقة البلاط المغولي بالمسلمين، فلا تعدوا عن كونها علاقة مصالح، ســيما وأن المغول استخدموا الكثيرين من العلماء والحرفيين والصنائعيين المسلمين، الــذي أسروا أثناء اجتياح المغول للدولة الخوارزمية، حيث اقتضت سياسة الدولة المغوليــة فتح الأبواب أمام الكفاءات الإسلامية لتوظيفها في خدمة الدولــة -إدارة وتشــريعات- لذلك برزت العديد من الشخصيات الإسلامية (وهي شخصيات مهمة بالطبع)، في بلاط "منكوخان" منهم: فخر الدين محمود يلواج، الذي خدم وزيراً في بلاط الملك المغولــي "أوكتاي خان"، في مملكة منغولية ما بين عام ١٢٣٠-١٢٤١م، وكان يلواج مقرباً من "منكوخان"، وحاز على عطفه وتقديره، وحينما توفي "أوكتاي"، استقدمه إلــى بلاطــه وجعله من خاصته ومستشاريه، ولازمه في أكثر اجتماعاته، وظل محط مشورة الخان الأعظم سنين طويلة، ومن الدلالات على نفوذ يلواج في بلاط المغول، أنه فــي أحــد مجالسه الرسمية التي دعي إليها "منكوخان" بسبب ظهور حالة من الفوضى السياســية بين الأمراء، وأشار على الحضور بآرائهم، ثم تلاهم يلواج وأبدى رأيــه بقتــل كــل الأمراء الذين أظهروا عصيانهم ضد دولة المغول، واستبدالهم بآخرين، ولذلــك أمــر "منكوخان" بقتل جميع الأمراء الذين حرضوا على التمرد والعصيان(١٤). وهو الأمــر الذي ينطوي عليه مكانة ومقدار ما تمتع به محمود يلواج في قصر المغول، وقدرتــه على صياغة القرارات السياسية الكبرى الحازمة، والتي لها مســاس مباشــر بــأمن وسلامة البلاد، وليس ذلك فحسب، بل دفعت ثقة الخان الأعظم بمحمود يلــواج إلــى تعيينه حاكماً لولاية الشرق لضبط ممالكها، وتنظيم مواردها، وكذلك منح ولده مسعوداً -الذي تحمل أعباء كبيرة بسبب ولائه وإخلاصه للعرش المغولي- ولايــة تركســتان وبلاد ماوراء النهر وبلاد الأويغور وفرغانة وخوارزم، وفي نفس الوقت فوّض إلــى

"أرغون خان"، حكم أقاليم إيران وخراسان وفارس وكرمان، وأذربيجان، وجورجية (كرجستان)، واللور، وآران، والأرمن وديار بكر(١٥).

كما نلاحظ شخصية إسلامية هامة في بلاط الإمبراطور المغولي "منكوخان" وهو الأمير عماد الدين، الذي فوضه مع بعض الأمراء في بحث كل ما يرتبط بشؤون الرعية وحقوقهم ومصالحهم، وهي رغبة شاه الخان الأعظم من خلالها إرساء قواعد العدالة الاجتماعية، على أن الأمير عماد الدين كان يكتب، للوصول بالعدل إلى كافة الأقاليم والمناطق، المراسيم والمنشورات وينسخها بيده ويعمل على تصديرها رسمياً باسم الخان المغولي(١٦).

١:٢- كان "منكوخان" قبل وفاته قد عهد بالخانية العظمى لشقيقه الأصغر "ارك بوغا" (Irik Bugha) ومنحه ولاية منغولية وعاصمتها قراقورم، مبقياً الأقاليم الجنوبية من بلاد الصين بيد كوبلاي خان(١٧)، وترتب على هذا القرار شيوع الاضطرابات السياسية في الأقاليم، وتعرضت البلاد لأزمة سياسية معقدة، لاسيما بعد وفاة "منكوخان" سنة ١٢٥٩م، حيث دبّ الخلاف وسط الأسرة المغولية، وسبب ذلك، أن "كوبلاي خان" رفض أن تكون الخلافة "لأرك بوغا" كي لا يصبح خاناً أعظم على كافة أقاليم الصين، إذ إن معظم أمراء ورجالات المغول كانوا مطيعين لـ "كوبلاي خان"، وبايعوه على العرش المغولي، وقد اتخذ "كوبلاي" من تأييد أمراء ورجالات المغول ذريعة وحجة لشنّ حرب واسعة النطاق ضد شقيقه "أرك بوغا"، ثم أعلن عن نفسه، في مؤتمر عام، خاناً أعظم على بلاد الصين، واتخذ من مدينة خان باليق (بكين) عاصمة للدولة، وعلى أثرها أرسل هولاكو ملك العراق وإيران رسالة إلى كوبلاي يهنئه فيها على ما حققه من انتصارات، كما بايعه خاناً أعظم على الصين(١٨)، ونلاحظ أن المعارضة الشديدة التي واجهها "أرك بوغا" من كوبلاي وهولاكو، جاءت على خلفية إظهاره رغبة في الوصول إلى زعامة المغول وكذلك على إثر تسامحه

الديني تجاه المسلمين وتمشياً وسياسة والده "منكوخان"، وهذا ما نجده في رواية المؤرخ القلقشندي التي نقلها عن الشريف السمرقندي، يقول فيها بحق "أرك بوغا": ومن عجائب ما رأيت في مملكة هذا القان (الخان) أنه مع كفره، في رعاياه من المسلمين أمم كثيرة، وهم عنده مكرمون محترمون، ومتى قتل كافر مسلماً قتل الكافر وأهل بيته ونهبت أموالهم، وإن قتل مسلم كافراً لا يقتل به، بل يطلب بديته(١٩).

٢:٢- أجلس "كوبلاي خان" على عرش المغول في مدينة (مينك فو Mink-Fu) سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م، وهو التاريخ الذي أسقط فيه هولاكو مدائن الشام، وقد يكون تحالف هولاكو مع شقيقه كوبلاي خان ضد "أرك بوغا" أمراً واقعاً، لاسيما ما أبداه من تسامح كبير تجاه الشخصيات الإسلامية في بلاد الصين، إلا أن المصادر تشير إلى سياسة "كوبلاي" المعتدلة إزاء الإسلام والمسلمين، وقد ظهرت ملامح تلك السياسة منذ تولي عرش الإمبراطورية، ويبدو أن ممارسات هولاكو القمعية في إسقاطه لبغداد والخلافة العباسية وأتبعها باجتياح للشام، وما أعقب ذلك من تقارب مسيحي مغولي -لم تنعكس على مغول الصين- فلم يظهر منهم ما يشير إلى إبادة المسلمين وقمعهم بمستوى ما حصل لهم على يد هولاكو رغم تحالفهما وسيرهم على نفس الخطى، ولا وجدنا أيضاً أن مغول الصين حاولوا إلغاء الوجود الإسلامي في مؤسسات الدولة السياسية والإدارية، ونعتقد أن التقارب الإسلامي المغولي في الصين ارتبط بموالاة الكثير من الشخصيات الإسلامية للعرش المغولي، وحرضهم على تقديم كافة الخدمات المفضية إلى إعزاز الدولة المغولية وسيطرتها على أقاليم الصين، لذلك احتفظ العديد منهم بمراكز هامة ومؤثرة داخل البلاط، كانوا فيها أصحاب القرار الأول، وذلك على الرغم من المحاولات المتكررة التي سعت إلى إقصائهم عن ممارسة أية نشاطات سياسية وإدارية.

وبناء على رغبة المغول في الاحتفاظ بالكفاءات الإسلامية واستغلال خبراتهم ومعارفهم المتنوعة، فقد احتفظ بلاطهم بالعديد من رجالات الإسلام، كالسيد الأجل البخاري، وولده أبي بكر، والأمير أحمد الفناكتي.وغيرهم. نعثر من خلال جامع التواريخ على حركة دؤبة نشطة من قبل هؤلاء المسلمين الذين ارتقوا إلى أعلى المراتب في الدولة، إذ تسلموا منصب الوزارة، ومن خلاله أظهروا إبداعاً وتطوراً كبيراً في إدارة الدولة ومرافقها المختلفة وساهموا في استقرار البلاد، وطوروا في مواردها ومنشآتها، كما سعوا إلى فرض احترام الدولة المغولية وشعبها للإسلام والمسلمين.

وممن احتفظ بهم بلاط "كوبلاي خان" من المسلمين، عمر شمس الدين الشهير بالسيد الأجل البخاري، الذي ارتقى إلى منصب الوزارة، وذلك بعد وزارة وإدارة الوزير محمود يلواج، وقد فوّض المغول إليه قبل الوزارة حكم ولاية (قراجانك) التي زارها "كوبلاي" قبل أن يتولى السلطة، ويؤكد (رشيد الدين الهمذاني) أن الجيش المغولي في هذه المقاطعة تعرض للمخاطر الكثيرة التي بدأت تهدّد مصير الجند، فضاع الجند وأصبحوا عراة جائعين، ولما علم السيد الأجل البخاري بحالهم سارع إلى تقديم الخدمة والمعونة، وقدم لجيش المغول كافة الخدمات اللازمة، وبذلك تعهد "كوبلاي" برعايته وتكريمه، لأنه أبدى اهتماماً كبيراً تجاه تخليص الجيش من المأزق الذي يهيم فيه الجند، ولما وصلت نوبة الملك إلى "كوبلاي خان"، استدعاه وقلده منصب الوزارة، وفوض حكم ولاية (قراجانك) لابنه ناصر الدين البخاري(٢٠)، وكذلك جعله عضواً في مجلس السر الأعلى للمغول(٢١).

وعندما نعرف أن المدة التي خدم فيها السيد الأجل البخاري، وزيراً للدولة المغولية هي خمس وعشرون عاماً، فإننا ندرك حجم التأثير الكبير الذي فرضته هذه الشخصية على كافة الشؤون المتعلقة بدولة المغول، لاسيما السياسية والإدارية(٢٢)، إلا أن السيد الأجل عندما كان حاكماً لولاية (قراجانك أويوننان)، فقد أثبت مقدرة فائقة وكفاءة

منقطعة النظير، تجاه إعمار الولاية وتطويرها من خلال بناء المدارس العلمية، وشق الطرق وبناء الجسور والسدود، كما تبنّى سياسة الإصلاح الاجتماعي بإزالته للمظالم والمغارم الملقاة على كاهل السكان، وأبطل السخرة، وشيّد ملاجئ للأيتام والعجزة، وخفف الضرائب والمكوس، وأحدث (أنمونجات) زراعية غاية في التطور، وحفر الآبار وأقام الأسواق، وأدخل في طاعة الدولة المغولية مالا يعدّ ولا يحصى من الأقوام، ولم يغب عن شخص السيد الأجل البخاري أن يبني المساجد الكثيرة في سائر المدن الواقعة في ولايته، للحفاظ على إقامة الشعائر الإسلامية ودعماً لنشر الدعوة، ونجده في نفس الوقت يبني معابد للبوذية(٢٣)، وحفر السيد الأجل نهراً في منطقة (تشاونيان)، التي تطغى عليها الأنهار والفيضانات والبحيرات، وصرف المياه عن المنطقة، التي كانت تغمر بالماء من قبل، كما حفر ترعاً كثيرة وخلجاً لسقي البقاع المحتاجة إلى الري، وجعل بريداً مؤلفاً من ٣٦٠ (ثلاثمائة وستين) فارساً وحارساً بقدرهم يسهرون على السدود بحيث إذا حصل فتقاً في أحدها أسرعت البُرد بإخبار الحكومة، فجمعت الحكومة الأهالي ونهضوا لرتق الفتق(٢٤)، وفي عهد الوزير السيد الأجل البخاري جرى نظام التعامل في بلاد الصين بالنقود الورقية المعروفة بـ (الجاو)، وطوال تلك الفترة التي وزر فيها، ظل التعامل بهذا النوع من العملة دقيقاً محكماً، وعلى أساسه أمكن تنظيم الدخل والخرج للمملكة كلها(٢٥)، ونلاحظ أن السيد الأجل وبقية المسلمين أدخلوا العديد من المصطلحات العربية إلى لغة الصين والمغول، فإلى جانب كثرة المسلمين الذي استقروا في حاشية كوبلاي خان، يؤكد المؤرخ كاترمير بأنهم الذين حملوا معهم الكثير من الكلمات العربية والفارسية، وضرب على ذلك مثالاً، إذ قال: "ويمكننا أن ندلل على ذلك بما يلي، يقول الرحالة ماركو بولو (رحلة ماركوبولو، ورقة ٣١): إنه كان لدى الفلكيين في مدينة (كمبالو) (Cambalu) (مكين) لوحات مربعة يسمونها تكويني (Tacuini) ويسجلون عليها كل ما يقع في أثناء العام، ومن الواضح -يقول كاترمر- إنه يجب أن نقرأ بدلاً من كلمة (تكويني) كلمة

تكويم (Tacuim) وهي الكلمة العربية "تقويم"[٢٦]، ويشير كذلك إلى أنه يوجد في بلاط "كوبلاي خان" وزير يحمل لقب (السيد الأجل)، وهي كلمتان عربيتان خالصتان، وجعل من ذلك دلائل تبرهن على أن قصر المغول في الصين كان يعج بالمسلمين الفارسيين، وأن هذا العاهل المغولي نفسه أنشأ في مدينة تاي-تو (Tai-Tou) مدرسة إمبراطورية لتعليم العلوم والفنون، وجعل مهمة الإشراف عليها لـ (هوى -هو Hoeu-Hou)، أي المسلمين[٢٧]، ومات السيد الأجل البخاري سنة ١٢٧٩م، وكان له مأتم عمّ الصين بأسرها، وذبحت القرابين في بلاط المغول إحياءً لذكراه[٢٨].

ومما لاشك فيه، أن الخبرة الكامنة لدى السيد الأجل البخاري، ورجالات الإسلام عموماً، وقدرتهم على قيادة الدولة وإدارة مؤسساتها بنجاح تام، هي الأسباب التي دفعت بكوبلاي خان للتمسك بهم وتقليدهم أعلى المناصب في الدولة، كمنصب الوزير، وتلك الخبرة والتجربة التي تحلى بها السيد الأجل، أفادت إفادة عظيمة في تقوية المؤسسة السياسية والإدارية والمالية، كل ذلك ولّد لدى إمبراطور المغول قناعات راسخة، لا يعتريها الشكوك، بأن هذه الشخصيات الإسلامية هي بحق، القادرة على تحمل أعباء الدولة جنباً إلى جنب مع قادة وزعماء المغول، وهي القناعة التي تمخض عنها تقارب مغولي صيني مع المسلمين، والذين أضحوا مواطنين يعيشون بحرية ويتمتعون بكافة الحقوق والواجبات، على أن توجه المغول هذا حثهم على ملء المناصب العليا من المسلمين، ولذلك، وبعد وفاة السيد الأجل، سارع "كوبلاي خان" إلى تعيين الأمير أحمد الفناكتي وزيراً للإمبراطورية، إذ إن شخصية الفناكتي لا تقل أهمية عن شخصية السيد الأجل، البخاري إن لم تفوقها شأناً ونفوذاً، فقد حل كافة الأمور في إمبراطورية المغول وعقدها بيده، وإن كانت الكفاءة والعلم والخبرة العالية من الأسباب التي وجهت أنظار القيادة المغولية العليا نحوه، فإن هناك سبباً آخر وراء وضعه في مكان يخوله بالتصرف في شؤون الدولة، إذ إنه كان على علاقة وثيقة مع السيدة المغولية الشهيرة باسم (جابوي خاتون)، وكذلك مع جميع أفراد أسرتها، وحينما

تزوجت من الإمبراطور "كوبلاي خان"، ارتفع قدره، وأضحى من جملة الأمراء العظام في البلاط المغولي، حتى قبض على أزمة الأمور في سائر البلاد، ونظراً للمكانة الرفيعة التي تمتع بها الأمير أحمد، صار المغول يسمونه (شوفنجان) ويعني ذلك العزيز الألمعي، وشو لقب الأمراء العظام(٢٩).

٣:٢- على أن المكانة التي وصل إليها الأمير أحمد الفناكتي، كشفت عن نفوذ سياسي واضح داخل البلاط المغولي، وهي المكانة التي أتاحت للمسلمين فرصة أخرى ثمينة للقيام بدور الدعوة والتأثير بأريحية وأمان، وجعل المؤثرات العربية الإسلامية -ولو على نطاق ضيق- تشق طريقها إلى المؤسسات الرسمية والشعبية، وهو النفوذ الذي دفع الأمير أحمد حياته ثمناً له، إذ كثرت أعداءه والحاقدين عليه، لاسيما من قبائل وأمراء (الخطا) الذين ما فتئوا يحيكون ضده المؤامرات، ويتربصون به الفرص، حتى قتلوه وأبعدوه عن موقع التأثير(٣٠)، علماً بأن الجماعات التي ظهرت في عهد وزارة أحمد الفناكتي لن تستطع التخلص منه عن طريق الوشاية والدس لدى الإمبراطور كوبلاي خان، لما تربطه بالخان الأعظم علاقات راسخة متينة، يضاف إلى ذلك، ثقة الإمبراطور المطلقة بإدارته لمؤسسات الدولة، لذلك سعوا يخططون لقتله بالخفاء، ولا نتردد، أن النصارى وبالتحالف مع بعض القيادات المغولية، قد اتفقوا لإنهاء المكانة الكبيرة التي بدأ يتمتع بها الإسلام وأنصاره داخل بلاط المغول، وقد علمنا آنفاً، أن الديانة النصرانية أسبق من الإسلام إلى القصر المغولي، فهذه زوجة الإمبراطور تولي خان المدعوة بـ "سيوربيكي" تدخل في النصرانية، كما حظيت النصرانية (المذهب النسطوري) بالكثير من التقدير والرعاية في عصر الخان "منكو" حينما أصدر مرسوماً (فرماناً) يعفي بموجبه القساوسة والرهبان من كافة الضرائب(٣١)، أما في عصر كوبلاي، فقد ظهرت موجة حادة وسط الذين يدينون بالوثنية حيث أبدوا عصبية دينية شديدة ضد المسلمين، وراحوا يعملون للتخلص

من الشخصيات المتنفذة صاحبة الفضل في تقريب وجهات نظر المغول بالمسلمين ومعتقداتهم، والوقائع التاريخية تشير بما لا يدع مجالاً للشك، أن ما وصلت إليه النصرانية النسطورية من مكانة مرموقة داخل أسوار الدولة المغولية الصينية مرده إلى جملة أسباب:

أولاً: النشاط التبشيري الذي بدأ يتقاطر على بلاط المغول في بلاد الصين، جاء عقب اجتماع هولاكو خان لبغداد وإسقاطه للدولة العباسية (١٢٥٨م)، واحتلاله لبلاد الشام (١٢٦٠م)، وما تبع ذلك من خسائر بشرية ومادية هائلة في صفوف المسلمين، الأمر الذي هيأ الفرصة لبداية تقارب أوروبي مغولي، تبلور فيما بعد إلى شكل تحالف سياسي كبير ضد العالم الإسلامي.

ثانياً: الموقف المتشدد والمناوئ الذي تبنته زوجة هولاكو "دوقوز خاتون" ضد المسلمين ومصالحهم في المنطقة الإسلامية وهي ما عرف عنها إيمانها بالعقيدة النصرانية وعلى المذهب النسطوري، فسعت إلى حشد قوات وقدرات المغول الكاملة لصالح النصارى في بلاد المشرق، وبذلك نجحت في تحويل مسار إيلخانية العراق وإيران إلى صراع عقائدي بحت بين المسيحية والإسلام، وهو الذي شكّل أرضية التحالف الأوروبي المغولي، بالإضافة إلى المكاسب الكبيرة التي حققتها المسيحية داخل مراكز الدولة المغولية في إيران والعراق[٣٢].

ثالثاً: السياسة المتطرفة التي اتخذها أبغاخان بن هولاكو (١٢٦٥-١٢٨١م)، تجاه المسلمين ومعتقداتهم، وهو من ملوك المغول الذين اعتنقوا الديانة النصرانية وتزوج من ابنة إمبراطور القسطنطينية وأقام تحالفاً رسمياً مع الصليبيين لإحكام السيطرة على العالم الإسلامي، فتحالف مع لويس ملك فرنسة، وشارل ملك صقلية، وجيمس ملك أرغونة، وفي عصره، تحركت البعثات التبشيرية الأوروبية إلى بلاط المغول في الصين للحد من نشاط وتقدم الدعوة الإسلامية،

وكان منهم: "ولهليم فون روبروك الفرنسيسكاني"، والمبشر "جيوفاني دي بلانو كاربيني"، والمبشر "ماركو بولو" وغيرهم(٣٣).

لم يقف جهد إيلخانية العراق وإيران المغولية عند هذا الحد، بل لم يتوان "خان" لحظة عن إرسال الوفود المتتابعة إلى بلاط "كوبلاي خان" لثنيه عن رعاية المسلمين وعن الاحتفاظ بهم في مؤسسات الدولة السياسية والإدارية، مقابل تقديم رعايته واحترامه للنصارى، الذين برز نشاطهم المكثف في هذه المرحلة الحرجة عند المسلمين، وكذلك سعياً للوصول إلى احتواء الشرق وإخراجه من دائرة التأثير الحضاري للعرب المسلمين، وقد مارس أبغاخان أساليب مختلفة لتحقيق هذه الغاية، ومن جملة ذلك، أنه قام بإرسال وفد من المسيحيين المتعصبين إلى بلاط كوبلاي، لإثارة غضبه على المسلمين، وتغيير سياسته المتسامحة تجاههم، فقد روى مؤرخ البلاط المغولي، رشيد الدين الهمذاني: "إن جماعة نصرانية جاءت إلى بلاط كوبلاي من قبل ملك العراق وفارس (ابغاخان)، وقالوا له: إنه توجد آية في القرآن تقول: "اقتلوا المشركين كافة"، فقال كوبلاي خان مدفوعاً بدافع الغضب من أين تقولون هذا؟ فأجابوا: فقد وصلت رسالة بهذا الشأن من لدن أبغاخان، فطلب كوبلاي تلك الرسالة، ثم استدعى العلماء المسلمين وسأل واحداً من كبرائهم، وهو بهاء الدين البهائي قائلاً: أتوجد هذه الآية في قرآنكم أم لا؟ فأجاب: بلى توجد، قال أتسمعون قرآن الله؟ قال: بلى، قال إذا كان الله قد قال: اقتلوا المشركين كافة" فلماذا لا تقتلونهم؟ فأجاب البهائي: إن الوقت لم يحن بعد، وليست لنا القدرة على ذلك، فغضب الملك وقال: ولكن الباريء مكنني من ذلك، ثم أمر بقتله، ولكنه منعه من تنفيذ ذلك الأمير أحمد الفناكتي والقاضي بهاء الدين الذي كان له أيضاً مرتبة الوزارة(٣٤)، ويشير المؤرخ رشيد الدين الهمذاني، إلى أن الإمبراطور المغولي لم يكتفِ بتلك المناظرة بينه وبين مشايخ وعلماء المسلمين، بل استدعى مولانا حميد الدين السمرقندي، وهو أحد القضاة الكبار في دولة المغول، ووجه إليه كوبلاي خان نفس الأسئلة الأولى، فأجاب حميد الدين: نعم توجد هذه الآية،

فقال الملك: لماذا لا تقتلون المشركين؟ أجاب حميد الدين: لقد أمـر الله تعـالى بقتـل المشركين، ولو أذن لي الملك لقلت له من هم المشركون فقال كوبلاي: تكلم، فقـال: أنت لست مشركاً، لأنك تكتب اسم الله الأعظم في مقدمة المرسـوم (الفرمـان) أمـا المشرك،.فهو من لا يعرف الله، ويجعل له شريكاً، وينكر وجود الله العظيم، فـأعجب الملك أيما إعجاب، وتمكن ذلك الكلام من قلبه، وكرّم مولانا حميـد الديـن وشـمله بعطفه، وبفضل كلامه نجا الآخرون من المسلمين مما كان ينتظرهم(٣٥)، ونلمس مـن ثنايا هذه الروايات التي جاء بها الهمذاني) أن ملك فارس والعراق (أبغـا خـان بـن هولاكو) جد في السعي وراء خلخلة الثقة بين قيادة المغول في الصين وبين المسـلمين من خلال إثارته لنظرة القرآن الكريم للكفار والمشركين، وهي نظرة حاسـمة بـدون شك. إلا أن كوبلاي خان، ورغم انفعالاته الأولية إزاء موقف الإسلام الفـاصل مـن المشركين والكفار، لم يغيّر من منهجيته الأولية إزاء موقف الإسـلام الفـاصل مـن المشركين والكفار، لم يغير من منهجيته السياسية البتة، إذ بدى أن عنايتـه لا تتصـل بمعتقدات المسلمين ولا حتى المسيحية، بقدر اهتمامه الواضح في تأكيد سيادة المغـول وتطوير مؤسسات الدولة وضبط ممالك وإمارات الصين المترامية الأطـراف، ولـم يشعر أن دولة المغول في خطر يهددها الإسلام والمسلمون، بـل رأى أن رجـالات الإسلام، هم عمدة الدولة وسندها في الارتقاء بها نحو التقدم والاستقرار.

ونلاحظ كذلك، إصرار (أبغا) على توثيق علاقات المغول بأوروبة المسـيحية، مـن خلال فتح الأبواب أمام البعثات التبشيرية المتتالية، سواء إلى بلاط إيلخانية المغول في فارس والعراق، أو دفعهم إلى بلاط كوبلاي خان في بكين، وعليه فإن ملك العـراق وإيران كان المحرّض والدافع المباشر وراء سفارة ماركو بولو (Marco Polo)، إلـى بلاط كوبلاي خان سنة ٦٧٥هـ/ ١٢٧٥م، وقد مكث ماركو بولو ومن معه من الوفـد من المقربين إلى الخان الأعظم حتى مغادرتهم أرض الصيـن سـنة ١٢٩٥م، ولأن "كوبلاي خان" طفق ينحاز بعض الشيء إلى المسيحية تلبية لرغبات ابن أخيه القـائم

على حكم العراق وإيران، فقد سهل لهم سبل الاتصال التجاري ومع دولته، ولا نتفق هنا مع ما ذهب إليه المؤرخ (فؤاد عبد المعطي الصياد)، الذي عزا كثرة الاتصال بين الشرق والغرب كنتيجة لسياسة "كوبلاي" في ضمان حرية التجارة الأوروبية باتجاه الصين[٣٦]، مع أن ذلك من الأهداف الهامة بالنسبة لدولة المغول، بل وأثناء معالجتنا لمواقف إيلخانية فارس والعراق، نقف على الرغبة التحريضية لدولة المغول في بلاد الصين لتتخذ موقفاً معادياً تجاه المسلمين ونشاطهم البارز في مؤسسات الدولة، وكذلك دور مغول إيران في مد جسور التعاون بين أوروبة وإمبراطورية الصين المغولية، وهذا ما كشفته المصادر التاريخية، وأكد عليه ماركو بولو نفسه أثناء رحلته إلى بلاد الصين، إذ إنه هو وما فيو بولو (Maffio-Polo) ونيكوبولو (Nico- Polo) وهم من أهالي البندقية في إيطالية، حملوا رسالة من بابا روما (جرايجوار العاشر ١٢٧١-١٢٧٦م)، إلى ملك المغول "كوبلاي خان" بهدف توطيد العلاقات بين الخان الأعظم وبين أوروبة الصليبية[٣٧].

ونلاحظ التحريض الكبير الذي اضطلعت به البعثة الأوروبية في تحريض خان المغول على رعايا الدولة المسلمين، كذلك حاكوا المؤامرات للحيلولة دون تنامي النفوذ الإسلامي ومؤثراته العقائدية والثقافية في بلاط المغول خاصة وبلاد الصين بعامة، خصوصاً إذا عرفنا أن المدة التي مكث فيها الوفد الإيطالي هي عشرون عاماً أي أنها استمرت حتى بعد سنة ١٢٩٣م، وهي السنة التي توفي فيها "كوبلاي"، فإننا بدون شك نعزي حالة التحول السياسي لدولة المغول تجاه المسلمين، إلى تلك الممارسات والجهود التي سعت إلى تقويض دور المسلمين على يد تلك البعثات الأوروبية وغيرها.

٤:٢- لقد حافظ المسلمون على مواقع مؤثرة غاية التأثير داخل إمبراطورية المغول الصينية، وظلت أحوالهم تتطور في الفترة التي كان فيها الأمير أحمد الفناكتي والسيد الأجل وزراء للدولة، وهو الوضع الذي دفع مناوئي المسلمين إلى الحد

من النفوذ الإسلامي الذي بدأ يخترق بقوة عقائد الصين وتراثـها القديـم، كمـا تغيرت نظرة المغول تجاه المسلمين بعض التغير، بعد وفاة الأمير الوزير (أحمد الفناكتي) الذي ذهب ضحية المؤامرات الداخلية والخارجية، لاسيما عندما اعتلى منصب الوزارة رجل إيغوري يدعى (سنكة)، لا يستبعد أن يكون من النصارى، لأن النصرانية كانت منتشرة على نطاق واسع وسط الاويغوريين، والشاهد على ذلك، أن زوجة هولاكو المدعوة "دوقوز خاتون" كانت هي الأخرى من قبائل الاويغور وتدين بالنصرانية، لذلك، حظيت النصرانية في عهد (سنكة) بفائق العناية والرعاية، وظهر أيامه جماعات كثيرة من القسس والرهبان المتنفذين، وهنا، يشير رشيد الدين الهمذاني إلى بعض أسماء هؤلاء القساوسة، أمثال: عيسى كلمجي، وابن المعال، وبندق(٣٨)، ولا نستبعد أن يكون بندق الذي أشار إليه مؤرخ البلاط المغولي، هو الرحالة الإيطالي البندقي ماركو بولو وأقرباؤه، وهو مؤشر على دور البعثة الإيطالية المناوئ للنفوذ الإسلامي في بلاد الصين.

وقد تسبب هؤلاء في تدهور العلاقات بين الخان الأعظم والمسلمين، حتى وصل الأمر إلى قطع الصلات التجارية بين دولة المغول والعالم الإسلامي، وتسببوا أيضاً في انتزاع قرار رسمي من بلاط المغول، يقضي بمنع المسلمين من إقامة الشعائر الدينية، ومنعهم من ذبح الحيوانات وفقاً لمقررات الشريعة الإسلامية، وقتل كل من يخالف ذلك ولا يمتثل للقانون(٣٩).

هدد صدور المرسوم المغولي الوجود الإسلامي في الصين، وقد استغلت الجماعات المعادية للمسلمين ذلك وتشبثوا به، وحصلوا كذلك، على مرسوم آخر يخولهم الحق الشرعي القانوني في إنزال عقوبة الموت على كل شخص يذبح ذبيحة المسلمين في منزله، وتسبب ذلك في خلق حالة من الفوضى والظلم الاجتماعي العام الذي أصاب المسلمين بشكل خاص، إذ راح هؤلاء يبتزون الأموال الطائلة من المسلمين، وصاروا يخدعون غلمان المسلمين بالقول:

"إنكم إذا وشيتم بمخدوميكم فسوف نحرركم".

فكانوا يبتغون خلاصهم بالافتراء على مخدوميهم ويلصقون بهم التهم جزافاً، وقد أدّى الأمر (بعيسى كلمجي والبندقي)، إلى حد أن المسلمين لم يستطيعوا ختان أبنائهم مدة أربع سنوات(٤٠)، وأوقعوا كذلك بمولانا برهان الدين البخاري واعظ وفقيه مدينة خان بالق (بكين)، وهو أحد تلاميذ الشيخ سيف الدين الباخرزي، إذ أقصوه إلى أحد النواحي النائية وقتلوه، مما أثار حفيظة المسلمين، ودفع بهم إلى الهجرة من مملكة المغول الصينية(٤١).

انعكست آثار هذه السياسة العدائية المناوئة للوجود الإسلامي في بلاد الصين سلباً على مصالح الطرفين، المسلمين من جهة، ودولة المغول من جهة ثانية، إذ قرّر المسلمون تحت ضغط ووطأة المضايقات الشديدة إلى الهجرة الجماعية من بلاد المغول، فمنهم من هاجر باتجاه الجزائر الهندية الجنوبية (كإندونيسية، وماليزية، والفليبين)، ومنهم من هاجر إلى تركستان الغربية، كما تعطلت التجارة الإسلامية، والتي كانت تتردد على الصين من بلاد ما وراء النهر وإيران وأفغانستان، مع دولة المغول، وبدأت مظاهر القطيعة بين المغول والمسلمين تأخذ شكلاً غاية في الخطورة أثّر على أمن واستقرار التجمعات الإسلامية من ناحية، وتقليص حجم الفوائد المالية من عوائد التجارة الإسلامية المغولية، التي كانت تساهم في زيادة دخل المغول من خلال المكوس والضرائب والأرباح، وقد عانى المسلمون والمغول معاناة كبيرة بسبب السياسة المتطرفة التي طفقت من جهة ثانية، تمارسها السلطة المغولية في الصين وقد أدركت الحكومة المغولية والمسلمون الخسارة الكبيرة التي مُنِيَ بها الطرفان، فمن جانبه، اكتشف "كوبلاي خان" بعد سبع سنوات من فرض قيود صارمة على المسلمين، أنهم خرجوا تباعاً من الصين إلى جزر الهند الجنوبية، وامتنعوا عن التجارة مع الصين، وتوجهت مراكبهم من جزر الهند الشرقية- الجنوبية إلى العراق ومصر، الأمر الذي أدّى إلى نقص واضح في واردات الدولة وهو ما اضطره إلى التراجع عن

قراراته واحداً تلو الآخر، وفي محاولة لاسترضائهم فإنه بنى لهم مسجداً في مدينة خان بالق (بكين) يتسع لمائة ألف مصل[٤٢].

ويلاحظ أن تراجع ملك المغول عن قراراته، جاء بسبب الخسارة المادية الكبيرة، التي تعرضت لها واردات الدولة، وبسبب إصرار المسلمين على إعادة العلاقات بينهم وبين ملك المغول إلى سابق عهدها من التسامح والاحترام المتبادلين، ونجد تأكيداً لدى المؤرخ (الهمذاني) على محاولات المسلمين الكثيرة لعودة العلاقات إلى طبيعتها الأولى، فأشار إلى أن جماعة من المسلمين، بعدما أدركوا خطورة هذه السياسة على مصالح أبناء ملّتهم، بادروا إلى وضع حد لهذا التدهور، وقد تألفت هذه الجماعة من أعيان المسلمين، كبهاء الدين قندوزي، وشادي زوجانك، والشيخ عمر القيرقيزي، وناصر الدين ملك، إذ تحركوا باتجاه تقديم خدمات مالية عظيمة إلى وزير البلاط المغولي (سكنه) ليتدخل من جانبه لدى الإمبراطور لوضع حدّ لهذه الأحوال الصعبة التي أحاطت بالمسلمين، وألجأتهم إلى الهجرات الجماعية، ونزولاً عند رغبتهم، عرض الوزير ذلك على الإمبراطور، قائلاً له: "إن جميع التجار المسلمين قد نزحوا من هنا، لم يعد يأتي التجار من بلاد المسلمين، وقد تضاءل الخراج، ولم يجلبوا النفائس والتحف، وذلك لأنه قد مضت سبع سنوات دون أن يذبح المسلمون غنماً فإذا صدر الفرمان بإباحة الذبح، فسوف يروح التجار ويغدون، ويحصل الخراج بأكمله، فصدر المرسوم بخصوص ذلك، وأباح للمسلمين الذبح[٤٣].

٢: ٥- مع إحساس "كوبلاي خان"، بحجم الخسارة المادية التي مُنِيت بها إمبراطوريته في بلاد الصين، بسبب التشدّد إزاء المسلمين، طفق، لاسيما في السنوات الأخيرة من حكمه، يعيد ثقته الأولى بالمسلمين، وبالأخص بأسرة السيد الأجل البخاري، حيث اختار من أحفاده (أبو بكر)، ولقبه ملك المغول بلقب (بايان فنجان)، وجعله زميلاً في الخدمة لأولجاي، ومنحه رتبة (الفنجانية) أي صاحب الديوان، ثم عينه وزيراً لبلاطه مدة عامين، ليحتفظ (أبو بكر) بمنصب الوزارة إلى أن مات

كوبلاي خان سنة ١٢٩٣م، وخلال تلك المدة التي أدار فيها أبو بكر ابن السيد الأجل البلاد إدارة ناجحة ومتطورة، هب الواشون داخل الدواوين يعملون بنشاط ضده، للحيلولة بينه وبين البقاء في هذا المنصب الهام، فأبلغوا الإمبراطور بوسائلهم المختلفة، إن الوزير قد بدّد ستمائة ألف كيس من النقد، ما دفع بالخان الأعظم إلى استجوابه، والتحقق من صحة ادعائهم، فقال أبو بكر: "لقد خففت هذا المال عن الرعية، إذ إن السماء لم تمطر ثلاثة أعوام، ولم ينتج محصول، فصار الرعايا فقراء، فإذا أمرني القاآن الآن، فسوف أبيع نساءهم وأطفالهم وأسلّم الأموال إلى الخزينة، لكن سوف تخرب الممالك، فأعجب كوبلاي خان برد الوزير وقال: "إن جميع النواب والأمراء يهتمون بأنفسهم فقط، على حين أن (بايان فنجان) يهتم بشؤون الملك والرعية"، وازدادت ثقة الخان الأعظم بوزيره وخلع عليه، وأحال إليه التصرف في كل شؤون الإمبراطورية[٤٤]. وبذلك تعزّز نفوذ أبي بكر ابن السيد الأجل، لاسيما في ظروف المرض التي كانت تسيطر على شخص كوبلاي خان، وما أعقب ذلك من انتشار للفوضى داخل دولة المغول في بلاد الصين، بين أبناء كوبلاي خان وأحفاده، وذلك على خلافة العرش، كما برزت شخصية نسائية هامة، وهي والدة تيمور خان حفيد كوبلاي، إذ سعت إلى تحقيق رغبتها الخاصة بإيصال ابنها تيمور إلى عرش الإمبراطورية، ولم يكن أمامها سوى التقرب والاتصال من أبي بكر صاحب الوزارة ، والمتصرف في شؤون الدولة. لعلمها بقوة العلاقة ورسوخها التي تربط الوزير بالإمبراطور، ونجحت في توثيق علاقتها به، حتى استدعته وقالت له: "بما أنك حظيت بمثل هذا العطف والرعاية، وعهد إليك القاآن (الخان) بالإشراف على شؤون الملك، اذهب واسأله (أي كوبلاي)، إن عرش (جيم كيم)، والد تيمور قد عطل تسع سنوات، فما حكمك في هذا الأمر[٤٥]، ويبدو أن الوعي الذي تمتع به أبو بكر قاده إلى إدراك الوضع السياسي القائم، بما يحيط به من

قلاقل واضطرابات، لذلك سعى إلى الإمساك بزمام الأمور وتحريكها الوجهة التي يشاء، وأقحم نفسه في أعظم الشؤون السياسية للدولة ألا وهو تعيين ولي العهد لذلك بادر بعرض مطالب والدة تيمور على كوبلاي، مبدياً اهتماماً منقطع النظير على مصلحة العرش والحكم المغولي في بلاد الصين، هذا العرض استنهض كوبلاي من فراش المرض، ودعا الأمراء لاجتماع طارئ، وقال لهم: "كنتم تدعون أن (سرتال)(٤٦)، رجل سيئ، على حين أنه عرض كلام الرعية شفقة بهم، وهو الآن يتحدث عن العرش والملك، ويهتم بشأن أولادي حتى لا يكون بينهم من بعدي خلاف ونزاع"، ثم ناداه باسم جده العظيم السيد الأجل، وقال له: اركب الآن وأعد من الطريق حفيدي تيمور الذي يزحف بجيشه... وأجلسه على عرش أبيه ليتولى القاآنية، وأقم المآدب والحفلات مدة ثلاثة أيام، وأقرر له الملك، بحيث يسير بعد ثلاثة أيام ويذهب إلى المعسكر، فذهب ابن السيد الأجل بموجب الفرمان، وأعاد تيمور قاآن من الطريق وأجلسه على عرش والده في مدينة (كيمين فو)، ثم عاد إلى حضرة كوبلاي في بكين(٤٧).

وباعتقادنا، أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يهبّ إمبراطور المغول وخانهم الأعظم هذه الثقة، وتلك الصلاحيات الواسعة لشخص مسلم كأبي بكر ابن السيد الأجل، إلا لأن الرجل يتمتع بقدرات فائقة في فنون الحكم، وخبرة كبيرة في أنظمة الدولة وسياسة الرعية، إلى جانب إخلاصه الواضح وولائه المتين لأسرة المغول القائمة على حكم الصين، التي احتضنته ورعته ليغدو ركناً من أركان الدولة وعماداً من أعمدتها، وقاعدة شورية في استقرار وتقدم البلاد ولا أعتقد أن إسلام أبي بكر كان من جملة اهتمامات كوبلاي خان، وإن أظهره، بمظهر المتسامح، بل حاجة الدولة وإدراة مؤسساتها وتنظيم مواردها المالية، والمحافظة على وحدة الأسرة المغولية هي الأسباب المباشرة التي دفعت بخان المغول الأعظم إلى التمسك بأبي بكر وبغيره من رجالات الإسلام، ويظهر ذلك بصورة جليّة من خلال المعتقدات الدينية، التي كان يؤمن بها

كوبلاي خان وأسرته، فقد كان بوذياً (وثنياً) وعلاقته مع المسلمين لم تتغير بمفاهيمه العقائدية شيئاً، إلا أنه بدا متسامحاً ومنفتحاً على الأديان، والإسلام واحد منها، ولذلك حرص أشدّ الحرص على سيادة المعتقدات البوذية واستقرارها كمعتقد رسمي للدولة، كما احتفظ بلاطه بالكهنة البوذيين من كافة البلدان، كان منهم كاهنان من منطقة التبت، حيث يقيمان في معبد الأصنام الخاص بالملك، ويسمى هذا المعبد بـ (داي ميو)، وقد تمتع هذان الكاهنان باحترام وتعظيم كوبلاي، أما بقية الكهنة فكانوا من بلاد الخطا والهند وكشمير، حيث كانوا بأعداد كبيرة، إلا أن كهنة التبت كانوا أكثر حضوة ونفوذاً داخل البلاط، وقد جعل كل هؤلاء الكهنة أتباعهم ملازمين لمولك وأمراء ونساء المغول(٤٨)، في الوقت الذي تمسكت الدولة بقواعد الياساق الذي وضعه جنكيزخان سنة ١٢٠٦م، والذي ظلّ مرجعاً للمغول في التشريع والإدارة(٤٩).

٣:١- يبرز الدور الأخطر والأهمّ لأبي بكر ابن السيد الأجل، بعد وفاة كوبلاي سنة ١٢٩٣م، إذ أصبح الرحى الذي دارت حوله مصائر إمبراطورية المغول الصينية، مبرهناً على أنه الأقوى داخل مؤسسة العرش المغولية، ونلمس ذلك من خلال ما قررته الملكة المغولية (كوكجين خاتون) والدة تيمور من اعتماد أبو بكر كأحد الوسائل الهامة في تقرير مصير الدولة وزعامتها السياسية، إذ دعته إلى إحضار تيمور ليتولى عرش المملكة، بعد فراغ سياسي أصاب الدولة مدة عام كامل، خضعت مؤسسات الدولة لحكم الملكة المذكورة(٥٠)، وعندما ظهرت ملامح الصراع على السلطة بين تيمور من جهة، وشقيقه الأكبر (كملاخان) من جهة ثانية، وذلك في الوقت الذي انعقد فيه مجلس الشورى الكبير عند المغول (القورلتاي)، تدخل أبو بكر بقوة، وببراعته ودهائه سارع أمراء وأعيان المغول إلى إجلاس تيمور علىّ العرش في مدينة (كيمين فو) سنة ١٢٩٤م، وبعد إقامة الاحتفالات، شرع الملك إلى ترتيب شؤون الجيش والمملكة، وعيّن الأمراء، واختار الوزراء وأصحاب الدواوين، وأقرّ أبا بكر في

منصب الوزارة، وحمل لقب (السيد الأجل)، وهو في نظر المغول من اشرف الألقاب وأسماها[٥١].

وبالإضافة إلى نفوذ شخصية أبي بكر ابن السيد الأجل، نجد أسماء عربية إسلامية حاضرة في بلاط المغول، تمارس نشاطاتها بقوة ونفوذ داخل مؤسسات الدولة، فنجد من هؤلاء المسلمين الذين تم تعيينهم بمرسوم إمبراطوري ، الشيخ عبد الله فنجان، وأمير خواجه، وقطب الدين سمجنك والشيخ مسعود لنجون، جميعهم تصرفوا في الشؤون والمهام الكبرى في الديوان الإمبراطوري، ولهم مساهمات جليلة في إدارة شؤون البلاد[٥٢]، وثمة فقيه كبير من المسلمين من سكان مدينة بخارى، يلّقب بلقب الشيخ رضا، كان عالماً في الكيمياء والطلاسم والنجوم ملازماً للملك تيمور، وتربطه به علاقة حميمة[٥٣].

٢:٣- على الرغم من الحضور الإسلامي داخل البلاط المغولي، ونفوذ بعض الشخصيات الإسلامية على محاور عديدة داخل الإمبراطورية، لاسيما أثرها في تطوير المؤسستين السياسية والإدارية، إلا أنه -برغم ذلك- لم يظهر أي انتشار صريح للإسلام وسط المغول ولا حتى وسط الشعب الصيني في عاصمة الدولة بكين، ولم تنجح الدعوة الإسلامية لتكون البديل العقائدي للديانة البوذية، التي ظلت مهيمنة على معتقدات أباطرة المغول وأمرائهم، وفي طليعتهم الملك تيمور، الذي ظل يمارس سلطاته الدستورية من مدينة خان باليق (بكين)، إلا أن المهام التي نهض لها رجالات الإسلام، حققت انتصاراً كبيراً خارج دائرة العاصمة (بكين)، وهو أحد المؤشرات التي تدعو إلى الإعجاب والتقدير، فقد أطلعنا مؤرخ البلاط المغولي على مسار ذلك التحول العقائدي وسط المغول تجاه الإسلام، وذلك في ولاية (تنل قوت) وهي الولاية التي منحها تيمور خان للأمير (آننده خان)، وهي أراضٍ واسعة وتعرف بوادي المغرب الصيني العظيم، الواقعة على الجانب الغربي لإقليم الخطا، وفي ذلك الإقليم أربع وعشرون مدينة كبيرة، وأكثر

أهلها من المسلمين[٥٤]، ويؤكد رشيد الدين الهمذاني الذي عاصر مملكة تيمــور، أن التحول العقائدي الذي أصاب هذه الولاية المغولية، ناتج عن مؤثرات العقيــدة الإسلامية على فكر الأمير المغولي (آننده)، الذي خضع في طفولتـــه إليــها، إذ جعله والده (مينكلقلان بن كوبلاي)، شقيق تيمور، في رعاية الفقيه الشيخ (مــهتر حسن الاقتاجي) أحد شيوخ الإسلام في تركستان، وعهد إليـــه تربيتــه، فتعلــم الأصول الدينية، ورسخت عقيدة الإسلام في فؤاده، وتعلم القرآن الكريم، وصـار يكتب الخط العربي بجودة فائقة، وقضى وقته في الطاعات والعبـادات وحينمـا تولى إمارة (تنك قوت)، حمل جيشه البالغ مائة وخمسين ألف جندي على اعتناق الإسلام، ودخل أكثرهم بدين المسلمين[٥٥].

أحدث تحول (آننده) إلى الإسلام، ثورة جديدة داخل الأسرة المغولية في بلاد الصيــن، وكانت سياسته الداعية إلى نشر الإسلام بين القبائل والجيش المغولي مثار شؤم لـــدى العديد من رجالات المغول، لتبدأ حالة من الصراع بيـــن الجـانبين، حتـى نشـطت المؤامرات تحاك ضده وضد سياسته، التي سعت إلى إيقاف هــذا الانتشـــار الســريع المفاجئ للإسلام في تلك الولاية، ووصولاً إلى تحقيق هذا الهدف، جــاء إلــى بــلاط تيمور خان أحد رعايا (آننده)، وشكا إليه حال المغول الذين انقلبوا عن البوذيــة إلــى الإسلام، وقال له: "إن (آننده) يلزم المسجد دائماً ويؤدي الصلاة والصيام ويعكف على قراءة القرآن وقد ختن أطفال المغول، وأدخل أغلب الجند في الإسلام"، فغضب تيمور خان وأرسل إليه وفداً كي يمنعوه من تأدية العبادات الإسلامية ويبعدوا عنه المسـلمين، ويحثونه على الرجوع إلى عبادة الأصنام والسجود لها وإحراق البخور في معابدهــا، وقد استنكر (آننده) ذلك من الخان الأعظم، ولم يعطِ اهتماماً للرسل، وقـال لــهم: "إن الصنم من صنع الإنسان، فكيف أسجد له؟ وإذا كان لا يحل لي أن أسجد للشمس التـي هي من صنع الله العظيم، والتي هي روح العالم المادي، وسبب الحياة والنماء للحيوان والنبات، فكيف أسجد لصورة مجسمة صنعها الإنسان؟ إني أســجد لموجــود خلقنــي

وخلق الخان الأعظم"[٥٦]. وكان لتشدده تجاه الإسلام أن دفع بالخان الأعظم إلى إصدار مرسوم باعتقاله وإيداعه السجن، وذلك للحيلولة بينه وبين تغليب الطبائع الإسلامية على قبائل المغول، للحد من اتساع دائرة انتشار العقيدة الإسلامية في تلك الولاية، واعتقل (آننده) ولم يمنعه هذا الاعتقال من ممارسة العبادات الإسلامية، ولم يحل بينه وبين التأكيد على هويته الجديدة، وقد صرّح داخل السجن: "إن آباءنا جميعاً كانوا موحدين، ويعتقدون بوحدانية الله ويعبدونه، فلا جرم أن من الله الأزلي عليهم بملك الأرض كلها ببركة ذلك الاعتقاد الراسخ وجعلهم رؤساء وملوكاً للعالمين، حتى صاروا مرفوعي الرأس فخورين ولم يسجدوا للأصنام قط[٥٧].

وبذلك، بدأ إصرار واضح من قبل (آننده) على التمسك برؤاه الدينية الجديدة، ولم تهن التهديدات من عزيمته، كل ذلك، زاد من عداوة الخان الأعظم له، ولا نشك بدور البعثات التبشيرية الأوروبية التحريضية ضد هيمنة الإسلام على ولاية (آننده)، فالعناد الذي أبداه تيمور خان كان وراؤه من يحركه ويغذيه، بينما احتج (آننده) أنه اقتدى بالملك محمود غازان حاكم إيران والعراق، الذي اسلم وأسلمت معه المغول[٥٨]، ونقف أيضاً على ظاهرة مثيرة، وهي أن المسار السياسي والعقائدي لدولة المغول في بلاد الصين، تأثرت بالمتغيرات والمؤثرات السياسية والعقائدية، التي تعرضت لها إيلخانية العراق وإيران، هذه التحولات التي تعرضت لها مملكة المغول في إيران والعراق، انعكست بشكل مباشر على مسار الدولة المغولية في الصين، سواء أكان هذا التحول تجاه المسيحية أو تجاه الإسلام، ولاحظنا ذلك سابقاً عندما انحاز أبغاخان بن هولاكو انحيازاً كاملاً لأوروبة المسيحية ضد البلاد الإسلامية ودعاة المسلمين، حيث ألّب زعماء المغول أكثر من مرة ضد مصالح المسلمين الدعوية والتجارية، ثم نجد إسلام الدولة المغولية في عهد محمود غازان، قد أصاب بتأثيره القبائل المغولية في الصين، وإسلام محمود غازان حول مسار الدولة (في إيران والعراق) وفقاً للقوانين والتشريعات الإسلامية وذلك ما بين عام ١٢٩٥-١٣٠٤م[٥٩].

ويعيد هنا، رشيد الدين الهمذاني، الذي عاصر هذه الأحداث، تأكيده على تنامي عظمة الإسلام في ولاية (تنك فوت)، في انتشاره السريع بين المغول، وتوقع الهمذاني، ازدهاراً مطرداً للإسلام في تلك الولاية، وأشار إلى أن الإسلام فيها سيصل إلى حد الكمال، إذ إن الناس هناك يدخلون في دين الله أفواجاً، وهو الأمر الذي سيوصلهم إلى الوحدانية والإسلام الحنيف(٦٠).

٢:٣- حققت الدعوة الإسلامية نجاحاً كبيراً وانتشاراً واسعاً وسط المغول في ولاية الأمير (آننده)، وسيطرت على معتقدات شعوب هذه الولاية سيطرة كاملة لن يستطع الخان المغولي الأعظم، رغم محاولاته المتكررة، من وقف نشاطها ومؤثراتها، مما اضطر الحكومة المركزية في بكين إلى التعامل مع ظاهرة انتشار الإسلام كأمر واقع، لاسيما بعدما أعلن الأمير المغولي (آننده) في مؤتمر الشورى الكبير (القورلتاي) عن نيته في توسيع دائرة النشاط الإسلامي، حتى انتزع اعترافا رسمياً من الخان الأعظم بديانة الإسلام، وإعلانه مناصرة الدولة وتأييدها لتوجيهات (آننده)، كونه اقتفى أثر غازان في اعتناقه للإسلام(٦١)، وبدافع الحرص على نشر الإسلام، فقد أشاد (آننده) المساجد الكثيرة في معظم المعسكرات التابعة لولايته وكذلك المدن والقرى، وأشغل نفسه في العبادة وقراءة القرآن(٦٢)، بالإضافة إلى أنه أصبغ هالة من التعظيم على أولاد وأحفاد الشيخ (مهتر حسن الاقتاجي)، الذي كان له الفضل في تحويل مسار هذه الولاية العقائدي باتجاه الإسلام، وتمتع أولاده، هندو ووحيد، وجمال آغا، ومحمد الاقتاجي باحترام كبير، واصبح بعضهم من المقربين لدى الخان الأعظم تيمور، واستمروا يبذلون أقصى الجهود في تقوية الإسلام في بلاد الصين(٦٣).

على الرغم من موقف تيمور خان المؤيد للإسلام في بلاده، واعترافه رسمياً به كدين ينبغي احترام وتقدير اتباعه أينما كانوا، إلا أن معتقده ظل ضمن دائرة الديانة البوذية، حريصاً على تثبيت قواعده وإعلاء شأنه، فشيّد من أجل ذلك معابد الأصنام في سائر

البلاد، وخص الكاهن التبتي بمنزلة رفيعة، وجعله مرجعاً له فيما يتعلق بشؤون الديانة البوذية، كما بدا منه انهماكاً في العبادة داخل تلك المعابد وأحياناً كـــان ينقطـــع أيامـــاً طويلة في عبادة الأصنام(٦٤).

٤:١- استمرت سياسة أباطرة المغول تجاه الإسلام متسامحة متصالحة، حتى بعد وفاة الخان الأعظم تيمور سنة ١٣٠٧م، هذه السياسة التي منحت حق الوجود الإسلامي في المنطقة، وحرية -ولو نسبياً- نشر الدعوة الإسلامية، وذلك في عصر كولـــوك خان، ١٣٠٧-١٣١١م، وعهد "توغان تيمور"، ١٣٣٢-١٣٧٠م، الذي زار مملكته الرحالة الشهير ابن بطوطة بحدود سنة ٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م، حيث مكث الرحالـــة العربي ما يقرب من سبع سنوات، يطوف في أرجاء إمبراطورية المغول حتى عام ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م، وقد خصّ في رحلته موضوعات كثيرة متنوعة حـــول واقـــع الإسلام والمسلمين في بلاد الصين، وبذلك كشف للباحثين عن حقائق تاريخية ذات أهمية تاريخية كبيرة.

ثم نجد حوالي سنة ١٣٠٩م، اهتماماً مغولياً بالتجمعات الإسلامية، ففي نفـــس العـــام أصدر إمبراطور المغول "كولوك خان" (١٣٠٧-١٣١١م)، أمراً باتخاذ ما يجب لرفـــع شأن مدرسة الهوى - هوى (أي المسلمين)، التي تراجعت عن تأديـــة مهامـــها فـــي السابق، وكذلك اتخذ وزيراً من المسلمين كان يعرف باسم (جاهان) من مواليد مدينـــة بلخ، حيث كان من أعلم أهل زمانه، وقد كتب موجزاً بالمغولية للحوليات الصينية(٦٥)، ويقرر الأب جوبيل (Goubil)، أن المسلمين كانوا دائماً على أعظم جانب من القوة في قصر أمراء المغول، وكان لهم كتائب وقواد من جنسهم، كما كان منـــهم الموظفـــون الكبار في جميع الفروع، ولاسيما في الرياضيات، وأساتذة عظـــام ووزراء(٦٦)، كمـــا نلاحظ في عصر "توغاتيمور" (١٣٣٢-١٣٧٠م) بروز شـــخصية إســـلامية هامـــة ومتنفذة، ويبدو أنها امتلكت ناصية القرار في إمبراطورية المغول الصينية فـــي هـــذه المرحلة، هذه الشخصية هي السيد باين جاسر الدين، الذي تولـــى منصـــب رئاســـة

الوزراء من سنة ١٣٣٠-١٣٤٠م، مبدياً كفاءة عالية، كذلك نجد أن الأعيان المسلمين المسجلة أسماؤهم في سجل طبقة الأعيان الملكي كانوا يزيدون عن المائة نفر، وكان والد السيد باين، أحد هؤلاء الأعيان، وعيّن والياً على ولاية (يونان)، وحفر في عاصمتها قنوات كثيرة، مازلت باقية إلى الآن[٦٧].

٤:٢- لقد كان مسار الدولة المغولي من عام ١٢٢٧م، وحتى عام ١٣٧٠م، ورغم ما أحاط به من متغيرات سياسية وبعض الغموض، بالإضافة إلى حالة المدّ والجزر، التي أصابت الدعوة الإسلامية، إلا أن ذلك لم يمنع من أن تكون هذه الفترة هي بدايات تأثير جديد للعرب والمسلمين على شعوب الصين والمغول في آن معاً، لأن شروط ذلك التأثير توفرت في عدة عوامل، منها: حالة التسامح التي حرص زعماء المغول على التمسك بها إزاء الأديان، ومنها حرص المسلمين على إثبات هويتهم من خلال الوصول إلى السلطة والسيطرة على مناهج التدريس والتعليم، وبناء المساجد والمدارس، وهذا ما أشار إليه الرحالة الأجانب، والرحالة العربي ابن بطوطة، فقد زار الرحالة المغربي مدن صينية -مغولية عديدة، وأماط اللثام عن حضور إسلامي واسع فيها، فقد زار مدينة الزيتونة (شوان شوفو Shuan – Shu-Fou)[٦٨]، ومدينة الخنساء (هانك شو Hank-Shou)[٦٩]، ومدينة خان باليق (بكين) ومدينة صين كلان وهي عاصمة إقليم كورية[٧٠]. ومدينة قنتجنفو (كيان تشانج فو Kianchang Fou)[٧١]، والجانب الأهم الذي أعطانا ابن بطوطة صورة مضيئة عنه، هو أحوال الدعوة الإسلامية والتجمعات الإسلامية وطرق معيشة المسلمين الخاصة، ونظمهم الاجتماعية والتنظيمات السكانية، على أن الواقع الذي فرض على المسلمين في بلاد الصين، وبحكم أنهم أقلية سكانية، دفع بهم تخوفهم من الانصهار والضياع وسط المجتمعات الصينية الضخمة إلى اتخاذ أسلوب خاص بهم يميزهم عن غيرهم من سكان الصين، بدعوى المحافظة على معتقداتهم وثقافتهم المتصلة بالعرب والمسلمين، فاتخذوا مناطق سكنية منفصلة عن بقية التجمعات المغولي والصينية،

وساق ابن بطوطة أمثلة كثيرة لتأكيد ذلك، وقال عن المسلمين في مدينة (شوان فو): إنهم ساكنون في مدينة على حدة(٧٢)، وفي مدينة (هانك شو)، يسكن المسلمون في المدينة الثالثة، إذ إن المدينة تنقسم إلى ست مدن، في الوقت الذي كانت مدينة المسلمين حسنة جميلة(٧٣)، وكذلك الحال في مدينة (بكين)، على أن ابن بطوطة يقدّم لنا صورة أوضح حول تجمع المسلمين وسكناهم في مدينة (كيان تشانج فو) إذ يقول: "كان للمدينة أربعة أسوار، يسكن ما بين الأول والثاني عبيد السلطان من حراس المدينة.. ويسكن ما بين الثاني والثالث الجنود والأمير الحاكم على البلد... ويسكن داخل السور الثالث المسلمون.. ويسكن داخل السور الرابع الصينيون...ومقدار ما بين كل باب منها والذي يليه ثلاثة أميال أو أربعة... ولكل إنسان بستانه وداره وأرضه"(٧٤).

كما بيّن بشكل يدعو إلى الإعجاب، التنظيمات الدينية والاجتماعية الدقيقة، التي جعلها المسلمون منهجاً لحياتهم، مؤكداً على أن لكل مدينة أو حي أو تجمع خاص بالمسلمين يكون شيخاً للإسلام، وقاضياً وزعيماً، وذلك للحفاظ على تماسك وحدتهم الاجتماعية والدينية، محاولة منهم للعيش وفقاً لمقتضيات التشريع الإسلامي لكل جوانب الحياة، من تطبيق للشعائر الدينية، وتنفيذاً للأحكام وتدريس العلوم القرآنية والأحاديث النبوية، وقد أنيط بشيخ الإسلام جميع أمور وأحوال المسلمين، ليصبح المرجع في كل ما يتعلق بمصالح المسلمين وعلاقاتهم مع الآخرين(٧٥)، فأشار إلى أسماء أولئك المسلمين القائمين على خدمة الإسلام والمجتمع الإسلامي، ففي مدينة (شان شوفو)، تولي قضاء المسلمين الشيخ تاج الدين الأردبيلي، وتولي مشيخة الإسلام، الشيخ كمال الدين عبد الله الأصفهاني(٧٦)، أما في مدينة (هانك شو)، فكان قاضيها الشيخ فخر الدين، ولم يذكر اسم شيخ الإسلام فيها، أما شيخ الإسلام في مدينة (بكين)، فكان الشيخ برهان الدين الصاغرجي(٧٧).

ومن المظاهر التنظيمية التي مارسها المسلمون حفظاً لمعتقداتهم وثقافتهم، اهتمامهم ببناء المساجد والزوايا العلمية والمدارس، والأسواق التجارية الخاصة بهم، حيث انتشرت في معظم المدن الصينية، التي يتواجد فيها المسلمون، على أن أشهر وأكبر المساجد ما بناه المسلمون في مدينة (بكين)، بأمر من الإمبراطور المغولي كوبلاي خان، قيل إنه كان يتسع لمائة ألف مصل(٧٨)، وكذلك المسجد الجامع الكبير، الذي بناه الشيخ عثمان المصري في مدينة (هانك شو)، ووقف على المسجد أوقافاً كبيرة، وأن عدد المسلمين في هذه المدينة كبير جداً(٧٩)، وتؤكد المصادر أن مدينة (هانك شو) كان فيها ثلاثة مساجد كبيرة، بحيث تمتلئ يوم الجمعة بالمصلين المسلمين، وذلك إشارة إلى كثافة المسلمين هناك، إذ بلغ تعدادهم أربعة (طومانات) أي أربعون ألفاً(٨٠)، كما حرص المسلمون أشد الحرص على بناء المدارس والزوايا العلمية، للحفاظ على تواصل المسلمين بمعتقداتهم وتراثهم الديني، وأدامة ارتباطهم الروحي والنفسي بالعالم الإسلامي من خلال تخريج وإعداد العلماء والفقهاء والقضاة والقراء ومشايخ الإسلام، وتشير المصادر إلى أن أول مدرسة أقيمت للمسلمين وبإشراف المغول، هي المدرسة التي أمرت ببنائها الملكة المغولية (سيور بيكي)، في مدينة بخارى(٨١)، ومدرسة أخرى أمر ببنائها الإمبراطور (كوبلاي خان) أثناء وزارة السيد الأجل البخاري، في مدينة (تاي تو Tai-Tou)، لتعليم العلوم والفنون، وجعل الإشراف عليها للمسلمين، الذين اشتهروا في تلك الأيام بـ (هوى هو Hoey-hou)(٨٢)، وكان للمسلمين سكان مدينة (هانك شو)، زاوية شهيرة تعرف بالزاوية العثمانية، حسنة العمارة وأوقافها كثيرة، والقائمون على خدمتها كثيرون(٨٣)، كما أشار ابن بطوطة أثناء زيارته لمدينة (صين كلان) -الواقعة في كورية حالياً إلى وجود بعض الزوايا المخصصة للمسلمين، وينهض على خدمتها المشايخ والقضاة والتجار، وكان للشيخ برهان الدين الكازروني، زاوية خاصة خارج مدينة (شوان شوفو)(٨٤)، أما الأسواق الخاصة بالمسلمين، فكانت منتشرة في معظم المدن الصينية.

٣:٤- في الوقت الذي استعصت فيه الصين على الفاتحين العرب المسلمين، فقد أفلح المسلمون، الذين أسروا من بلاد ما وراء النهر وخراسان والعراق والشام في النفاذ إلى الصين من خلال جدارهم الحصين، الذي تم اجتيازه بمعية المغول، وطفقوا يؤثرون فيها، وإن كانت تلك المؤثرات بطيئة، إلا أنها فعلت فعلتها في جعلها الإسلام، عقيدة وثقافة هو الديانة الثانية في بلاد الصين، أضف إلى ذلك، أن المسلمين هم السبب وراء نقل تطور العلوم والثقافة العربية الإسلامية إليها، وهذا الجهد كان وراءه رجال عظماء، منهم من ظهر في ثنايا هذه الدراسة، وأكثرهم ظلوا جنوداً مجهولين، أولئك: الدعاة الذين عملوا على نشر الإسلام بكل حنكة ودهاء واجتراز، ودون إثارة وتأليب السلطة المغولية ضدهم، واستكمالاً للفائدة فإننا نجد أهمية كبيرة في ذكر أسماء هؤلاء العظام، كشيخ الإسلام سيف الدين الباخرزي، والوزير محمود يلواج وولده مسعود بيك، والوزير عمر الدين البخاري الشهير بالسيد الأجل، وولده أبو بكر، والأمير الوزير أحمد الفناكتي، والشيخ بهاء الدين البهائي، ومولانا حميد الدين السمرقندي، ومولانا برهان الدين البخاري، والشيخ بهاء الدين قندوزي، والشيخ شادي زوجانك، والشيخ عمر القيرقيزي، والشيخ ناصر الدين الكاشغري، والشيخ عبد الله فنجان، والشيخ أمير خواجة، والشيخ قطب الدين سمجنك، والشيخ مسعود لنجون، والعلاّمة الشيخ رضا البخاري، والعلاّمة الشيخ مهتر حسن الاقتاجي، وأبناؤه، الشيخ هندو، ودولتشاه وحيد، وجمال آغا، ومحمد الاقتاجي، وقاضي المسلمين تاج الدين الأردويلي، وشيخ الإسلام كمال الدين عبد الله الأصفهاني، والشيخ برهان الدين الكازروي، والأعيان السيد جاسر الدين، وولده الوزير باين، وأولاد عثمان المصري، والعلاّمة الشيخ علاء الدين بن حسام الدين المالكي، والشيخ حسن دوجاق.

الخاتمة:

عندما نقف أمام الكوارث المتتالية، التي حلت بالدولة الخوارزمية ١٢١٨-١٢٢٤م، ودولة الخلافة العباسية ١٢٥٨م، وممالك الأيوبيين في بلاد الشام ١٢٦٠م، يقع في أيدينا حال المسلمين وتدهور أوضاعهم وانهيار معنوياتهم وفقدانهم السيطرة والتوازن، حتى أصبح بحكم المؤكد أنهم أبيدوا عن بكرتهم، واستتصلت معتقداتهم وأفكارهم وثقافتهم الدينية، والحقيقة هي عكس ذلك تماماً، إذ إن المسلمين حثّوا الخطى بطرق وأساليب مختلفة للحفاظ على الإسلام ومعتقداته وأفكاره، حتى وهم يعيشون في كنف الحكم المغولي، ورجال الإسلام بذلوا جهداً عظيماً في إيصال معتقداتهم وثقافتهم إلى إمبراطورية الصين المغولية، وجهدهم يعدّ ظاهرة تثير الغرابة والإعجاب الكبيرين، لذلك، وبعدما استعرضنا مسيرة الإسلام ومؤثراته المباشرة وغير المباشرة على مجتمع المغول والصينيين، نصل إلى المحصلات التالية:

أولاً: شكّلت حالة الأسر التي تعرض لها المسلمون كالعلماء والفقهاء والمهنيين والحرفيين في أواسط آسية وإيران والعراق على يد المغول، واقعاً جديداً ومضطرباً بالنسبة للمسلمين، إذ إن حالة النفي القسرية التي تسببت في إخلاء المدن الإسلامية، وتحطيم التجمعات السكانية، كالقبائل والأسر، أدّت إلى خلق حياة مليئة بالمتناقضات بحكم وجودهم في بلاد الصين الغريبة وتحت الحكم الغلاظ الشداد، وعلى الرغم من الصعوبات الكثيرة التي واجهت المسلمين، إلا أنهم نجحوا في استغلال وجودهم في بلاد الصين، ليعلموا على نشر الإسلام وتطوير المجتمعات الصينية من خلال نقل المعارف العربية الإسلامية إلى الصين وكورية واليابان، وإن كانت الأندلس وصقلية والحروب الصليبية المعابر، التي عبرت من خلالها مؤثرات الحضارة العربية الإسلامية إلى شعوب أوروبة، فإن المغول و المسلمين هم الجسور التي عبرت من خلالهم مؤثرات العرب المسلمين إلى الصين واليابان وكورية.

ثانياً: الكفاءة العالية والموهبة، والخبرة العملية والنظرية، وسعة العلم والمعرفة، كانت السمات البارزة لدى رجالات الإسلام في بلاط المغول، هي أيضاً التي استهوت عقول أباطرة المغول للاحتفاظ بالمسلمين داخل البلاط وإيصالهم إلى أعلى المناصب السياسية، بدعوى تطوير مؤسسات الدولة السياسية والإدارية والمالية، التي نجح علماء المسلمين فعلياً في النهوض بالدولة المغولية وجعلها أكثر تحضراً وتمدناً وتطوراً، وكان لتلك السمات، التي لازمت المسلمين، أن اضطر أباطرة المغول في بلاد الصين إلى تحقيق سياسة التسامح الديني تجاه المسلمين.

ثالثاً: بدا كذلك تنافس شديد بين المسلمين من جهة، والمسيحيين من جهة ثانية، على استقطاب الجنس المغولي كل إلى دينه ومعتقده، هذا التنافس أوقع سياسة الدولة المغولية في حالة التأرجح وعدم الاستقرار على سياسة واضحة وثابتة، وقد تأثرت دولة المغول في الصين تأثراً مباشراً بتحولات مسار إيلخانية المغول في العراق وإيران، ففي الوقت الذي اعتلى فيه أبغاخان بن هولاكو عرش الايلخانية كشف عن عداوة سافرة ضد المسلمين، ليس فقط المسلمون في إيران والعراق، بل والمسلمون داخل إمبراطورية الصين، وراح يتحالف مع الأوروبيين الصليبيين ضد العالم الإسلامي، وهي الفترة التي شهدت بعثات تبشيرية كبيرة جداً وصلت إلى بلاط المغول في الصين، وعلى رأسها ماركوبولو، وروبريكو وكاربيني، الذين جدوا الخطى إلى تحقيق أهدافهم الرامية إلى إحداث قطيعة بين المغول والمسلمين، ومن ناحية أخرى، تأثر مسار الدولة أيضاً، عندما تولى محمود غزان عرش إيران والعراق وكان هذا التأثير لصالح المسلمين، إذ نشطت الدعوة الإسلامية في الصين وحققت انتصاراً كبيراً حينما انتشرت وبسرعة وسط القبائل المغولية.

رابعاً: أوضحت هذه الدراسة عن همة المسلمين العالية ومعنوياتهم التي لا تعرف الكلل والملل، ولا الريبة والخوف، فقد كان رجالات الإسلام بكثافة عددية كبيرة،

لم نصل إلا لمعرفة ما تمكنا الوصول إليه من خلال المصادر المتوفرة لدينا، فكان من أبرزهم الأعلام العظام السيد الأجل البخاري، وأولاده، والأمير أحمد الفناكتي، والعلاّمة الشيخ مهتر حسن الاقتاجي وأولاده، وغيرهم.

خامساً: وأخيراً، وقفنا على تطور كبير في المجتمعات الإسلامية في بلاد الصين، من خلال تطبيق تنظيمات خاصة بالمسلمين في معظم المدن الصينية، والتي جاءت على شكل محكم، شيخ الإسلام، وقاضي للمدينة، وزعيم لتجار المسلمين، وهي تنظيمات تعكس حرص المسلمين على الوحدة والترابط، وبالتالي المحافظة على العقيدة والتراث الإسلامي في بلاد مأهولة بالسكان البوذيين وغيرهم، وحتى لا ينصهر المسلمون ويندمجوا ويذوبوا في هذا الوسط الكبير، طبقوا مثل هذه التنظيمات الخاصة ونجحوا فعلياً في الحفاظ على مجتمعاتهم ومعتقداتهم وثقافتهم، وشكّلت عامل قوة لهم مما فرض على دولة المغول احترامهم والتسامح إزاءهم بل واتخاذ عناصر سياسية هامة منهم.

الهوامش

١) البلاذري، أبو العباس أحمد بن عيسى بن جابر، **فتوح البلدان**، طبع ليدن ١٨٧٠م، ص ٤١٨، ابن أعثم الكوفي، الفتوح، **دائرة المعارف العثمانية**، حيدر آباد الدكن، الهند.

٢) محمد بن أحمد النسوي، **سيرة السلطان جلال الدين منكوبرتي** (طبعة باريس فرنسة، ١٨٩١م)، ص ٥١، ٥٢، ٥٣.

٣) Bertold, Supluer, The mongols in history 1st ed. (London 1972), P. 11, Encyclopedea of Islam, Vol. II, P.42.

٤) للمزيد حول سقوط مدن الدولة الخوارزمية، راجع النسوي **سيرة السلطان جلال الدين**، ص ٥١،٥٢،٥٣،٧٩،٨٠،٨١،٩٠،٩١،٩٣.

٥) رشيد الدين الهمذاني، جامع التواريخ، تاريخ خلفاء جنكيز خان من أوكتاي قاآن إلى تيمور قاآن، نقله إلى العربية د. فؤاد عبد المعطي العباد، ويحيى الخشاب، (بيروت، ١٩٨٣)، ص ١٦٠-١٦١، النسوي، المصدر السابق، ص ٥٤.

٦) رشيد الدين، المصدر السابق، ص ٢٠٣-٢٠٤.
Ischboldin, Essay on Tatar history, 1st. ed. (New Delhi, 1963), p29.

ثمة أسباب في رفض زعماء المغول ولاية كيوك خان عرض الإمبراطورية المغولية في بلاد الصين ومنغوليا، من ذلك، ما كان يطمع إليه أبناء تولي خان كـ "منكوخان" من الوصول إلى العرش، كونه من أولاد أكبر أبناء جنكيز خان، ومن ذلك أيضاً، أن أسرة تولي رفضت قبول زعامة "كيوك" لأسباب دينية وثقافية فقد كان باتو مثله مثل جنكيز خان، ينظر نظرة استخفاف ولا مبالاة إلى جميع الأديان السماوية وشبه

السماوية في الأقاليم المغولية، وبقيت أسرة "باتو" مخلصة للديانة الشامانية التي كانت تؤمن بإله واحد، لكنهم اعتبروا الشمس والقمر والحياة كائنات عليا قدموا لها الصلوات والأضحيات، بينما كان كيوك ينتمي إلى جيل متأثر بالديانة المسيحية وعلى المذهب النسطوري، وحتى ولو لم يكن هو نسطورياً بشخصيه، إلا أنه كان يظهر محاباة عظيمة للمسيحيين مدى حياته، كما كان يعتقد أن البابا والملك لويس التاسع ملك فرنسة كان يتوقا لوضع نفسيهما تحت حمايته وسلطته، ويظهر هذا الاعتقاد بوضوح في الجواب الذي سلمه كيوك إلى بعثة البابا بزعامة المبشر المسيحي "جيوفاني دي بلانو كاربيني"، وهي الرسالة التي لا زالت محفوظة في أرشيف الفاتيكان، برتولد شبولر، العالم الإسلامي في العصر المغولي، نقله إلى العربية، الأستاذ خالد أسعد عيسى، وقدم له د. سهيل زكار، ص ٤٠-٤١، (دمشق، ١٩٨٢م).

٧) Arnold; T: THe Preaching of Islam, (lahore, 1979), P. *335* Bertold, S; op-cit. p23.

china and world cultural Exchange, No. 3, 1996, AN Article of: History and culture of the mongols, By, Fu Ning, pp. 42-43.

٨) رشيد الدين، **المصدر السابق**، ص ١٩٧-١٩٨.

٩) **نفس المصدر**، ص ١٩٨.

١٠) بارتولد شبولر، العالم الإسلامي في العصر المغولي، نقله إلى العربية الأستاذ خالد أسعد عيسى، راجعه: د. سهيل زكار، (دمشق، ١٩٨٢م)، ص ٤٣.

Ischboldin, op-cit, p. 29

١١) رشيد الدين، **المصدر السابق**، ص ٢١٦-٢١٧.

١٢) رشيد الدين، **المصدر السابق**، ص ٢١٨.

١٣) Erskine, Ahistory of India under Baber and Humyan, II vols. (Karachi, london, Delhi, 1974) vol. I, P. 534.Runciman, s. Ahistory of the

crusades, The Kingdom of Acre, (Cambridge University press, 1954) vol. III, pp. 294-297.

د. جوزيف نسيم، العدوان الصليبي على بلاد الشام، (دار الكتب الجامعيــة، ١٩٦٩م)، ص ٢٨٦-٢٨٨.

عندما نطالع كتب الأوروبيين حول التنافس الديني المحتدم بين الإسلام والمسيحية على كسب المغول كل معتقدة، نلاحظ تعمداً مقصوداً في تغييب المؤثرات الإسلامية (عقيـدة وثقافة وفكراً) عن الساحة الصينية أيام الحكم المغولي، بينما يكثفون تفسيرهم للأحداث وفقاً للمكتسبات النصرانية (المذهب النسطوري) لدى بلاط المغول، ويركزون علــــى السفارات والبعثات التبشيرية كرموز مؤثرة غاية التأثير على ثقافة ومعتقدات المغــول والصينيين، بالإضافة إلى أنهم المسبب الرئيس في الاتصال الحضاري ما بين شــرقي آسية مع بلدان أوروبة الغربية، مـــن هــؤلاء المبشــرين: "ولــهم فــون روبــروك الفرنسيسكاني، والمبشر جيفاني دي بلانو كاربيني، والمبشر ماركو بولو" وغـــيرهم. وأهم المؤرخين الأوروبيين الذين غيبوا -عن عمد- مؤثرات الإسلام في تلك البـــلاد، بارتولد شبولر.

١٤) رشيد الدين، **المصدر السابق**، ص ٢٠٩-٢١٠.

١٥) **نفس المصدر**، ص ٢١٥.

١٦) **نفس المصدر**، ص ٢١٩.

١٧) Sanuders. J. J, The History of the mongol conquest, (1st. ed. London, 1971), p. 120.

١٨) رشيد الدين، **المصدر السابق**، ص ١٩٦،٢٣٦،٢٦١،٢٦٢،٢٦٣.

١٩) القلقشندي، أحمد بن علي القاهري، **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، (القاهرة، ١٩٢٢م)، ج٤، ص ٤٨٦.

٢٠) رشيد الدين، **المصدر السابق**، ص ٢٨٣.

٢١) فهمي، هويدي، **الإسلام في الصيـن**، (منشـورات عـالم المعرفـة، الكويـت، ١٩٨١م)، ص ٦٧.

٢٢) رشيد الدين، **المصدر السابق**، ص ٢٨٤.

٢٣) فهمي، هويدي، **المصدر السابق**، ٦٧.

٢٤) لوثروب ستودرد، **حاضر العالم الإسلامي**، تعريب عجاج نويهض، وفيه فصـول وحواش وتعليقات بقلم أمير البيان شكيب أرسلان، (بيروت، ١٩٧٢م)، ج٢، ص ٢٣٢، ٢٣٣.

٢٥) عباس إقبال، **تاريخ مفصل إيران**، ج١، ص ١٦٤، نقلاً عن د. فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ (الجزء الأول، بيروت، ١٩٨٠م)، ص ٢٢٢.

٢٦) مقدمة كاترمير، على **كتاب جامع التواريخ**، ط، ص ١٢٣.

٢٧) مقدمة كاترمير، ج١، ص١٢١، (**تاريخ الصين**، ج٩، ص ٣١٥، ٢١٢، ٤١٢).

٢٨) **حاضر العالم الإسلامي**، ج٢، ص ٢٣٣.

٢٩) رشيد الدين، **المصدر السابق**، ص ٢٨٤.

٣٠) **نفس المصدر**، ص ٢٨٨.

٣١) **نفس المصدر**، ص ٢١٦-٢١٧ و ٣٢.

٣٢) Bertold's, op-cit. p. 34.

٣٣) Arnold, T, op-cit. p. 232, Sannders, op. cit,p. 130

٣٤) رشيد الدين، **المصدر السابق**، ص ٢٩٠.

٣٥) رشيد الدين، ص ٢٩١.

٣٦) فؤاد الصياد، **المرجع السابق**، ص ٢٢٥.

٣٧) **رحلة ماركوبولو**، ص ١٨٠-١٨١، فؤاد الصيـاد، ص ٢٢٥-٢٢٦. د. فـايد حماد، **الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغـول فـي العصـر المملوكـي**، (طرابلس، ١٩٩٥م)، ص ٨٩-٩٠.

٣٨) رشيد الدين، **المصدر السابق**، ص ٢٨٩.

٣٩) ذكر رشيد الدين الهمذاني، إن جماعة من التجار المسلمين قدموا إلى بلاط الخان الأعظم وأهدوا له صقراً أبيض القدم، أحمر المنقار، وعُقاباً أبيض، فشملَ الخان بعطفه ورعايته، وقدم لهم طعاماً من مائدته، لكنهم لم يأكلوه فسألهم لماذا لم تكلوا؟ فأجابوا: إن هذا الطعام يعتبر ميتة في شريعتنا، فغضب الخان كوبلاي، وأمر بألا يذبح المسلمون وأهل الكتاب الأغنام منذ هذه اللحظة، وإنما يشقون بطونها وأكتافها جرياً على عادة المغول، وكل من يذبح غنماً يذبح مثلها، وتتصرف الدولة في نسائه وأولاده وأمواله، (جامع التواريخ، ص ٢٨٩).

٤٠) AL-Juzjani, Tabqat-i-Nasiri, translated into English by major everty, II, Vols.(New Delhi,, 1970),Vol. II, P. *185;* Arnold, T, op-cit, PP-227-228.

٤١) رشيد الدين، **المصدر السابق**، ص ٢٨٩.

٤٢) بدر الدين حي، **العلاقات بين العرب والصين**، ص١٨٢. د. فيصل السامر، **الأصول التاريخية للحضارة العربية في الشرق الأقصى**، (بغداد، ١٩٨٦)، ص ١٢٥.

٤٣) رشيد الدين الهمذاني، ص ٢٨٩-٢٩٠.

٤٤) **نفس المصدر**، ص ٢٩٦.

٤٥) **نفس المصدر**، ص ٢٩٦.

٤٦) ويعني الرجل الذي ينحدر من أسرة أصلها من بلاد ما وراء النهر، ويقصد بذلك وزيره أبو بكر بن السيد الأجل.

٤٧) رشيد الدين، **المصدر السابق**، ص ٢٩٧.

٤٨) رشيد الدين، **المصدر السابق**، ص ٢٨٩.

٤٩) القلقشندي، **المصدر السابق**، ج٤، ص ٤٨٥.

٥٠) رشيد الدين، **المصدر السابق**، ص ٣١٣.

٥١) **نفس المصدر**، ص ٣١٤.

٥٢) **نفس المصدر**، ص ٣١٥.

٥٣) **نفس المصدر**، ص ٢٩٧.

٥٤) **نفس المصدر**، ص ٣١٦.

٥٥) **نفس المصدر**، ص ٣١٦.

٥٦) **نفس المصدر**، ص ٣١٦-٣١٧.

٥٧) **نفس المصدر**، ص ٣١٧.

٥٨) يذكر رشيد الدين الهمذاني أن تيمور خان استدعى (آننده) للتحقيق معه حول انتشار الإسلام في ولايته، وقال له: هل رأيت رؤيا أو سمعت إلهاماً أو حدث لك شيء أو أرشدك شخص إلى طريق الإسلام؟ أفصح عن هذا الشخص كي يهديني أنا كذلك، فأجاب آننده: لقد هداني الله الأعظم إلى معرفته، فقال تيمور: "إنما هداك الشيطان إلى ذلك السبيل، فأجاب: إذا كان الشيطان قد هداني، فمن الذي هدى غازان خان، الذي هو أخي الأكبر؟ فلزم تيمور خان الصمت وطفق يفكر، فقالت له الملكة (كوكجين خاتون) على سبيل النصح: "لقد جلست على العرش منذ عامين، ولم يستقر لك الملك بعد) ولآننده جنود كثيرون، وجميع هؤلاء الجنود وأهل ولاية (تنك قوت) مسلمون، ويستنكرون منك هذا الموقف، وربما يغيرون قلوبهم فتكون على مقربة من الأعداء، وإذن فليس من المصلحة إجباره على ترك الإسلام، فلندعه وشأنه لمذهبه ونحلته"، وبذلك أمر تيمور بإخلاء سبيله، وأعاده حاكماً على ولاية (تنك قوت).

٥٩) د. جعفر حسين خصباك، **العراق في عهد المغول الإيلخانيين**، (بغداد، ١٩٦٨)، ص ١٩٤.

Arnold, I, THe Preaching of Islam, P. 235.

٦٠) رشيد الدين، **المصدر السابق**، ص ٣١٨.

٦١) رشيد الدين، ص ٣١٨، وقد قال تيمور خان في هذا الاجتماع: إن (آننده) قد اقتفى أثر غازان في اعتناقه الإسلام، فليعمل هو أيضاً بما سوف يوحي إليه إسلامه، إذ إنني فكرت فوجدت أن الإسلامَ طريق مستقيم ودين قويم.

٦٢) رشيد الدين، **المصدر السابق**، ص ٣١٩.

٦٣) رشيد الدين، **المصدر السابق**، ص ٣١٨.

٦٤) رشيد الدين، **المصدر السابق**، ص ٣٢٤،٣٢٣،٣١٤.

٦٥) **مقدمة كاترمير على جامع التواريخ**، ج١، ص ١٢٠-١٢١.

٦٦) الأب جوبيل (Goubil) **تاريخ جنكيز خان**، ص ٢٤٥، ٢٤٩، نقلاً عن مقدمة كاترمير، ج١، ص ١٢١.

٦٧) **حاضر العالم الإسلامي**، ج٢، ص ٢٧٢.

٦٨) د. علي المنتصر، ص ٧٢٢.

٦٩) **نفس المرجع**، ص ٧٢٨.

٧٠) د. فيصل السامر، **الأصول التاريخية**، ص ٤١٦، والصين صين، هي كورية واليابان.

٧١) د. حسين مؤنس، **ابن بطوطة ورحلاته**، (القاهرة، ١٩٨٠)، ص ٢٠٦.

٧٢) ابن بطوطة، أبو عبيد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، شرحه وكتب هوامشه، طلال حرب، (بيروت، ١٩٨٧م)، ص ٦٣٤.

٧٣) ابن بطوطة، **نفس المصدر**، ص ٦٤٠.

٧٤) ابن بطوطة، **الرحلة**، ص ٦٣٧.

٧٥) بطوطة، ص ٦٣٥

٧٦) بطوطة، ص ٦٣٥.

٧٧) بطوطة، ص ٦٤٠-٦٤٣.

٧٨) بدر الدين حي، **المرجع السابق**، ص ١٨٢.

٧٩) ابن بطوطة، **نفس المصدر**، ص ٦٤٠.

٨٠) عبد الله البيضاوي، **نظام التواريخ تاريخ الخطا**، ص ٨-١١.

Oderic, Histoire merveilleuse due grand chan de Tatary, PP-61-62 مقدمة كاترمير على **جامع التواريخ**، ص ١١٣.

٨١) رشيد الدين، **جامع التواريخ**، ص ١٩٨.

٨٢) **كاترمير**، ص ١٢١.

٨٣) ابن بطوطة، **المصدر السابق**، ص ٦٤٠.

٨٤) ابن بطوطة، **المصدر السابق**، ص ٦٣٥.

ظهور الوعي القومي في (بلاد الشام) من أواخر القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الأولى

الباحث: حكمت اسماعيل
قسم التاريخ
جامعة دمشق

ظهور الوعي القومي في (بلاد الشام)

من أواخر القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الأولى

الباحث: حكمت اسماعيل

قسم التاريخ

جامعة دمشق

أ- الإطار الجغرافي والحدودي والتقسيم الإداري العثماني لبلاد الشام في أواخر القرن التاسع عشر:

ليست سورية في هذا البحث الرقعة الضيقة التي يطلق عليها حالياً "اسم الجمهورية العربية السورية" وإنما هي بلاد الشام كما عرفت في التاريخ العربي منذ القديم.

وبلاد الشام هذه هي الوحدة الطبيعية التي يعرفها الجغرافيون باسم (سورية الطبيعية). فسورية قبل انسحاب الأتراك العثمانيين كانت منقسمة إلى ثلاث ولايات وثلاث ألوية مستقلة بإدارتها، أي تابعة للأستانة. وجزء من الإمبراطورية العثمانية المترامية الأطراف، التي زاد عدد سكانها على ثلاثين مليون نسمة، سكن منهم سورية أكثر من الثلث.

جاء في دراسة الأب جوسن Jausen الموظف في مصلحة استعلامات القيادة البحرية الفرنسية، سورية بأنها الاسم الذي "يطلق على عادة على الشريط من الأرض الممتد

من أقصى خليج اسكندرونة في الشمال حتى حدود مصر في الجنوب بطول ما يقـوب من ٧٠٠ كم وعرض حوالي ١٥٠ كم، بين البحر المتوسط في الغرب والصحراء في الشرق[١]"، وذلك أن ما يدعى "فلسطين" يعدّ منذ عهد رمسيس جزءاً مندمجاً ومكمـلاً لسورية[٢].

وجاء في تحديد لونغريغ للأرض السورية كوحدة جغرافية، تحدّ سورية من الجنـوب . بالصحراء وشرقاً بمنطقة السهوب التي تفصلها عن العراق الأوسط، ومـن الشـمال الشرقي بالفرات الأعلى، وغرباً بالبحر، وعلى سطحها الشمالي والشـمالي الغربـي ترتفع سلسلة جبال الأمانوس، ومن خلفها السهل الكيليكي، وقد عُدَّ، ومعـهما منـاطق عينتاب ومرعش وأورفه وحتى ديار بكر، الأناضولية، مناطق سورية[٣].

وإذا كان قد أطلق في أواخر العهد العثماني اسم "سورية" على مجموعة ولايـات لـم يشتهر بين أهلها هذا الاسم. إلا أن هذا الاسم استعمل كمرادف لبلاد برّ الشام، وأطلـق في الغالب على البلاد التي تحدّها جبال طوروس شمالاً وسيناء وخليج العقبة جنوبـاً، والبحر المتوسط غرباً، وبادية الشام شرقاً. والتنوع والتباين هو أكثر ما تتصـف بـه سورية في *حاضرها وماضيها وطبيعتها بينما تمسك* سكان *أقاليمـها* بأسـماء محليـة بعضها جغرافي والبعض الآخر إقليمي[٤].

وسورية اسم غلب إطلاقه على القطر الشامي في عهد الاسكندر مقتضباً مع تخفيفـه من اسم آشوري، لغلبة الآشوريين عليه والسين والشين تتعاوران في اللغات السـامية. قال البكري: سورية "بضم أوله وكسر الراء المهملة وتخفيف الياء أخت الواو وفتحـها "اسم للشام"[٥].

وقد أعطى الدكتور وجيه كوثراني تسمية كتابه بعنوان: "بلاد الشام" مسـتبعداً بذلـك الصيغة التي استخدمها محمد كرد علي بكتابه الشهير "خطط الشام" مذكراً بـالتعريف الذي قدّمه كرد علي، لحدود بلاد الشام الجغرافية التاريخية بقوله: "حدّ بـلاد الشـام

ينتهي بسفوح جبال طوروس المعروفة بالدروب عند العرب آخذاً إلى ما وراء خليج الاسكندرية لجهة أرض الروم. وكان جبل السيّاح (بفتح السين وتشد يد الياء) حداً بين الشام والروم. ولا نعرف هذا الجبل بهذا الاسم اليوم، ويقول الإدريسي: ومن السويدية إلى جبل رأس الخنزير عشرون ميلاً، وعلى هذا الجبل دير كبير، وهو أول بلاد الأرمن وآخر بلاد الشام. فما كان من جهة الشام على ضفة الفرات فهو شام، وما كان على الضفة الأخرى من الشرق فهو عراق. فصفين مثلاً في الشام وقلعة جعبر في الجزيرة الفراتية وبينهما مقدار فرسخ أو أقل، وتدخل بالي، أي مسكنة الشام، لأنها من غرب الفرات، وتدخل البيرة (بيرجك) في الجزيرة لأنها على الشق الآخر من الفرات. وما كان من دير الزور على الفرات إلى جهة الشام فهو من الشام، وما كان على الشاطئ الآخر إلى الشرق فهو من العراق. وكذلك يقال في الرقة وتدخل دومة الجندل المعروفة اليوم بالجوف في الجنوب في جملة هذا القطر. كما أن أيلة، هي آخر الحجاز وأول الشام. فالعريش أو رفح أو الزعقة هي حدّ الشام الجنوبي الغربي. ومعان نصفها للشام ونصفها للحجاز، فيقال معان الشامية ومعان الحجازية(٦).

وقد درج ساسة فرنسة ومؤرخيها واقتصادييها منذ زمن بعيد على الأخذ بذلك التعريف *الشامل لكلمة سورية، ومنذ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين،* أخذ رجال فرنسة الرسميون يدعون ويطالبون "بالحق التاريخي" لهم في سورية(٧).

هذا وقد عرفت طوال العهود العربية والإسلامية ببلاد الشام أو بأسماء الدويلات والحكومات التي نشأت فيها، أو حظيت بما يشبه الاستقلال الذاتي. من ذلك يصعب الاتفاق على تعريف واحد لتعبيري "بلاد الشام" و "سورية"، فثمة استخدامات شتى لهذين التعبيرين. قديمه وحديثه، تحمل مضامين جغرافية وإدارية تختلف باختلاف المراحل التاريخية. وحتى في المرحلة التاريخية الواحدة يخضع التعريف لإشكاليات عديدة.

فالتقسيم الإداري العثماني الذي اعتمد في الربع الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين لم تشكّل "سورية" وحدة إدارية ضمن ولاية عثمانية واحدة، بل تقاسمتها الولايات الثلاث: ولاية دمشق، ولاية حلب، ولاية بيروت، بالإضافة إلى "متصرفيات " القدس وجبل لبنان ودير الزور(٨).

ثم إن الإطار الجغرافي والسكاني الذي شملته تلك الولايات، لم يتطابق مع المناطق التي أخضعت عملياً للانتداب الفرنسي، أو تلك التي شكّلت مناطق مشروع "المملكة السورية العربي"(٩)، أو مطلب الحركة العربية "التوحيدية" خلال الانتداب الفرنسي.

ونتيجة للتغيرات التي كانت تجري في التقسيم الإداري العثماني، فمن المفيد أن نستعيد المقارنة التي يجريها عبد العزيز محمد عوض على تركيب هذه الولايات في سنة ١٨٩٣م. ففي هذه السنة كانت تضمّ ولاية سورية الألوية التالية: لواء الشام الشريف، لواء حماة، لواء حوران، لواء معان. أما ولاية بيروت فقد ضمّت: لواء بيروت، لواء عكا، لواء طرابلس الشام، لواء اللاذقية، لواء البلقاء، وأما ولاية حلب فضمّت: لواء حلب، لواء أورفة، لواء مرعش(١٠).

ونلاحظ أن ولاية حلب شملت مناطق تبعت في أغلبها إلى تركية "بحيث أن لواءين وأحد عشر قضاء من مجموع الألوية الثلاثة والأقضية الإحدى والعشرين التي تألفت منها الولاية، تخضع الآن للحكم التركي. ولم يبقَ في سورية من هذه الولاية الضخمة إلا أجزاء لواء واحد تضم عشرة أقضية فقط. هي أقضية اعزاز، وحارم، والباب، وجسر الشغور، وإدلب، ومنبج، وجبل سمعان، والمعرّة.

وخسرت سورية لواء عينتاب، وأقضيته الأربعة: أورفة، سروج، روم القلعة، وبيره جك. كما فقدت لواء مرعش وأقضيته الأربعة: الزيتون، ويارزجق، وأندرين ومرعش. كذلك خسرت ثلاثة من أقضية لواء حلب نفسه، وهي أقضية بيلان، واسكندرون، وإنطاكية"(١١).

كما أن ولاية سورية خسرت وفق اتفاقيات سان ريمو ومعاهدة سيفر لواء معان، الذي ضمّ أقضية: الكرك، والسلط، والطفيلية. كما أن ولاية بيروت خسرت لواعين عكا ونابلس[١٢].

وفي آخر المعلومات التي استخرجها الأستاذ ساطع الحصري في كتابه البلاد العربية والدولة العثمانية، ص ٢٤٠-٢٤٩، عن الحولية الرسمية العائدة لسنة ١٣٢٢هـ الموافق لسنة ١٩٠٤م، وهو "الكتاب السنوي للدولة العثمانية"، الذي كانت تبيّن فيه الحولية تفاصيل التقسيمات الإدارية، والتي يعتقد أنه لم يطرأ عليها تغيير يستحق الذكر بعد ذلك التاريخ، نجد أن سورية كانت مقسمة إلى :

١-**ولاية حلب**: كانت تضمّ ثلاثة ألوية، هي: حلب، أورفة، مرعش، والجدول التالي يبيّن عدد الأقضية والنواحي والقرى التابعة لكل واحد منهما:

	أقضية	نواحي	قرى
لواء حلب	١٣	٣٢	٢٠٢٢
لواء أورفة	٤	١٢	١٣١٩
لواء مرعش	٤	٢٨	٤٥٩
المجموع	٢١	٧٢	٣٨٠٠

٢-**ولاية سورية**: كانت تضمّ أربعة ألوية، هي: الشام الشريف، حماة، حوران، الكرك.

والجدول التالي يبيّن عدد الأقضية والنواحي والمزارع والقرى التابعة لكل واحد من الألوية المذكورة.

	أقضية	نواحي	مزارع	قرى
لواء الشام الشريف	٨	٥	٦٠	٢٩٦
لواء حماة	٣	١٢	٠	٣١٦
لواء حوران	٧	١٠	٦١	٣٨٠
لواء الكرك	٣	١	٠	٢٥
المجموع	٢١	٢٨	١٢١	١٠١٧

٣-**ولاية بيروت:** كانت تضمّ /٥/ ألوية، هي: بيروت، عكا، طرابلس، لاذقية، نابلس.

والجدول التالي يبيّن عدد الأقضية والنواحي والقرى والمزارع التابعة لكل منها:

	أقضية	نواحي	قرى ومزارع
لواء بيروت	٣	٨	٣٥٣
لواء عكا	٤	٤	٢٥٦
لواء طرابلس	٣	٦	٦٧٢
لواء اللاذقية	٣	١٧	١٤٤
لواء نابلس	٢	٧	٢٣٨
المجوع	١٥	٤٢	٢٩٥٩

٤-**متصرفية القدس الشريف:** كانت متصرفية مستقلة، تتخابر مع وزارة الداخلية مباشرة، دون أن تتبع ولاية من الولايات. وكانت تضمّ أربعة أقضية، هي يافا، غزة، بئر السبع، خليل الرحمن وكان يتبع مركز اللواء والأقضية المذكورة ١١ ناحية، و٣٨٤ قرية ومزرعة.

٥-**متصرفية دير الزور:** كانت متصرفية مستقلة تضم أربعة أقضية، هي: رأس العين، عشارة، البوكمال، عربان. وكان يتبع هذه المتصرفية ٤ نواحي و١٣٩ قرية.

٦-**متصرفية جبل لبنان:** كانت متصرفية ممتازة تدار وفق نظام خاص، وكانت تضم ثمانية أقضية ندرج فيما يلي أسماءها مع عدد النواحي والقرى التابعة لكل منها:

	نواحي	قرى
قضاء الشوف	١٢	٢٢٠
قضاء المتن	٥	١٧٨

قضاء كسروان	١٠	٢٢٦
قضاء البترون	٨	١٥١
قضاء جزين	٢	١٠٧
قضاء الكورة	٣	٥٠
قضاء وحلة	٠	١
قضاء دير القمر	٠	١
المجموع	٤٠	٩٣٤

فالتقسيمات الإدارية التي ذكرناها عن سورية، اختلفت اختلافاً كبيراً عن التقسيمات السياسية التي منيت بها منذ الحرب العالمية الأولى:

١- الجمهورية العربية السورية: تضمّ بعض الأقسام من ولايتي سورية وحلب، ومتصرفية دير الزور المستقلة، ومتصرفية اللاذقية التي كانت تابعة إلى ولاية بيروت، فإن القسم الجنوبي من "ولاية سورية"، كوّن "المملكة الأردنية"، والأقضية الغربية من الولاية المذكورة ألحقت بالجمهورية اللبنانية. وأما الألوية والأقضية الشمالية من ولاية حلب، فقد بقيت تابعة للجمهورية التركية.

٢- المملكة الأردنية: عبارة عن "متصرفية الكرك"، التي كانت تتبع ولاية سورية، وأما "الضفة الغربية"، التي ألحقت بها بعد كوارث فلسطين، فما هي إلا أجزاء صغيرة من متصرفية القدس المستقلة ومتصرفية نابلس، التي كانت مربوطة بولاية بيروت.

٣- الجمهورية اللبنانية: تضمّ متصرفية لبنان، ومركز بيروت، وأقضية صيدا وصور ومرجعيون التابعة للمركز المذكور، ومتصرفية طرابلس الشام، التي كانت تابعة إلى ولاية بيروت، وأقضية بعلبك وبقاع العزيز وحاصبيا وراشيا، التي كانت تابعة إلى ولاية سورية.

هذا وكانت الرأسمالية الفرنسية تطالب بالموصل، على أنه جزء من "سورية الطبيعية" المطالب بها لفرنسة[١٣]. ونقرأ صدى ذلك في كتاب جورج سمنة عن "سورية" عندما يورد ولاية الموصل "كإحدى الولايات السورية، معتبراً أن لواء الموصل يقطنه "آشوريون" وهؤلاء يشكّلون أنموذجاً أقوامياً يمثّل الأصالة السورية، بين العناصر الكردية في الشمال، وعرب بلاد ما بين النهرين"[١٤].

وكان أن خسرت "سورية الانتداب الفرنسي" الموصل أيضاً في سياق الصراع الدولي بين فرنسة وإنكلترة، بحيث "تخلت" فرنسة عن مطالبتها بالموصل مقابل إجلاء القوات الإنكليزية عن الداخل السوري[١٥]...حيث تقرر في مؤتمر السلام إزاء تضارب المصالح الدولية انتداب إنكلترة لإدارة فلسطين وتنازل فرنسة عن الموصل[١٦].

وعلى أساس "وحدة سورية الكاملة" تشكّلت اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني المنبثقة عن مؤتمر جميع الأحزاب الممثّلة للبنان وسورية وفلسطين، الذي انعقد في جنيف ١٩٢١[١٧]، وظلّ ممثلوها يعملون في هذا الاتجاه، اتجاه (سورية الكاملة) حتى الثلاثينيات. بينما كان واقع تقسيم المشرق العربي وفقاً لاتفاقية (سايكس – بيكو) يسير في اتجاه تثبيت وتدعيم التقسيم تحقيقاً للمطامع الدولية والتاريخية. ومع أن قطاعات الشعب الفرنسي وفئات أخرى من دوائرها الرسمية لم تكن تؤيد هذا التقسيم، بل تكاد ترفضه، وترى في مساعي الصهيونية لإقامة "وطن قومي" في فلسطين وفصلها عن سورية ما يتعارض مع علاقاتها "التاريخية" بالمنطقة وبالأماكن المقدسة خاصة، ومع أن إنكلترة ومن ورائها أمريكة من جانب آخر، هما الدولتان الأكثر حرصاً على تقسيم المنطقة وتنفيذ اتفاقية سايكس – بيكو، تحقيقاً لأماني الصهيونية، ولرغبتها في اختيار إنكلترة لتنفيذ هذه الأماني، كدولة منتدبة من عصبة الأمم، على ما بين الدولتين من تباين في المواقف حينئذ...فإن بعض العاملين في السياسة العربية، كقوى توصلهم إلى أمانيهم الاستقلالية، نكاية بفرنسة ومعاداة لها. ولم يكترثوا بحقيقة الموقف الفرنسي[١٨].

يذكر الريحاني ردّ الشريف حسين له في إحدى مقابلاته "لو اتبعوا نصيحتي، لو امتثلوا أمري، لما كن ذلك التساهل والتذبذب في المؤتمرات. فتحوا للفرنسيين باب سورية، وكادت سياستهم تقضي على القضية العربية". ويتابع الريحاني أن الحديث هنا عائد إلى من كان يمثل الشريف حسين في الشام وفي فرساي وعلى رأسهم الأمير فيصل(١٩). بدليل أن طبيب الأمير فيصل الخاص الدكتور أحمد قدري قال:

"إنّ الأمير فيصل استقبل في أوروبة ثلاثة من زعماء اليهود (أحدهما بولوني والآخران بريطانيان) في أواخر عام ١٩١٨، وقدموا له كتاباً يوقعه برضائه معترفاً بتأسيس وطن قومي -ثقافي فقط في فلسطين- مقابل معاونتهم إياه في المحافل السياسية الأوروبية والأمريكية، ليحصل العرب على حقوقهم كاملة. وانتهى البحث بأن كتب الأمير على تلك الوثيقة بتوقيعه وبخطه وبالعربية بأنه يقبل بما عرض عليه إذا ما وفى اليهود بوعدهم وتمّ للعرب تحقيق استقلالهم من طوروس إلى خليج البصرة، وفقاً لمطالب الشريف حسين من الحكومة البريطانية قبل دخوله الحرب"(٢٠).

وأياً ما كان الاسم الذي يطلق على هذه المنطقة الممتدة من جبال طوروس شمالا إلى البحر الأحمر جنوبا، ومن البحر الأبيض المتوسط غربا إلى العراق شرقا: سورية الطبيعية أم الشرق أم بلاد الشام أم سورية الكبرى "الكاملة" أم الشرق الأدنى، فإنها كانت أكثر بلاد العالم تشويقا. وإذا كانت سورية منطقة فاتنة بصهرها لسلالات وإسهامات ثقافية من الشرق والغرب، تمتد في ما يزيد على /٥٠٠٠/ سنة، فإنها لا يمكن أن تكون جنة عالم الآثار والمفكر، والمؤرخ وعالم الاجتماع. وعزيزة على قدر متساوٍ لدارس ونصير الإسلام الأول وإسلام القرون الوسطى والمسيحية واليهودية. ومراراً عدة شكّلت سورية المسرح الذي عرض فوقه أفضل ما تستطيع الحضارة المعاصرة تقديمه – في المكانة الملوكية، وفي الفن والثقافة، وفي التقدم المادي(٢١).

يذكر الدكتور عبد الكريم غرايبة نقلاً عن محاضرة الأستاذ جورج زوين ألقاها في الجمعية العلمية السورية في بيروت سنة ١٨٦٩م، ويقول فيها: "ولكل بلاد تواريخ، أما سورية فيخدمها كل تاريخ... تصفح تواريخ الرومانيين واليونانيين، وصحف الفرس والمصريين، فترى سورية نقطة في مصاحفهم فهي مفتوحة الأبواب، فسيحة الرحاب"[٢٢].

وكان لسورية (بلاد الشام) منذ القديم مقام ممتاز عند العرب، وكانوا يتمثلونها في مخيلاتهم حلماً جميلاً، ومثلاً أعلى رفيع الشأن. وكانت قوافلهم تسير ميممة شطر واحاتها المسماة: دمشق وحمص وحماة وحلب قادمة من المدينة المنورة، أو من لدن قريشي مكة المكرمة. وفيها تلقى النبي محمد (ص)، وهو آت على رأس قافلة خديجة بنت خويلد الوحي الأول برسالته النبوية، وإذا كان يعدّ العدة لما بعد بقصد فتحها، فاجأته المنية. كذلك فارق الحياة الخليفة أبو بكر الصديق وعيناه تنظران من خلال الأفق إليها، والخليفة عمر بن الخطاب شاهد خضوعها. ومعاوية هو الذي أسس فيها أول إمبراطورية عربية[٢٣].

فسورية هي حلقة وصل ونقطة التقاء وجسر يصل بين قارات العالم القديم، بحيث بدت صورة مصغّرة للعالم القديم، تمثّل أدواره الجيولوجية، وأنواع التضاريس والمناخات، ونماذج بشرية ودينية وثقافية مختلفة.

ويعيش فوق هذه التربة الصالحة شعب حضري، لا تساوٍ في توزيعه على مختلف المناطق. ويعود ذلك على الغالب إلى مظهر الأرض أو التأثيرات الجوية. وقد دخل البلاد في عهد الانتداب نحو مئة ألف مهاجر أرمني وفدوا من تركية، وغادرها منهم فيما بعد إلى روسية عدة آلاف. كما دخلها من الحدود الشمالية عدد وفير من الأكراد والشركس، واستقروا في سهول الجزيرة العليا، وخاصة على ضفاف نهر الخابور الخصبة، أو على رافده نهر جغجغ، وفي آخر الأمر قدم من العراق /٦٠٠٠/

آشوري، واتخذوا لهم مقراً في المنطقة المجاورة لينابيع الخابور. وأدّى تدفق هذه الأقوام إلى تنمية ثراء هذه البقعة في الجزيرة العليا(٢٤).

وتنفتح الأرض السورية (بلاد الشام) في كل اتجاه على تعاقب متنوع من الغزوات المادية والثقافية وتشكّل منطقة حيوية في جسر يصل إلى قارات ثلاث. وقد تأثرت بعمق البحر المتوسط في حدها الغربي في طريقها الممعن في القدم إلى أوروبة، وبطريق الساحل مروراً بعكا إلى دلتا النيل. وبطريق كيليكية إلى وسط وغرب آسية الصغرى، وعبر حوران وشرق الأردن إلى الحجاز والمدن المقدسة، وعبر الأطراف الشمالية للصحراء إلى الفرات والعراق.

فأقاليم سورية (بلاد الشام) البالغة التنوع تدين بطابعها إلى التفاوت في سطح الأرض جزئياً، بسبب الارتفاع الجبلي، والسهول والمنخفضات، والقرب من البحر أو البعد عنه. إلا أن التفاوتات الداخلية لسورية (بلاد الشام) تزيد من تشويقها، وتنوع حضارتها التي لم تنقص شيئاً من وحدتها المادية الأساسية في الحدود الحقيقية لسورية الجغرافية(٢٥).

فكان لهذه الميزات المتعددة سبباً لاجتذاب موجات بشرية أتت من كل الاتجاهات، عبر العصور في عملية بدأت قبل وقت طويل، من بزوغ فجر التاريخ، ثم استمرت تحت أنواره الأولى والمتأخرة بوصول العموريين والآراميين من السهوب، والحثيين والأكراد من الأناضول، واليونان والرومان والصليبيين من الغرب، والمغول والأتراك من الشرق. وكذلك وعلى نحو مثاير للغاية في الألفي سنة الماضية، القبائل العربية من الأراضي القاحلة الواقعة في الجنوب والشرق، كان آخرها الفتح الإسلامي، والتعاظم اللاحق للعرب عبر القرون، وتوسع وانتشار الثقافة والتراث العربيان، الذي احتفظت به سورية (بلاد الشام) ضمن عالم الثقافة العربية، الذي يمتد من العراق إلى عدن والمغرب بطابعها وشخصيتها المميزة.

وعليه كانت منذ ما قلب التاريخ، حتى الآن حلبة لصراع القوى الكبرى في العالم كلما وهنت إرادة أهلها وضعفوا أو تهاونوا في حمايتها(٢٦).

وقد اشتملت عناصرها المكونة، الوفيرة العدد وغير القابلة للتحليل إلى حدّ كبير كما هي حالة المجتمعات الإنسانية، وعلى الآثار التي لم تعد قابلة للتمييز لكل ما قدمته مختلف الإسهامات العرقية والثقافية، وخاصة الأديان الكبيرة، التي يتوزع السكان فيما بينها، وشملت كذلك تأثيرات البلاد نفسها، وشروطها المعيشية الخصوصية وتكيفها بين الأمم(٢٧).

كان من الطبيعي أن يترك هذا الموقع الجغرافي آثاره على الحياة البشرية في هذه المنطقة. لذلك نجد كثيراً من العروق البشرية متمثلة فيها. وما عدا البراهمة والبوذية فإننا نجد جميع الأديان متمثلة فيها كذلك(٢٨). إن هذا الموقع الجغرافي وقوى جاذبيته المتنوعة قد صانته فعلاً، وفي كل الحقب من العزلة عن أوروبة، وفي أوائل القرون الحديثة كان الأوروبيون يعرفون عن الشرق ويترددون عليه أكثر ما يفعلون بالنسبة لأي قسم من آسية وأفريقية(٢٩). فهذا الموقع الجغرافي شديد الارتباط بأهميته الاستراتيجية، ولا يمكن الفصل بينهما.

وأن العبارات التي كانت تطلق في القرن التاسع عشر وصفاً لهذه المنطقة، كقولهم أنها "جسر آسية" وأنها "طريق حيوي للإمبراطورية البريطانية" والشريان الرئيسي للمواصلات بين "أوروبة وآسية" أصبحت عبارات متداولة مألوفة(٣٠)، تدل على استمرار وتزايد أهميتها، وتزايد ارتباطها بمصالح الدول الشديدة الحيوية في العصر الحديث شأن ارتباطها في الماضي.

ب- الوضع في بلاد الشام أواخر العهد التركي العثماني وتطلعات العرب السوريين القومية:

وإذا كان لموقع سورية (بلاد الشام) الجغرافي مثل هذه الأهمية فمن باب أولى أن يكون لأهلها لانفرادهم بزمام السيطرة عليها والتحكم بمعاييرها أهمية أعظم في نظر تلك المصالح ويشير من جانبها اهتماماً أكبر. إن هذا التوكيد على الأهمية الاستراتيجية قد ترك أثره العميق في تفكير جميع الذين كتبوا هذا الجزء من العالم. فقد كتب الكولونيل تشرشل Churchill في منتصف القرن التاسع عشر يقول: "إذا كانت بريطانية ترغب في الحفاظ على سيطرتها في الشرق ينبغي لها بشكل أو بآخر أن تدخل سورية ومصر في نطاق نفوذها وسيطرتها"[٣١]. وقد بدأت حقبة المواصلات الأكثر زخماً مع فجر القرن التاسع عشر، وكانت وسائل الاختراع الأوروبي متنوعة، يمكن إيجازها بالإشارة إلى عمليات وكلاء التجارة والصناعة والنقل البحري، والتحسن الكبير في المواصلات بحراً وبراً، ووجود وكلاء قناصل للدول العظمى، وهجرة السوريين إلى البلاد الأجنبية، وزيارات الحجاج والدارسين إلى سورية الجنوبية (أي فلسطين) والعلاقات بين الطوائف المسيحية المحلية وكنائس أوروبة، وتأسيس مدارس وجامعات أجنبية فوق التراب السوري فالنفوذ الأجنبي الذي كان ضئيل الفاعلية في الجماهير الريفية للبلاد، كان محسوساً بدرجات وأشكال متباينة في المدن.

وفي الواقع أن الشرق العربي قد وجد نفسه، منذ أواخر القرن التاسع عشر منجرفاً أكثر فأكثر إلى دوامة المصالح الاقتصادية والسياسية المتضاربة للدول العظمى، ولذا كانت أهميته الاستراتيجية عظيمة الشأن، والأهمية الاستراتيجية لبلد ما، من هذه الناحية، هي قيمة هذا البلد ونفعه بالنسبة إلى أغراض الدول العظمى ومطامحها الاقتصادية والسياسية والعسكرية[٣٢]، وإذا كان الساسة البريطانيون في القرن التاسع

عشر وأوائل القرن العشرين يعتبرون العراق، هو درع المصالح البريطانية في الــهند وإيران، فإن سورية هي درع قناة السويس بالنسبة للمصالح البريطانية فـــي مصـــر. فسورية (بلاد الشام) بإجمالها يمكن القول إنها تلقت، أكان ذلك أفضل أم أسوأ جرعـــة من أكسيدات وسموم الغرب تفوق ما تلقته أية بقعة مماثلة، وأن هذه التي غالبـــاً مـــا كانت سيئة الاختيار وسيئة الهضم [٣٣]، وإذا كان قد حدث بين سنتي (١٨٣٠-١٨٤٠) خلافات خطيرة بين بريطانية العظمى وفرنسة حول شؤون الشرق، وتشـــجيع محمـــد علي باشا على تجريد حملته على سورية، وما رافق الحملة المصرية إلـــى ســـورية (١٩٣٢-١٨٤٠) من دخول سورية أكثر فأكثر في إطار السوق العالمية الرأســـمالية، مما أدّى إلى تفكيك التقوقع الإقطاعي وتصـــدّع العلاقـــات الإقطاعيـــة الاقتصاديـــة والثقافية.

أدّى النظام العثماني المتصف بالقسر في تحصيل الضرائب والمتميز بالمحافظة علـــى النظام الإقطاعي المعرقل لنمو التجارة إلى انفجـــارات عديـــدة، كـــان مـــن أهمـــها الاضطرابات، والتمردات التي حدثت في دمشق سنة ١٨٣١، فقد ناضل سكان دمشـــق تحت قيادة التجار ضد الوالي العثماني وضد جباة الضرائب القســـاة. ولكـــن الحكـــم التركي كان من السهل عليه قمع حركات المقاومة في المدن بسهولة، في حين تعـــذر عليه القضاء السريع على الانتفاضات الفلاحية، التي انتشرت في سائر أنحـــاء بـــلاد الشام، ولاسيما بالمناطق الجبلية المنيعة الصعبة المواصلات، والمليئة بـــالأحراج [٣٤]. وقد كان انهزام القوات التركية أمام قوات محمد علي باشا سبباً في تعجيل الســـلطان العثماني عبد المجيد (١٨٣٩-١٨٦١)، في إصدار (خط كالخانة الشـــريف)، والـــذي احتوى على برنامج الإصلاحات.

ولكن رغم صدور هذه الإصلاحات، التي فتحت منفذاً لتطوير العناصر البرجوازية في البلاد. إلا أنها كانت غير كافية لتجديد النظام الاجتماعي فيها. إذ لم تقض على نمـــط الإنتاج الإقطاعي وعلى الدولة الإقطاعية حيث بقي الفلاح على تبعيته للإقطاعي [٣٥].

وقد قاما انتفاضات فلاحية في وجه السلطة العثمانية، ففي جبـــال العلويين رفـض الفلاحون في سنة ١٨٤٤، دفع الضرائب الحكومية الكثيرة المتراكمة عليهم. وعندمـا قامت السلطات التركية باعتقال اثنين من الفلاحين هاجم أكثر من /٥٠/ فلاح سـراي الحكومة في اللاذقية، وحرروا المساجين وقد لاقت الحملة الحكومية التأديبية المرسلة لإخضاع الفلاحين الفشل الذريع.

وفي سنة ١٨٥١، رفض الفلاحون في جبل العرب دفع الضرائب أيضاً، وقد هـاجم الفلاحون الدروز، الحملة الحكومية المرسلة لتأديب الفلاحين، واستولوا على أسلحتها وعتادها[٣٦].

ورغم نجاح الانتفاضة الفلاحية حركة "العامة"، التي حصلت في جبل حوران ١٨٥٢، والحركة التي قادها الحداد طانيوس شاهين في كسروان عـام (١٨٥٩-١٨٦٠)[٣٧]، وحركة التمرد في زحلة سنة ١٨٥٧، ضد القائمقام، وفي جبل العرب سنة ١٨٨٢[٣٨]، فإن جوهر النظام الإقطاعي لم يتغير.

وقد سادت الروابط "القبلية" في هذا العهد، وكثيراً ما كانت تنقلب في المدينـة وفـي القرية إلى أسوأ صورها، بسبب الاحتكاك الدائم بين العائلات، والأحلاف، وكانت هناك إلى جانبها "الروابط الطائفية"، (الملل)، وفي ظل الحكم العثماني كانت تراعي العلاقات بين الطوائف (الملل) فالروابط بين أعضاء الطائفة (الملة) ومصلحتها ككل بـالنظر إلى الطوائف (الملل) الأخرى، كثيراً ما تقي إقطاعي الطائفة من غائلة التألب ضدهم.

وأحياناً هي التي تمدّهم بمزيد من السلطة والنفوذ، وكانت هذه الروابط تتضافر لتجعل من خريجي المدارس الأجنبية واستانبول ، من أبنـاء طبقـة "الأفنديـة" نخبـة مـن أرستقراطية جديدة، مشدودة دوماً إلى صفات الإقطاعية.

وبعد تركيز الفروقات الدينية وتبلور الطوائف والفروق الدينية، وما استحكم من عـداء سياسي زمناً بين المسيحية والإسلام، وبين الطوائف نفسها، أخذ الحكّام ينمـون هـذه

الفروقات، ويشجعون الاستقلالات الذاتية الخاصة بمختلف الطوائف ويعملون على منح زعمائها الروحيين فرمانات وبراءات متجددة، امتيازاً نافلاً عن الحق المشترك، كان يزودهم على اتباعهم بسيادة إدارية معينة وقانونية وتشريعية فضلاً عن السيادة المعنوية، حتى باتت الجماعة منها تتمتع بلون من الاستقلال الداخلي في ظل الحكم العثماني(٣٩).

وقد كان الاستقلال الذاتي "للملل" بعيد المدى من كل النواحي، في الميادين القانونية، والإدارية والاجتماعية، والتعليمية، كما في المجال الديني، ورغم أن أساس الملل كان دينياً بكل وضوح، وليس قومياً ولا إقليمياً، فإن تلك الجماعات الجيدة التحديد والتنظيم غالباً ما كانت تكوّن وتنمّي وعياً قومياً محدداً بل واتجاهات انفصالية، ما لبثت هذه الاتجاهات الانفصالية في نظام الملل أن قويت بنظام الامتيازات الأجنبية.

وبمرور الوقت أصبح نظام الملل، بما أضفته إليه الامتيازات الأجنبية واحداً من أهم أسباب حدّ وتقييد السلطة المركزية وتفكك الإدارة المركزية في الإمبراطورية العثمانية(٤٠).

وفي ظل هذه العلاقات بات أسلوب الحكم السائد هو أسلوب التفرقة، وأصبحت عبارة "فرّق تسد" شعار الحكم العثماني، ليس بين الطوائف الإسلامية فحسب، بل أيضاً بين الطوائف المسيحية كذلك.

وقد حصل زعماء الإقطاع والمتنفذين على ألقاب من السلطة العثمانية، مثل أفندي، بك، آغا...إلخ، وقد كانت الحركات التي كانت تقاوم التحصيل التعسفي للضرائب، واضطهاد العائلات الفلاحية وسرقة الأراضي من الفلاحين الإقطاعيين تقمع بشدة من قبل الأمراء الإقطاعيين المدعومين من الحكومة المركزية ورجال الدين(٤١). لأن احتلال الأتراك العثمانيين للديار العربية منذ القرن السادس عشر جاء باسم الدين، واستمروا يتحكمون بالمصير العربي باسم الإسلام. حيث كان الدين يعمل آنذاك عمل

القومية اليوم في تقرير الأحوال السياسية وكانت تفسيرات رجال الدين التقليدية للعلاقات والروابط الاجتماعية هي التفسيرات المعوّل عليها(٤٢).

يذكر لنا يوسف الحكيم وفخري البارودي من معاصري أواخر الحكم العثماني، بعض المتنفذين من العائلات الذين كانوا من أصحاب النفوذ والحظوة في البلاط السلطاني لعبد الحميد الثاني(٤٣). فضلاً عن ذلك فقد كان هناك التغلغل الرأسمالي الأجنبي، فقد فتح تشميل المعاهدة التجارية المعقودة بين إنكلترة وتركية عام ١٨٣٨، لمصر وسورية (بلاد الشام) إمكانية كبيرة لدخول بضائع الدول الرأسمالية إلى أسواق سورية، وتحت ضغط الرأسمال الأجنبي، اتخذت الزراعة سمة الإنتاج البضائعي(٤٤). وازداد هذا التغلغل حتى شمل عدداً من الدول الأوروبية الرأسمالية، مما زاد الطين بلة، والأمور تعقيداً، فأصبح الشعب يقاسي من نوعين من الاضطهاد: اضطهاد الرأسماليين الأجانب، وظلم الباشوات الأتراك، ومع تطور الوعي من شكل إلى شكل آخر تحول الشعور الوطني من حسّ ديني، ينقم على سيطرة الأوروبيين على جزء من الوطن، إلى تطور في الاستقلال عن الحسّ الديني وأخذ يتململ من الحكم التركي تململه من الحكم الأوروبي، إلى أن أصبح عند الطبقة المتعلمة، وعياً قومياً، يعرّف الوطن، بغير ما اعتادت المفاهيم التقليدية أن تعرفه، وأن كان انحصر بادئ الأمر في الجانب الآسيوي من الوطن العربي(٤٥).

وظهر التذمّر الشعبي العام من الأوضاع والمساوئ الناتجة عن الحكم التركي. وخاصة في الحقل الاقتصادي. وقد بدأ المواطن العادي يتأفف ويتمنى زوال ذلك الحكم ولو همساً، بعد أن اعتاد على السكوت واللامبالاة. وقتل النقمة في النفس عن خوف أو عن استسلام.

وقد أشار إلى ذلك التذمّر الخافت في الأوساط الشعبية الضعيفة الصلة "بالنخبة" المثقفة عدد من الرحالة الأجانب الذين قدموا إلى آسية العربية قبل نهاية القرن الماضي،

واختلطوا بالسكان أكثر من غيرهم، مثل الدبلوماسيين جميس فِنّ وِرتشارد برتن، والقسيس وليم جراهَم وج. رتشَر[٤٦].

في ذلك الجو نشأت فكرة القومية العربية متأثرة بالنهضات القومية الأوروبية في القرن التاسع عشر، التي روجتها وبثتها المدارس الأجنبية والبعثات التبشيرية، وغذّتها أحقاد الطوائف على الدولة العثمانية ورعتها مصالح المجتمع السوري التجاري المتنامية مع الهيئات التجارية الأوروبية. وبعد أن أخذ دور الأقليات يضعف وينحل منذ مطلع القرن العشرين، بعد أن نشبت بسببها أكثر من حرب داخل السلطنة وخارجها. وأخذت الحركات القومية الناشئة تحل محل المشاعر العنصرية والطائفية، أثار العرب في السلطنة أن تتحول دولتهم إلى رجل مريض يهزأ العالم به، ويحضر نفسه ليرث ويتقاسم ثروته. وأثارهم بوجه خاص أن تتقاعس الدولة عن حماية أراضيهم فتتساقط أنحاؤها واحد بعد الأخرى: استولت فرنسة على الجزائر بالتدريج بين ١٨٣٠ و١٨٤٧، واستولت على تونس بمعاهدتي ١٨٨١ و ١٨٨٣. واستولت على مراكش ١٩٠٧، واستولت إسبانية على قسم من مراكش ١٩٠٩ و ١٩١٢، واستولت إيطالية على ولايتي طرابلس وبنغازي ١٩١١ و١٩١٢، وكانت بريطانية قد احتلت مصر والسودان وعدن، وفرضت "حمايتها" على الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية، وقد آلم ذلك الفشل المتلاحق العرب، فأسهمت تلك الحالة النفسية إضافة لما سبق ذكره من مظالم ومفاسد في شدة إيقاظ الشعور القومي العربي القومي.

وقد عمّت موجة الاستياء من هذا العهد سواء بسواء بين ممثلي البرجوازية الوطنية والمثقفين الوطنيين، وبين الجماهير الشعبية الواسعة، كالفلاحين والحرفيين والطبقة العاملة الناشئة، وانعكس هذا الاستياء في تفشي روح المعارضة بين المثقفين ضد الحكومة وفي الانتفاضات العفوية للجماهير الشعبية[٤٧]. وكان أبناء الطبقة الإقطاعية، الطبقة الأرستقراطية الجديدة من زعماء مختلف الطوائف هم حملة مشاعلها. ضباط

في الجيش العثماني، أو أعضاء في مجلس المبعوثان، أو أصحاب مهن حرة أو طلبة في استانبول وباريس وغيرها.

وكان الطريق الذي رسمه هؤلاء الروّاد وساروا بموجبه محفوفاً بالمخاطر الصعبة، يفوق بخطورته كل شيء، لأن فكرة العروبة والانفصال عن الإمبراطورية العثمانية لم يكن مقبولاً حتى لدى الطبقات البسيطة.

يقول الأمير مصطفى الشهابي أحد المعاصرين والعاملين في حقل الثورة العربية والاستقلال: إن جميع الذين يعتدّ بهم من العاملين في سبيلها في تلك الأيام ما أرادوا قط الانفصال التام عن الدولة العثمانية خشية الوقوع في براثن الدول الاستعمارية. وأنا أقول (القول منسوب للشهابي): هذا عن معرفة بأعمالهم وبداخائلهم. ولو رضي الأتراك بالاستقلال الداخلي لبلاد العرب، أو بالإدارة اللامركزية على الأقل مع الاعتراف بالقومية العربية، وباللسان العربي في الولايات العربية، لسارت الأمور على خير ما كان يريده دعاة التآزر بين الشعبين العربي والتركي(٤٨).

ولمّا ظهرت الدعوة إلى القومية العربية قبيل الحرب العالمية الأولى، رأى فيها بعض العرب ضرباً من الخيانة، والبعض الآخر دسيسة، تهدف إلى تحطيم الدولة العثمانية، التي كانت دولة الخلافة العظمى(٤٩). لذلك لم تستطع الدعوة القومية التي تبنتها الجمعيات والأحزاب أن تنتشر في أوساط الجماهير كي تتغلب على المشاعر الموروثة القديمة من دينية ومحلية وقبلية ومصالح خاصة، وذلك بسبب صفة الجماهير السرية وعضويتها المحدّدة، وقصر الفترة التي عاشتها وانحصرت الأفكار القومية لدى الأوساط الثرية المثقفة من أعيان وتجار وضباط وأصحاب إقطاعات لأن مجالات التعليم في العهد العثماني كانت محدودة، ومن نصيب تلك الطبقة. ورغم ما كان يدفع هؤلاء المثقفين من شعور قومي ظلت حركتهم إلى حدّ بعيد حركة سياسية، دون أن يكون لها محتوى اجتماعي واقتصادي(٥٠).

لذلك كان نضال وكفاح هؤلاء الروّاد من أبناء هذه الأمة صعباً ومريراً في سبيل نشر الوعي القومي، ومن ثم المطالبة باللامركزية أولاً، وبالاستقلال ثانياً وبالوحدة ثالثاً، وبالانفصال عن الإمبراطورية العثمانية أخيراً. وما رافق ذلك من نضال سرّي بتشكيل الجمعيات وتأليف الأحزاب وعقد المؤتمرات، وتكوين الصداقات. وقد كان لهذا الوعي عظيم الأثر في جماهير الشعب.

وما إن بدأت الحرب العالمية الأولى حتى كانت الأمة كلها قد استيقظت من رقادها تعلن عروبتها، وتطالب بحريتها وتقرير مصيرها.

وكان لصلف الأتراك وعنجهيتهم، وأخذهم بالسياسة الطورانية، وتصميمهم على تجاهل حقوق العرب السياسية، وعلى تجاهل لغة القرآن، جعلت العرب في حلّ من الولاء لهم. وعندما دخلوا أغمار الحزب الكبرى الأولى وقتلوا صفوة رجالات العرب في ديوان عالية العسكري، وصمموا على الاسترسال في اتباع الشدة، وتتريك العرب وغير العرب بالقوة، أصبحت القومية العربية مهدّدة بالفناء إن لم يحارب العرب مع الحلفاء، ولهذا فقد كان "لا بدّ مما ليس منه بدّ"(٥١).

فقد لاقى هذا الرعيل من روّاد هذا الشعب أفانين الظلم والقسر والبطش. ودفعوا رؤوسهم ثمناً لنضالهم، في سبيل تحرير أمتهم من العبودية والقهر والتخلف، وحرمان الذات. وتقرير مصيرهم بالحرية والوحدة، التي حلموا بها، وناضلوا من أجلها لينعم بها أبناؤهم وبني جلدتهم من بعدهم، الذين تسلموا راية النضال الشاق المرير، الذي أعقب الحرب العالمية الأولى، وما رافق قبل الحرب وبعدها من تآمر على قضية الشعب العربي وتمزيق أرضه إلى دويلات صغيرة ومطامع قديمة أخذت تتكشف للعيان كلما مضى شهراً بعد آخر.

وكانت الثورة العربة الكبرى مثالاً صادقاً وصريحاً على عظمة الإرادة العربية، وتحديها للقيود والموت، وكان للظروف القاهرة التي أسرعت بقيام الثورة العربية عام

١٩١٦م، تتطلب أموراً كثيرة، لم تكن متوفرة للمناضلين الأفزاز حملة المشاعل. وأهم من ذلك الأصدقاء والسلاح.

وقد استغل الحلفاء الذين لم تكن تخفى مطامعهم ظروف الثورة العربية، وأسندوا لبريطانية مهمة الاتصال بقادة رجال الثورة، وتقديم الوعود الكاذبة علناً، التآمر وعقد الاتفاقيات ورسم الخرائط سرّاً. وقد كتب الأستاذ أسعد داغر أحد معاصري الثورة العربية في شرح هذه الأحداث يقول: "الظروف القاهرة، التي فرضتها علينا سنة ١٩١٦، كانت تتطلب أموراً كثيرة لم تكن متوفرة لنا أهمها الأصدقاء الذين يؤيدون أهدافنا ويشدون أزرنا. فلما اضطررنا إلى الدفاع عن أنفسنا ضد الأتراك، لم نجد أمامنا غير السير مع الحلفاء ونحن عالمون بما لهم من أطماع في بلادنا. ولكن الخطر العظيم الذي كان يهدّدنا به الأتراك. وهو خطر الإبادة والفناء، لم يترك لنا مجالاً للتفكير أو الاختيار، فلم يكن هناك شران بل هو موت محقق من جهة إن لم نشر على الترك، وجهاد شاق طويل في سبيل حياة حرة كريمة من جهة أخرى(٥٢).

وكانت حكومة الترك الاتحادية تعد الحرب الكبرى فرصة ثمينة يجب اغتنامها للقضاء على غير الأتراك من أقوام الدولة، ولهذا نكلت بالأرمن خاصة، وأهلكت منهم نحو مليون نسمة تقتيلاً وتجويعاً وإغراقاً في دجلة والفرات وإنهاكاً في أسفار شاقة، وفي أعمال لا تحتملها الأجسام الضعيفة الخائرة. وجعل الأتراك يعاملون عرب الشام بالسياسة نفسها، ويسمونها سياسة الإفناء السريع، (إفناي سريع سياستي)، فكان لا بدّ من ثورة عربية تنقذ العرب من الفناء(٥٣). ولذلك لم تكد تنتهي الثورة العربية ضد الترك حتى بدأ الحلفاء ينفذون مخططهم، والدور الذي رسموه، بتقسيم البلاد بين الإنكليز والفرنسيين وفلسطين والعراق، وتمليك من ليس له حق باقتطاع أجزاء من هذه البلاد، وتجزئة سورية البلد الواحد إلى دويلات طائفية وإقليمية هزيلة. فاستؤنفت الثورات وتجدد النضال، وإن كان يظهر من خلال الأزمات بعض ضعفاء النفوس، ولكن رجال الوطنية والجماهير، التي بدأت تأخذ دورها في النضال. كانوا يسارعون

إلى سدّ الثغرات بما لديهم من وسائل، موجهين كل عنايتهم إلى تقويم الأخلاق وترسيخ المبادئ السامية في النفوس وتعزيز القيم الروحية وتقويتها، والدعوة دائماً إلى المثل الأعلى جنباً إلى جنب مع حمل السلاح ومقارعة الاستعمار، بكل صفاته والأساليب التي أتى بها، ومقاومة الأنظمة والعراقيل التي وضعها بقصد تمرير مخططاته الاستعمارية.

لذلك فإن الوصف النضالي لجماهير سورية (بلاد الشام) كافة، كان كبيراً جداً، ومحل فخر واعتزاز للأجيال القادمة ولسنوات عديدة. وبهذه العبارة الخالدة، التي آخر ما نطق بها البطل الشهيد عبد الغني العريسي وهو يقدّم إلى حبل المشنقة مع رفيقه البطل الشهيد عارف الشهابي (ستكون جماجمنا أول أساس للاستقلال).

تلك الجماهير التي مهدّت بدمائها وعرقها، وجهودها، طريق الاستقلال، وحفظت للبلاد كيانها، وصانت أخلاقها، ورسخت في نفسها أسمى المبادئ وأشرف الأخلاق.

كانت أمثولة في كل شيء، في أخلاقها، وتضحيتها، وبعد نظرها، وحسن تدبيرها للأمور، وتفانيها في سبيل الواجب الوطني، والتسابق إلى التضحية في كل ميدان، ولهم الفضل في التضحية والاستشهاد، وتمجيد أعمال البطولة والدفاع عن القضايا الوطنية، في الداخل بالالتجاء إلى القوة على اختلاف أشكالها، وفي الخارج بالدعاية المنظمة لها، وإجادة عرضها على الرأي العام.

لجأوا إلى المظاهرات والاضطرابات والثورات، كما لجأوا إلى الدعاية والمفاوضات حتى تحقق لهم ما أرادوا.

المصادر والمراجع

1) حدّد الدكتور عبد الكريم غرايبة في كتابه: **سورية في القرن التاسع عشر من ١٨٤٠-١٨٧٦** جامعة الدول العربية، دار الجيل للطباعة- القاهرة، ١٩٦١-١٩٦٢، ص ١٥ امتداد ساحل سورية بـ (١٧٣كم)، وعرض يتراوح بين (١٦٠-٣٠٠كم).

2) ذوقان قرقوط: **تطور الحركة الوطنية في سورية** -دار الطليعة – بيروت، الطبعة الأولى ١٩٧٥، ص٥.

3) ستيفن هامسلي لونغريغ: **تاريخ سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي**، ترجمة بيار عقل -دار الحقيقة، بيروت، ١٩٧٨، الطبعة الأولى، ص ٧.

4) غرايبة، **المصدر السابق**، ص ١٤.

5) محمد كرد على: **خطط الشام**، الجزء الأول، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٦٩، ص ٧.

6) وجيه كوثراني: **بلاد الشام في مطلع القرن العشرين**، معهد الإنماء العربي، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٠، ض ١٠.

7) ذوقان قرقوط: **المصدر السابق**، ص٥.

8) غرايبة: **المصدر السابق**، ص ٥٩-٦٠، وزين نور الدين زين: **الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سورية ولبنان**، دار النهضة، بيروت، ١٩٧١، ص ٨٢-٨٣.

٩) حسن الحكيم: **الوثائق التاريخية المتعلقة بالقضية السورية**، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤، ص ٨٥-٨٦. حيث رسم المؤتمر السوري حدود "سورية" بلاد الشام في مذكرته المقدمة إلى لجنة الاستفتاء الأمريكية في ٢ تموز، ١٩١٩ كما يلي: شمالاً جبال طوروس وجنوباً رفح فالخط المار من جنوب الجوف إلى جنوب العقبة الشامية أو العبقة الحجازية، وشرقاً نهر الفرات فالخابور والخط الممتد شرقي أبو كمال إلى شرق الجوف وغرباً البحر المتوسط.

١٠) عبد العزيز محمد عوض: **الإدارة العثمانية في ولاية سورية**، القاهرة، ١٩٦٩، ص ٨٠-٨١.

١١) عبد الكريم غرايبة: **المصدر السابق**، ص ٨٠-٨١.

١٢) Huvelin Paul: **que vaut la Syrie**, do cuments éconoiques , palitigues etscientifigue, pubilies a l'ASIE Francaie, "Decembre, 1921. p.8.

١٣) كانت الموصل من نصيب فرنسة بمقتضى اتفاق (سايكس-بيكو) الموقع في أيار عام ١٩١٦، ودخلت في منطقة النفوذ الفرنسية التي سميت "ألف". وهي تشمل دمشق وحمص وحماة وحلب ودير الزور والرقة والموصل إلى حدود العراق، ايران بالإضافة إلى المنطقة الزرقاء التي تشمل ساحل سورية. أنيس صايغ: **الهاشميون والثورة العربية الكبرى**، منشورات دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٦٦، ص ١١٨.

١٤) Samné G. la Syrie, Paris 1920, p. 111.

١٥) انظر الاتفاق العسكري بين فرنسة وإنكلترة والبلاغ الرسمي الذي نشر في باريس بتاريخ ١٧ أيلول سنة ١٩١٩، حول ذلك انظر وثائق ومعاهدات في بلاد العرب، إصدار **جريدة الأيام**، ص ١٣٤.

١٦) محمد جميل بيهم: **قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور**، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، مطابع دار الكشاف، بيروت، ١٩٥٠، ص ٣٨/ وساطع الحصري: **آراء وأحاديث في القومية العربية**، مطبعة الاعتماد بمصر ١٩٥١، ص ٣٦/ وأنيس صايغ: **المصدر السابق**، ص ١٣٤.

١٧) **الكتاب الأردني الأبيض**، ص ١٢-١٥، وهو النداء الموجه من قبل المؤتمر السوري الفلسطيني المنعقد في جنيف من ٢٥ آب إلى ٢١ أيلول، ١٩٢١، والموجه إلى المجمع الثاني العام لجمعية الأمم.

١٨) ذوقان قرقوط: **المصدر السابق**، ص ٦/ ورجب حراز: **الشرق العربي في التاريخ الحديث والمعاصر**، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٢٦٢.

١٩) أمين الريحاني: **ملوك العرب**، الجزء الأول، مطبعة صادر، بيروت، ١٩٢٤، ص ٥٢.

٢٠) الدكتور أحمد قدري: **مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى**، مطابع ابن زيدون بدمشق، ١٩٥٦، ص ٩٨.

٢١) لونغريغ: **المصدر السابق**، ص ٨.

٢٢) غرايبة: **المصدر السابق**، ص١٨.

٢٣) فريديريك زريق: **نهضة العرب**، مطبعة ابن زيدون بدمشق، ١٩٤٩، ص١٥.

٢٤) فريديريك زريق: **المصدر السابق**، ص ٩٤-٩٥.

٢٥) لونغريغ: **المصدر السابق**، ص٨-٩.

٢٦) ذوقان قرقوط: **المصدر السابق**، ص ٧.

٢٧) لونغريغ: **المصدر السابق**، ص ١٠.

٢٨) ذوقان قرقوط: **المصدر السابق**، ص ٨

٢٠) لونغريغ: **المصدر السابق**، ص ١٠.

٣٠) زين نور الدين زين: **المصدر السابق**، ص ١٣

٣١) زين نور الدين زين: **المصدر السابق**، ص ١٤

٣٢) زين نور الدين زين: **المصدر السابق**، ص ٢٠

٣٣) لونغريغ: **المصدر السابق**، ص ١١

٣٤) عبد الله حنا: **القضية الزراعية والحركات الفلاحية في سورية ولبنان** (١٨٢٠-١٩٢٠)، دار الفارابي، بيروت ١٩٧٥، الجزء الول، ص ١٦٠-١٦٠.

٣٥) لوتسكي: **تاريخ الأقطار العربية الحديث**، دار التقدم، موسكو، ص ٢٥٤.

٣٦) عبد الله حنا: **المصدر السابق**، ص ٦٢

٣٧) ذوقان قرقوط: **المصدر السابق**، ص ٩.

٣٨) عبد الله حنا: **المصدر السابق**، ص ٦٢

٣٩) ذوقان قرقوط: **المصدر السابق**، ص ١٠

٤٠) ز. ي. هيرشلاغ: **مدخل إلى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الأوسط**، ترجمة مصطفى الحسيني، دار الحقيقة، بيروت، ١٩٧٣، ص ٣٧.

٤١) عبد الله حنا: **المصدر السابق**، ص ١٨٥.

٤٢) أنيس صايغ، **المصدر السابق**، ص ١٥.

٤٣) يوسف الحكيم: **سورية والعهد العثماني**، الطبعة الثانية، دار النهار، بيروت، ١٩٨٠، ص ٥٧-٥٩/ **ومذكرات فخري البارودي**، مطابع عجة واتحاد، دمشق ١٩٥٢، الجزء الثاني، ص ١١٥.

٤٤) لوتكسي: **المصدر السابق**، ص ١٤٦.

٤٥) ينقل أنيس صايغ في المصدر السابق، ص ٤٣ ما كتبه قنصل بريطانية في القدس في أواسط القرن التاسع عشر من كتابه **"الأيام المضطربة"** في القسم الأول من الجزء الأول.

٤٦) أنيس صايغ، **المصدر السابق**، ص١٧.

٤٧) لوتكسي: **المصدر السابق**، ص ٣٩١.

٤٨) مصطفى الشهابي: **محاضرات في الاستعمار**، الجزء الثاني، معهد الدراسات العربية ١٩٥٦، ص ٥٠.

٤٩) أسعد داغر: **مذكراتي على هامش القضية العربية** (بدون تاريخ و مكان الطباعة)، ص ٤.

٥٠) خيرية قاسمية: **الحكومة العربية في دمشق**، دار المعارف بمصر، ١٩٧١، ص ٢٢.

٥١) مصطفى الشهابي، **المصدر السابق** والصفحة ذاتها.

٥٢) أسعد داغر: **المصدر السابق**، ص ٥.

٥٣) مصطفى الشهابي: **المصدر السابق**، ص ٥٢.

مبادئ للاستراتيجية الأمريكية
في المنطقة العربية في القرن التاسع عشر
والنصف الأول من القرن العشرين

الدكتور محمد حبيب صالح
قسم التاريخ
جامعة دمشق

مبادئ للاستراتيجية الأمريكية في المنطقة العربية في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين

الدكتور محمد حبيب صالح
قسم التاريخ
جامعة دمشق

الطريق نحو الهيمنة الأمريكية على المنطقة العربية:

كانت المنطقة العربية منذ القديم وما تزال إلى يومنا هذا تتمتع بأهمية استراتيجية خاصة، وتشكّل هدفاً للدول الاستعمارية، وكانت الصراعات الدولية، التي عاشتها في الماضي وتعيشها اليوم وستعيشها على الأغلب في المستقبل نظراً لتوفر كافة مقومات الصراع النتيجة الحتمية للتنافس والتزاحم الاستعماري للسيطرة عليها وعلى مقدّراتها وثرواتها.

ومن الواضح جداً أن المنطقة العربية تحتّل مكاناً هاماً وسط القضايا والمسائل الجيوسياسية بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية، وجعلت الإدارات الأمريكية المتعاقبة منذ مطلع القرن التاسع عشر من مسألة الهيمنة على هذه المنطقة المهمة رقم واحد في سلّم أولوياتها الاستراتيجية.

وتعود البدايات الأولى للنشاطات الدبلوماسية والاقتصادية للولايات المتحدة الأمريكية في المنطقة إلى النصف الثاني من القرن الثامن عشر حيث بدأت التطلعات الاستعمارية الأمريكية بشكل عام، ولم تختلف السياسة التي مارستها الولايات المتحدة في المنطقة العربية عن سياساتها العدوانية، التي مارستها في النصف الغربي من الكرة الأرضية (أمريكة الشمالية- أمريكة الجنوبية- جزر حوض المحيط الهادي). بعد قيامها مباشرة عام ١٧٧٦م، وبدءاً من عام ١٧٦٧م، أقام تجار من ذوي المراس والخبرة من بوسطن ونيويورك علاقات تجارية مع الشرق العربي، الذي كان يخضع للسيطرة العثمانية، غير أن الولايات المتحدة بدأت تمدّ جسور الاتصال الفعلية والمنظَّمة مع المنطقة العربية على إثر نجاح (ثورة) جورج واشنطن، وحصولها على الاستقلال عام ١٧٧٦م، في وقت كانت فيه الإمبراطوريات الاستعمارية الكبرى (بريطانية – ألمانية- فرنسة)، تمارس سياسات الاحتكار التجاري. وكان من الصعب على التجار وأصحاب السفن الأمريكيين دخول حلبة التنافس الدولي في المناطق التابعة للعالم القديم (حسب المفهوم الجغرافي)، ومع ذلك قرّروا العمل على إيجاد أسواق لهم، وبخاصة في المنطقة العربية عن طريق دفع الحكومة الأمريكية نحو طرح وتطبيق سياسة (الباب المفتوح)، حيث لقيت هذه الفكرة تجاوباً كبيراً من قبل الحكومة الأمريكية، التي أوعزت إلى ممثليها ودبلوماسييها في المنطقة العربية بتقديم المساعدات اللازمة والدعم المطلوب للتجار الأمريكيين.

وعكَسَ تبني الإدارة الأمريكية لسياسة (الباب المفتوح)، درجة حماسها ومدى إصرارها على تطبيق سياسات مدّ الجسور مع العالم القديم، وسرعان ما وجهت سفنها التجارية نحو البحر الأبيض المتوسط، وبرفقتها بعض القطع العسكرية، ودخلت في صراع حقيقي مع رجال البحر العرب في الشمال الإفريقي. فأرسلت الحكومة الأمريكية السير (توماس بارسلي) إلى المغرب للتفاوض مع ملكه، وانتهت المباحثات بالتوقيع على معاهدة تجارية في تموز ١٧٨٦م، أُعطيت بموجبها للولايات المتحدة

الأمريكية حقوق الدولة الأفضل، وفي عام ١٧٩٢م، اعترفت إدارة الرئيس جورج واشنطن باستقلال المغرب (مراكش)[1].

بعد التوقيع على المعاهدة التجارية مع المغرب (مراكش)، سعت الإدارة الأمريكية جاهدة إلى عقد معاهدات مماثلة مع الجزائر وطرابلس الغرب (ليبية)، غير أن المفاوضات التي أجراها مبعوثها (جون لامب) مع الداي حاكم الجزائر انتهت بالفشل، فاقترح عضو لجنة التفاوض (توماس جيفرسون) على حكومته فكرة بناء أسطول حربي أمريكي يتولى مهمة حماية السفن التجارية الأمريكية في البحر المتوسط، ودعم السياسات الأمريكية في الشرق.

في أيلول ١٧٩٣م، أصبح (توماس جيفرسون) وزيراً للخارجية الأمريكية فكلّف (دافيد همفري) بالتفاوض من جديد مع حكومة الداي في الجزائر، لكن الداي رفض مقابلته. ولدى مناقشة الوضع في الكونغرس الأمريكي تمّ اتخاذ قرار بإنشاء ست سفن حربية لاستخدامها في مواكبة السفن التجارية الأمريكية، وجعلها أداة ضغط عسكرية بيد الدبلوماسيين الأمريكيين لتمرير السياسات الأمريكية في الجزائر وتونس وطرابلس الغرب، وسرعان ما أُرسلت هذه السفن إلى حوض المتوسط بحجة حماية (المصالح القومية الأمريكية) وتوسيع (التجارة الحرة). وفي عام ١٨٠١م، وبقرار من توماس جيفرسون، الذي انتُخب رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية نفّذت القوات البحرية الأمريكية المتواجدة في البحر المتوسط بقيادة العميد (ريتشارد ويل) عدواناً واسع النطاق على طرابلس الغرب، وفي أيار ١٨٠٢م، وصل العميد البحري (ريتشارد موريس) إلى جبل طارق على رأس قوة بحرية أخرى، وفي حزيران، بدأ بمحاصرة طرابلس الغرب وتنفيذ اعتداءات متكررة ضدها، إلى أن اضطر حاكمها في الرابع من حزيران ١٨٠٥، إلى التوقيع على معاهدة وفق الشروط الأمريكية، حصلت الولايات المتحدة بموجبها على مركز الدولة الأكثر تفضيلاً[2].

واضطرت القوات البحرية الأمريكية في أواخر عام ١٨٠٦م، إلى الانسحاب من البحر المتوسط (عدا ثلاث سفن) بسبب التوتر الذي طرأ على العلاقات البريطانية الأمريكية آنذاك، وأُجبرت الإدارة الأمريكية إلى استخدام قواتها البحرية داخل مياهها الإقليمية، ولم يعد المشرفون على التجارة الأمريكية في حوض البحر المتوسط يمتلكون أداة الضغط العسكرية بين عامي ١٨٠٧-١٨١٥م.

غير أن الولايات المتحدة أعلنت الحرب على الجزائر في آذار ١٨١٥م، بعدما تمكنت من تسوية علاقاتها مع بريطانية، وجهّزت أسطولين حربيين: الأول بقيادة (ستيفان ديكاتور)، والثاني بقيادة (وليام بيزيدج)، وأمرتهما بالتوجه نحو الشواطئ العربية المتوسطية في إفريقية برفقة القنصل الأمريكي العام فيها. حيث تمكّن (ديكاتور) من فرض معاهدة صلح على الجزائر وفق الشروط التي وضعتها الحكومة الأمريكية، ومعاهدة أخرى على طرابلس الغرب في ٥ آب ١٨١٦م[٣]، ومنذ ذلك التاريخ بدأت عملية تكريس النفوذ السياسي والاقتصادي الأمريكي في المنطقة، وأمر وزير الخارجية الأمريكي (هنري كلي) بتشكيل مجموعات من الشباب التابعين للقوات البحرية الأمريكية من الذين يتقنون اللغتين العربية والتركية وإرسالهم للعمل في القنصليات الأمريكية في الجزائر وتونس وطرابلس الغرب[٤].

في عام ١٨١٩م بدأت البعثات التبشيرية البروتستانتية الأمريكية بالوصول تباعاً إلى منطقة الشرق العربي وأُضيفت إلى نشاطاتها رحلات الباحثين والرحالة الأمريكيين. وفي عام ١٨٣٤ - ١٨٣٥م كان (ج. ستيفن) أول مواطن أمريكي يُبحر عبر النيل من أسوان إلى الأقصر، وقام بعد ذلك برحلة إلى سيناء دوّن بعدها مخطوطاً طُبع في مجلدين جذب الكثير من القراء في الغرب[٥].

وتمكن الرحالة والجواسيس والباحثون الأمريكيون في الشرق العربي من بناء نخبة من الكوادر الأمريكية قامت بإعداد دراسات خاصة عن أوضاع المنطقة العربية

وبعثت بها إلى مراكز البحوث والدراسات الأمريكية التي عملت بدورها على تحليلها وتقديم النتائج التي توصلت إليها الإدارة الأمريكية، وبناء عليها كانت هذه الإدارة تخطط سياساتها في المنطقة وتعمل على زيادة نفوذها الاقتصادي فيها. وبدأت الإحتكارات الأمريكية منذ النصف الثاني نم القرن التاسع عشر مثل (شركة ستاندار أويل نيويورك) ببيع مادة زيت الكاز في مختلف أنحاء الإمبراطورية العثمانية بما في ذلك منطقة الشرق العربي التي كانت تخضع لسيطرتها، كما فتحت غرفة التجارة الأمريكية فروعاً لها في بيروت والقاهرة، وعملت على تنشيط حركة الاستيراد والتصدير من وإلى الولايات المتحدة الأمريكية، وأقدمت الشركات التجارية ورجال الأعمال الأمريكيين على شراء المحاصيل الزراعية ومواد أخرى من منطقة الشرق العربي(٦).

ومع بداية القرن العشرين وظفت رؤوس الأموال الأمريكية في مختلف مجالات الاستثمار الزراعي في بلاد الشام والعراق إلى جانب الاستثمارات الألمانية والبريطانية والفرنسية(٧) وترافق هذا النشاط الاقتصادي مع نظرية "ردع روسيا القيصرية" التي طرحها الأدميرال الأمريكي (أميهين) خلال عامي ١٩٠٠ - ١٩٠٢م والذي أصبح مؤرخا مشهوراً لتاريخ التجربة العسكرية الأمريكية فيما بعد. وقد تضمنت نظريته هذه وضع حدّ للنفوذ الروسي ولدور روسيا كدولة عظمى في السياسات الدولية عن طريق إقامة تكتل "قوى دولية بحرية" تحت إشراف الولايات المتحدة الأمريكية وبقيادتها، وإقامة مجال حيوي واسع يشمل منطقة الشرق العربي بكاملها بما في ذلك منطقة الخليج، وإدخالها في تعداد المناطق الحيوية العميقة للسياسات الأمريكية واستراتيجيتها المستقلة التي تهدف إلى الفرض التدريجي لسيادة الهيمنة الأمريكية على المنطقة العربية وصولا إلى الإمبراطورية الأمريكية العالمية(٨). لكن الدول الأوربية العظمى آنذاك (بريطانية، فرنسة، ألمانية) استمرت في اتباع سياسة التنافس والمزاحمة لتوظيف رؤوس الأموال الاستثمارية في اقتصاديات

الدولة العثمانية وبخاصة في الشرق العربي، مما دفع الولايات المتحدة الأمريكية إلى تنشيط مساعيها لكسب المزيد من الامتيازات، وتحسين مواقعها في ساحة التنافس الدولية. وجرت أهم المحاولات الأمريكية في هذا المجال أثناء زيارة الأميرال ك. تشيستر إلى القسطنطينية عام ١٩٠٨م كممثل لغرفة تجارة نيويورك وذلك من أجل إجراء محادثات مع السلطان حول امتيازات إنشاء الخطوط الحديدية والتنقيب عن النفط[٩]. وعندها أعطى السلطان وعداً من حيث المبدأ بإعطاء الأمريكيين امتياز إنشاء السكك الحديدية[١٠]. غير أن تنفيذ هذا الوعد تأخر بسبب الصراع والتنافس الحاد الذي وقع بين بريطانية وروسيا وفرنسة وألمانية حول هذه الامتيازات، وتعرضت الدولة العثمانية لضغوط كبيرة من الدول الأوربية العظمى، فاضطرَّت الإدارة الأمريكية للعدول عن الفكرة آنذاك[١١].

بعد مرور ثلاث سنوات على إلغاء الامتيازات الأمريكية بشأن الخطوط الحديدية، تمكنت الولايات المتحدة الأمريكية من الحصول على امتياز من الدولة العثمانية بالتنقيب عن النفط في صحراء النقب في فلسطين[١٢] "ومنذ ذلك التاريخ "يكتب المؤرخ السوفييتي المعروف بـ أسيبوف" أصبحت الإدارة الأمريكية تلعب دوراً واضحاً في الصراع الدولي على النفط في المنطقة العربية وفيما بعد في كل الصراعات الدولية السياسية للسيطرة على منطقة الشرق العربي بأكملها"[١٣].

ومن جهة ثانية ازدادت فعالية ونشاط الولايات المتحدة الأمريكية في الشرق العربي بشكل رئيسي مع بداية الحرب العالمية الأولى، فالأعمال العسكرية التي جرت بين عامي ١٩١٤ – ١٩١٨م وقعت بعيداً عن أراضي الولايات المتحدة الأمريكية، وجذبت الأسواق الأوربية والعالمية سيل من البضائع الأمريكية في وقت شلَّت حركة التصنيع والإنتاج في القارة الأوربية وبخاصة في بريطانية وفرنسة وألمانية وإيطالية بسبب الحرب، وأصبحت الولايات المتحدة الأمريكية المموِّل الرئيس والأساسي للسوق العالمية. وازدادت بشكل هائل حركة التصدير من الولايات المتحدة الأمريكية،

وتضاعفت ثلاث مرات خلال الحرب العالمية الأولى وترافق ذلك مع حركة تطور هائلة في الصناعات الأمريكية[١٤].

بهذه الدرجة تغيرت الحياة الاقتصادية في الولايات المتحدة الأمريكية خلال الحرب وبعد الحرب العالمية الأولى مباشرة الأمر الذي أدى إلى تكريس وتعميق النزعة التوسعية للولايات المتحدة الأمريكية نحو مختلف أصقاع الكرة الأرضية، في وقت تضاعفت فيه ثروات رجال الأعمال والتجار الأمريكيين، وبذلك تكون الحرب قد جعلت من الولايات المتحدة أقوى دولة في العالم من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية. وفي عام ١٩٢١م بلغت قيمة الديون التي قدمتها الإدارة الأمريكية للدول الأوربية خمسة عشر مليار دولار[١٥].

وأقلقت مسألة التزايد الكبير في التأثير الأميركي على العالم كل من بريطانية وفرنسة بشكل خاص، خاصة وأنهما كانتا لفترة طويلة من الزمن تستغلان مستعمراتهما في آسيا وإفريقية، ولا ترغبان في تراجع قوتهما الاقتصادية والسياسية والعسكرية والتخلي عن سياسات الهيمنة التي فرضتهما على الساحة الدولية لكن الاهتمامات الأمريكية توضّعت بعد الحرب مباشرة في المنطقة العربية وتبنّت الإدارة الأمريكية استراتيجية تهدف إلى تحويل المنطقة العربية بشكل متدرج إلى "منطقة صيد موروثة ومحمية" للولايات المتحدة الأمريكية. كما سنرى لاحقاً.

١"- مبدأ "التحديث" و "تعريب فلسطين" وبدعة "أرض الميعاد":

توضّعت حركة التبشير البروتستانتية الأمريكية في صلب الاستراتيجية الجديدة للولايات المتحدة الأمريكية مع نهاية العقد الثاني من القرن التاسع عشر بعد فشل الدبلوماسية الأمريكية في مجاراة سياسات الدول الأوربية العظمى والحصول على موقع مناسب لها في منطقة الشرق العربي. وبدأت الحركة نشاطها عام ١٨١٩م عندما وصل إليها ستون، مبشّراً بأمر من اللجنة الأمريكية للتبشير، راحوا يعملون على نشر

وتكريس المذهب البروتستانتي في الشرق العربي على امتداد خمسة وعشرين عاماً[١٦] وكان هدفهم المعلن إنشاء كنائس وأديرة محلية برئاسة دعاة من السكان المحليين، ودفع المسيحيين العرب الأرثوذكس إلى التخلي عن مذهبهم واعتناق المذهب البروتستانتي كخطوة أولى على طريق مدّ جسور الاتصال مع المنطقة، وترافق ذلك مع إعلان الإدارة الأمريكية التزامها بالدفاع عن البعثات التبشيرية البروتستانتية المتدفقة نحو المنطقة واستطاع السفير الأمريكي في القسطنطينية خلال أربعينيات القرن التاسع عشر أن ينتزع من السلطة العثمانية التي كانت تبسط سيطرتها على الشرق العربي "حق" الدفاع عن المبشرين البروتستانت، وأخبر القنصل الأمريكي في بيروت قائلاً: "المبشرون يعرفون بأنفسهم أنني أستطيع الدفاع عنهم. وأمتلك الصلاحيات التامة اللازمة لذلك، وليس من خلالكم فقط، وإذا تطلّب الأمر يمكننا استدعاء سفننا العسكرية الموجودة في البحر المتوسط"[١٧].

وتغلغلت حركة التبشير البروتستانتية في أصقاع الشرق العربي، وراحت تطبع الكتب البروتستانتية باللغة العربية، وعرّبت الإنجيل البروتستانتي ونشرته، وراحت تشنّ الحملات الدعائية والموجّهة لخدمة المصالح والأطماع الأمريكية في وقت قدمّت لها الإدارة الأمريكية بالإضافة إلى الدعم السياسي وحتى العسكري عندما تدعو الضرورة كميات كبيرة من الأموال وأشكال أخرى من المساعدات لتغطية كافة أوجه النشاط الذي كانت تقوم به[١٨]. وبفعل ذلك استطاعت حركة التبشير البروتستانتي الأمريكية أن تؤثر في المنطقة، وبدأت تروّج لمبدأ "التحديث" و"تغريب فلسطين" الذي لاقى رواجاً وقبولاً كبيراً قبل ذلك لدى البروتستانت الأنكلوساكسونيين في العالمين القديم والحديث[١٩]، ويتجلى جوهر مبدأ "التحديث" و"تغريب فلسطين" فيما يلي: "يجب بأية طريقة كانت الإعداد لعودة اليهود "المشردين" في مختلف أنحاء العالم إلى "أرض الميعاد" بالرغم من أن هذه الأرض معمورة بسكانها الأصليين العرب ولهم حضارتهم

المستقلة والمتميزة والتي لا تخرج جذورها الأساسية على الإطلاق من العادات والقيم اليهودية - المسيحية[٢٠].

في أواسط القرن التاسع عشر أقدم (ج. دونان ١٨٢٨ - ١٩١٨م) على تشكيل "جمعية الشرق العالمية" كنموذج خاص لتنفيذ مخططات "التحديث" البروتستانتية في الشرق وحدد لها التوجهات الرئيسية التالية:

١- العمل على تطوير الزراعة والصناعة والتجارة، والأنشطة الاجتماعية في الشرق العربي وبخاصة في فلسطين.

٢- الحصول على تراخيص وامتيازات من السلطان العثماني في القسطنطينية وفي كل الولايات التابعة للإمبراطورية العثمانية وبخاصة في فلسطين.

٣- شراء مساحات من الأراضي عن طريق الشركات الغربية وذلك من أجل استثمار أكبر مساحة ممكنة من الأراضي الخصبة في الأرض المقدسة فلسطين[٢١].

وضعت الجمعية في الحسبان مسألة الانتقال التدريجي لملكية الأرض في فلسطين واستغلال اليد العاملة الرخيصة فيها، وتشغيل المهاجرين الذين سيتم جمعهم فيها، وتوظيف رؤوس الأموال الغربية وفق شروط ضريبية سهلة للغاية على أرض فلسطين، ويقول (ج دونان) بهذا الخصوص ما يلي: "تحتاج فلسطين كما هو معروف فقط إلى جهد بشري قاد على نقل مجتمعها إلى الازدهار، إنها واحدة من البلدان الأكثر روعة وملاءمة على وجه الكرة الأرضية...يجب تنشيط التجارة فيها، وإحداث المشاريع الصناعية، وتحديث القطاع الزراعي وجذب التجار والمستثمرين والرأسماليين إليها[٢٢]".

بهذه الدرجة من الحماس والاندفاع طرح (ج دونان) فكرة "تغريب فلسطين" عن طريق ذوي التأثير والنفوذ من الزعماء اليهود والمسؤولين الحكوميين في بريطانية

وفرنسة وألمانية. لكن الفكرة لم تحصل على الدعم اللازم آنذاك في الأوساط السياسية الأوربية. غير أن الحكومة الأمريكية أخذت بها، وراحت تعمل بالتدريج لتطبيقها دون أن تثير أية ضجة أو حتى أي انتباه إليها من قبل الآخرين بعدما فهمت أن فكـــرة (ج دونان) هذه يمكن أن تحول فلسطين إلى رأس جسر لها من خلال جعلـــها مســتعمرة يهودية بالاعتماد على رأس المال الذي سيخصص لذلك من مصادر عالمية مختلفـــة، وتحويلها بالتدريج إلى دولة تستمد أسباب وجودها واستمرارها من الـــدول الغربيـــة وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية. وتشهد تقارير القنصليات الأمريكية التي كـــانت تعمل في فلسطين والمناطق المحيطة بها، والأجوبة الرسمية التي كان يرسلها موظفـو وزارة الخارجية الأمريكية المختصين بالشرق العربي في النصف الثاني من القـــرن التاسع عشر على الأهمية الخاصة التي كانت توليها الأوساط الحكوميـــة الأمريكيـــة لفكرة "التحديث" البروتستانتية وكان القناصل دائماً يصرون على ضرورة التأكيد علـى "الأخلاق البروتستانتية" والترويج "للقيم اليهودية - البروتستانيتة" في الشرق العربـــي، ونشرها على نطاق واسع.وقد تبنّى معظم المسؤولين الحكوميين في الولايات المتحـــدة الأمريكية هذه الفكرة بعد ما تمت تربيتهم عليها منذ الطفولة(٢٣).

وفي معظم الكتابات والتقارير والمذكّرات التي نظمّها وكتبها الرحّالة والمستكشـــفون والمبشرون البروتستانت في تلك المرحلة تأكيد على ضرورة خلق وتنشـيط وتفعيـل الحياة والأنشطة اليهودية في فلسطين. وأكّد أوليفانت الشخصية المعروفة في أوروبـة، والذي هاجر إلى فلسطين على الأهمية الخاصة لهذه المسألة في كتاباته الكثيرة، التـي نشرها على صفحات نيويورك سان(٢٤). وفي عام ١٨٨٧م، تمّ جمـــع كتاباتـــه التـي يرسلها بشكل مستمر في كتاب تحت عنوان "حيفا أم الحياة فـــي فلســطين الحديثـة"، ويدعو فيها اليهود والمسيحيين البروتستانت إلى تقديم الدعم الروحي والمادي لمســألة التوطين اليهودي الواسع النطاق في أرجاء فلسطين(٢٥). وقد أعطى أوليفانت، أهميـــة خاصة جداً لمسألة إزالة الخمول لدى اليهود الأوروبيين الشرقيين واليـــهود الـروس

بشكل خاص، وذلك من أجل دعم مسألة الاستيطان اليهودي في فلسطين[٢٦]. وكتب في تقرير له أرسله من مدينة حيفا في ١٧ نيسان ١٨٨٣م ما يلي: "لا تصطدم الشركات الزراعية الأوروبية على (أرض الميعاد) مع المواقف المعارضة من قِبَل النظام المحلي بقدر ما تصطدم مع أخوتها الأوروبيات في العقيدة[٢٧]. وبرأي أوليفانت على يهود الولايات المتحدة الأمريكية والبلدان الأوروبية أن يقوموا بفعل كل ما من شأنه تسهيل عودتهم الأكيدة إلى فلسطين وتحويلها إلى دولة يهودية متطورة قادرة على العيش، حسب وصية الكتاب المقدس وتنفيذاً لها"[٢٨]. كما يلاحظ بشكل واضح في كتابات أوليفانت أيضاً كما في كتابات غيره من المبشرين والرحّالة والمستكشفين البروتستانت في الشرق العربي، التي أرسلت من الأرض المقدسة فلسطين تغييب كامل لأي ذكر لحقوق العرب سكان فلسطين الأصليين والشرعيين عبر تاريخها الطويل والذين كانوا يشكّلون آنذاك الغالبية الساحقة من سكانها"[٢٩]. وعن طريق دعاية التبشير البروتستانتية والجمعيات البروتستانتية، التي أُسّست في الشرق العربي تمّ الترويج لأفكار وطروحات تدعو إلى ضرورة القيام بحملة "تحديث وتطوير حضارية في فلسطين"، بإدخال العنصر اليهودي إليها على أن يتبع ذلك طرد منظّم للعرب من فلسطين، وجرى تصوير مسألة إقامة الدولة اليهودية على أرض فلسطين على أنه "إرادة ربّانية تتجاوب مع نبوءة الكتاب البروتستانتي المقدس"[٣٠].

وكانت الأنشطة والفعاليات الرسمية وغير الرسمية للأوساط الحاكمة في الولايات المتحدة الأمريكية قوية للغاية في منطقة الشرق العربي على الرغم من أنها لم تكن تعدّ حتى ذلك الوقت واحدة من القوى الفاعلة على حلبة الصراعات الدولية حول الشرق العربي. لكن الولايات المتحدة ركّزت على صلاتها غير الرسمية مع سكان المنطقة وبخاصة فلسطين أكثر بكثير من الدول الأوروبية الأخرى، ووقع موقفها في علاقاتها مع فلسطين تحت تأثير الضغط الهائل للبروتستانتية بغية توجيه سيل من المهاجرين اليهود إليها من مختلف أنحاء العالم وتحويلها بالتدريج إلى "دولة يهودية"، وحال هذا

الأمر دون اقتراب الإدارات الأمريكية المتعاقبة من حقيقة الوضع القائم في منطقة الشرق العربي، وبقيت ترى الأحداث والتطورات التي كان يشهدها بعين بروتستانتية ويهودية.

وكان الموقف الأمريكي في الوقت نفسه يتوافق على الغالب مع المصالح والتطلعات الاستراتيجية المستقبلية للولايات المتحدة، وعلى حساب الشعب العربي المالك الحقيقي للشرق العربي وباني حضارته، ومالك تراثه، ومما كان يدفع الولايات المتحدة الأمريكية إلى اتخاذ مثل هذا الموقف هو أنها كانت مقتنعة تماماً بأن رأس المال اليهودي الكبير، وتأثير اليهود الواسع النطاق في العالم سيقودها في المحصلة النهائية إلى احتلال الموقع الأفضل في الساحة الدولية، في وقت كانت تراقب فيه النشاط الصهيوني الكبير في أوروبة، والذي نتج عنه اتخاذ الخطوة العملية الأولى على طريق السيطرة على فلسطين عندما قام اليهود بالتنسيق مع الرأسمالية الأوروبية بتأسيس المنظمة الصهيونية العالمية في مؤتمر بازل ١٨٩٧م، كمنظمة سياسية للبدء بتفعيل نشاطاتها على أرض فلسطين تمهيداً لانتزاع أراضيها من أيدي سكانها الحقيقيين وإقامة دولة يهودية عليها.

بعد مؤتمر بازل، أصبحت الدبلوماسية الأمريكية تجاه منطقة الشرق العربي أكثر ارتباطاً بالحركة الصهيونية العالمية من جهة وببريطانية العظمى من جهة ثانية، خاصة وأن بريطانية كانت شريكتها الرئيسية في الإشراف على البعثات التبشيرية البروتستانتية وحمايتها في المنطقة، وتولّت معها عملية التنسيق والإشراف عليها والدفاع عنها عندما كانت الضرورة تدعو إلى ذلك لدى السلطات العثمانية في القسطنطينية، وكانت للإدارة الأمريكية غاية مزدوجة من عملية التقارب الكبيرة مع بريطانية في تلك الفترة فقد أرادت:

أولاً: دفع بريطانية إلى تنفيذ الخطوات الأولى على طريق إقامة الكيان اليهودي في فلسطين، وإلقاء ما يمكن أن يترتب على ذلك من نتائج وتبعات عليها إذا فشلت في وضع الفكرة الصهيونية موضع التنفيذ.

وثانياً: كانت تسعى لكسب ودّ البرجوازية والرأسمالية اليهودية في بريطانية نفسها والتنسيق في المستقبل معها عندما تحين الفرصة المناسبة لتعميق وتكريس نفوذ الولايات المتحدة الأمريكية في الشرق العربي.

بهذا الشكل أصبحت فلسطين العربية وبسبب المطامع الاستعمارية والنشاطات الموجهة للبعثات التبشيرية البروتستانتية هدفاً لتحقيق فكرة أو مبدأ "التحديث" و"تغريب فلسطين"، وبدعة عودة اليهود إلى "أرض الميعاد"، بعدما أصبحت فلسطين تعيش وضعاً خاصاً في السياسات الدولية، وفي وقت كان فيه الرأي العام في أوروبة والولايات المتحدة الأمريكية جاهزاً لتقبل سياسات حكوماته بسبب الدعاية البروتستانتية الداعية إلى تحقيق حلم "شعب الله المختار"، في العودة إلى "أرض الميعاد".

أما فيما يتعلق بالسياسات الأوروبية فقد تجمعت حول هذا الهدف ونظرت إلى فلسطين ومستقبلها من زاوية مصالحها وأطماعها الاستعمارية فيها، وكانت روسية القيصرية هي الدولة الأوروبية الوحيدة التي استمرت في سياساتها التقليدية السابقة تجاه فلسطين والشرق العربي القائمة على مقاومة تأثير الدعاية البروتستانتية على الأرثوذكس من خلال الجمعية الأرثوذكسية الإمبراطورية في فلسطين، واستمرت في محاولاتها لامتلاك بيت لحم، والحفاظ على سمعتها ونفوذها في الشرق[٣١].

٢- دعم الحركة الصهيونية العالمية:

أدّى نجاح البعثات التبشيرية البروتستانتية لمبدأ "التحديث" و"تغريب فلسطين"، ومبدأ عودة شعب الله المختار" إلى "أرض الميعاد" إلى تزايد قوة التأثير لدى مجموعات

الضغط اليهودية على التجار وأصحاب البنوك والصناعيين في العالم وبخاصة في أوروبة والولايات المتحدة الأمريكية في ثمانينيات القرن التاسع عشر، وتوحدت وتعززت سياسات القوى التي تقبلت فكرة إقامة "الدولة اليهودية"، المتوضعة في صلب المبادئ والتطلعات اليهودية-البروتستانتية الموجهة ضد العرب وضد الأرثوذكسية على اعتبار أن معاداة الأرثوذكسية كان الشكل الظاهري للنشاط البروتستانتي وانصهرت اليهودية و"التحديث" البروتستانتي وتهويد فلسطين في بوتقة الصهيونية السياسية وتحرك الروتشيلديون عبر لجنة الاستيطان اليهودية، التي أسست في فلسطين عام ١٨٨٢م، وراحوا يشترون الأراضي الخصبة في فلسطين من الدولة العثمانية تنفيذاً لخطة الاستيطان التي تم اعتمادها من قبل جماعة "التحديث" البروتستانتية[٣٢]. ولاقوا الدعم من قبل الدولة العثمانية التي كانت تهتم في تلك المرحلة وبسبب وضعها الاقتصادي بجذب رؤوس الأموال والاستثمارات الأجنبية.

وبذلك بدأت ترتسم الخطوط العريضة للأطماع الصهيونية والغربية التي لم تقتصر على فلسطين وحدها آنذاك، وحدد أحد الزعماء الصهاينة آنذاك ويدعى (آحاد عام) مستقبل "الدولة اليهودية" بقوله: "إنها كملجأ في المستقبل لكل اليهود في العالم ولروحنا القومية، ويجب أن يشارك في بناء وتوسيع هذه الدولة كل يهود العالم"[٣٣]. كما وصفها هرتزل، الذي أصبح فيما بعد الأب الروحي للصهيونية بقوله: "إنها الدولة التي سيتوجه إليها الأغنياء اليهود الذين سيضطرون إذن بهلع وجبن إلى إخفاء ثرواتهم، وسيلقون وراء الأمواج الهائجة أحزانهم وكآبتهم، وسيعيشون في أماكن جديدة بإرادتهم"[٣٤]. ومن المؤكد أن العرب الذين كانوا يشغلون الغالبية الساحقة لسكان فلسطين لم يشعروا في البداية بالخطر الحقيقي المحدق بهم على الرغم من أن العداء للعروبة في فلسطين كان واضحاً للعيان ففي عام ١٨٩٥م، نفى هرتزل وجود الشعب العربي في فلسطين وسمح لنفسه بتسمية فلسطين "بلاد بلا شعب"[٣٥].

وتوجت النشاطات البروتستانتية - اليهودية بانعقاد المؤتمر الصهيوني الأول وتأسيس الحركة الصهيونية العالمية في مدينة بازل السويسرية عام ١٨٩٧م، وفي الجلسة الافتتاحية للمؤتمر تم وضع برنامج الحركة الصهيونية القاضي بإقامة "وطن قومي لليهود في فلسطين"، لضمان ما يسمى "الحقوق الإنسانية لليهود"، ولتحقيق هذا الهدف قرر المؤتمر ما يلي:

"إن غاية الصهيونية هي خلق وطن للشعب اليهودي في فلسطين يضمنه القانون العام" أما وسائل تحقيق هذا الهدف فهي:

١- العمل على استعمار فلسطين بواسطة العمال الزراعيين والصناعيين اليهود وفق أسس مناسبة.

٢-تنظيم اليهودية العالمية وربطها بواسطة منظمات محلية دولية تتلاءم مع القوانين المتبعة في كل بلد.

٣-تقوية وتغذية الشعور والوعي القومي اليهودي.

٤- اتخاذ الخطوات التمهيدية للحصول على الموافقة الحكومية الضرورية لتحقيق الغاية الصهيونية(٣٦).

يتضح من برنامج بازل أن الصهيونية كحركة عنصرية ذات طبيعة استعمارية استيطانية تهدف إلى اقتلاع جذور اليهود من مجتمعاتهم التي يعيشون فيها وينتمون إليها ودفعهم عبر موجات هجرات متواصلة إلى فلسطين العربية لخلق "دولة قومية يهودية" فيها، ومعنى ذلك أن الصهيونية قررت عامدة تحويل اليهود في المجتمعات الغربية إلى مهاجرين فمستوطنين ومحتلين للأراضي العربية الفلسطينية. أما الاستراتيجية الأساسية لهذا المخطط فتعتمد على رعاية الدول الاستعمارية التي كانت حينذاك تفرض "القانون الدولي.

بهذا الشكل تكون البروتستانتية والحركة الصهيونية العالمية التي هي في الواقع نتاجها نجحت في نفخ روح الحياة في فكرة (ج دونان)، ولم يـــأخذ الصهاينـــة أي حســاب للعرب، ولا لأي جهة أخرى في العالم، وفي عام ١٩١١م كتبت صحيفـــة (غــولام) الصهيونية التي كانت تصدر في فلسطين: "نسينا أن العرب يعيشون في فلسطين وهــم هنا منذ زمن بعيد... ولم نعطهم أية أهمية أو انتباه، ولم نحاول في يوم من الأيام إيجاد أصدقاء لنا بينهم"(٣٧).

وبدأ ظهور المهاجرين اليهود في فلسطين على حساب ســـكانها الأصليـين العــرب واغتصاب حقوقهم، وتشكلت الوكالة اليهودية في فلسطين، وراحت تمارس نشـــاطاتها فيها على أسس عنصرية، وراحت تخلق المبررات اللازمة للوصـــول إلـــى مرحلــة المواجهة بين العرب واليهود على أرض فلسطين واستخدام الســـلاح ضــد العــرب وطردهم منها عبر حملات إرهاب منظمة، وفي كـــانون الأول ١٩١٢م تــم تأســيس المنظمة العسكرية الصهيونية "هيستدرو غاستمير" على يد الصـــهيوني (ي.شـــاحات) والتي كان عليها أن تنشط على أرض فلسطين خلال خمس سنوات، ووضعت أمامـــها منذ البداية هدف الدفاع عن الكيان اليهودي ضد جيرانه العرب، وفي ظل الأوضـــاع السياسية التي كانت سائدة آنذاك تطلب الأمر من المنظمـــات العســكرية الصهيونيــة مضاعفة جهودها وتوسيعها، ولخص شاحات تلك المرحلة بقوله: "نحن نعيش مرحلـــة انتقالية خطيرة يمكن خلالها أن تضعف سلطة الدولة العثمانية، ومن الممكن أيضـــاً أن تحدث تغيرات مفاجئة في المستقبل القريب، لذلك يجب علينا في هذه المرحلة الخطيرة أن نعدّ كل المزارعين والعمال لاستخدام السلاح للمشاركة بشكل فعّال للدفـــاع عــن كياننا"(٣٨).

بهذه الصورة تم توجيه السياسات الصهيونية بشكل مباشر لتأسيس محميـــة احتلاليـــة يهودية في فلسطين قادرة على التحرك الفعال ضد السكان المحليين إذا فكروا بالوقوف في وجه المخططات الصهيونية، وتشكيل مجموعات مقاومة مســلحة لصــد الخطــر

الصهيوني، وتحركت مجموعات هرتزل ولازر وأوبنهايم وشيف وكونا وليب وبقية مالكي رؤوس الأموال والصيارفة اليهود آخذين بالحسبان أنه آن الأوان، وحلت الفرصة الذهبية لتقسيم العالم بين الدول الإمبريالية الكبرى، وإقامة كيان يجمع نشطاء اليهود وزعمائهم الروحيين والماليين، هذا الكيان الذي سيؤمن لهم حسب اعتقادهم. أرباحاً طائلة من خلال ممارسة أنشطة تجارية ومالية أوسع على المستوى العالمي وقد علّق على ذلك الباحث الصهيوني المعروف (ف إرليخ) بقوله: "إذا كان الشعب اليهودي قد تمكن خلال تحركه المقدس من الوصول بشكل أو بآخر إلى فلسطين وبدأت مباشرة المشكلة الفلسطينية فإنه لو تأخرت الحركة الصهيونية في الظهور عشرين أو ثلاثين عاماً لما استطاعت بأي شكل من الأشكال أن تحقق هدفها، ولتطور الكيان الفلسطيني في كيان قومي وتركيبة قومية، ولقطع الطريق على الحركة الصهيونية في النفاذ إلى فلسطين، ووصلت الحركة الصهيونية إلى فلسطين في اللحظات الأخيرة، ونجحت إلى حد كبير في تحقيق أهدافها وغاياتها الأولى، لكنها لم تستطع تجنب المواجهة، وكان الفلسطينيون في موقف ضعيف للغاية، وغير قادرين على الوقوف في وجه الغزو اليهودي الصهيوني، لكن ليس إلى الحد الذي يدفعهم إلى التعايش معهم"(٣٩).

وبدت عملية استعمار فلسطين واستيطانها في حينها من قبل الصهاينة للصيارفة اليهود و التجار ورجال الأعمال منهم مرتبطة إلى حد كبير مع الدبلوماسية السرية للولايات المتحدة الأمريكية، وبضغط من الحركة الصهيونية العالمية أدخلت المسألة الفلسطينية بسرعة في سياسات الدول الأوربية الكبرى وبالتنسيق مع الحركة الصهيونية راحت الولايات المتحدة الأمريكية تتدخل في القضايا الأوربية تمهيداً لدخول حلبة المنافسة في الساحة الدولية ومواجهة استراتيجيات معينة اتجاه مناطق مختلفة من العالم بما في ذلك منطقة الشرق العربي، ورأت الولايات المتحدة في حينها أنها قادرة على دخول

المنطقة تحت شعار الدفاع عن "حقوق اليهود" في أي مكان وجدوا فيه و بخاصة في فلسطين(٤٠).

وحركت الحرب العالمية الأولى جملة من الأحداث والتطورات التي أدت إلى سقوط الدولة العثمانية، وشكلت فاصلاً في تاريخ منطقة الشرق العربي، ووقفت طموحات الدول الأوربية الرامية إلى إشباع طموحاتها الاستعمارية حائلاً دون تحقيق آمال وطموحات الشعب العربي في الحرية والاستقلال. وازداد زخم الدبلوماسية الأمريكية، واتخذت الإدارة الأمريكية من إلغاء الباب العالي للامتيازات الأجنبية في تشرين الأول ١٩١٤ مبرراً لسياستها الجديدة، وكان همّها الأول خلال الحرب العالمية الأول حماية المؤسسات التبشيرية البروتستانتية في الشرق على اعتبار أنها كانت المسؤولة بالدرجة الأولى عن تعميق وتكريس المصالح الأمريكية فيها، ورعى السفير الأمريكي في القسطنطينية (هنري مورجينثاو) بكل حماس مصالح المبشرين البروتستانت، وقدم لهم المساعدات المالية اللازمة خلال الحرب بالتعاون مع مدير شركة ستاندرو أويل، ولم يعتمد المبشرون على خدمات السفير الأمريكي فحسب،بل استطاعوا أيضاً الاعتماد على الرئيس ويلسون نفسه، وأعادت حكومته سياسة ((الباب المفتوح))، وأعطت الأفضلية للمبشرين الذين لعبوا بعد عام ١٩١٥م دوراً مسيطراً في تكوين سياسة الولايات المتحدة الأمريكية اتجاه منطقة الشرق العربي(٤١).

وتحت قيادة الرئيس ويلسون تجاوبت الدبلوماسية الأمريكية مع طلب الصهاينة الأمريكان بتقديم المساعدات والعون ((للمجتمع اليهودي المسحوق في فلسطين))، فقد أعلم القنصل الأمريكي في القدس بعد نشوب الحرب العالمية الأولى بوقت قصير السفير الأمريكي في القسطنطينية (مورجينثاو) أن اليهود بحاجة إلى المساعدة، وطلب معونة مالية لهم. وبقي الدبلوماسيون الأمريكيون ((يدافعون عن اليهود)) في فلسطين لأن الدبلوماسيين الأوربيين كانوا قد غادروا الإمبراطورية العثمانية، ((وكان السفير

الأمريكي – كما يدعي توماس – متفهم وليس متعاطف مع الأهداف الصهيونية، ويمثّل الأمل الرئيسي بالنسبة لليهود، وقد استجاب لمطالبهم))[٤٢].

واتفقت الإدارة الأمريكية مع السلطات العثمانية والبريطانيين والفرنسيين على إرسال شحنات المعونة والمساعدات إلى ((يهود فلسطين))، وقدم السفير الأمريكي المساعدة لسفن الأسطول الأمريكي لنقل ما طلبه ((يهود فلسطين)) خلال الحرب، وعكس هذا التعاون مدى انجرار الولايات المتحدة الأمريكية في سياساتها المتعاطفة مع الحركة الصهيونية ودورها الفاعل في الحفاظ على اليهود الصهاينة في فلسطين. وتمكنت هذه الحركة بسبب ذلك من إنهاء وبلورة خطة تكتيكية قبيل انتهاء الحرب العالمية الأولى تقوم على المبادئ والأسس التالية:

١-فرض الحماية البريطانية على فلسطين بعدما لاحت في الأفق بوادر النصر للحلفاء.

٢-التفاهم مع بريطانية فور حصولها على حق فرض الحماية على فلسطين والسماح بإدخال مليون مهاجر يهودي إلى فلسطين خلال ٢٠-٣٠ سنة.

٣-الاتفاق على نظام الحماية مع بريطانية بحيث توضع فلسطين تحت إدارة اليهود الذين سيستمرون في خدمة المصالح البريطانية في منطقة قناة السويس وضمان الدفاع عن هذا الممر البحري الهام[٤٣].

من جهتها تبنت الإدارة الأمريكية الخطة التكتيكية الصهيونية، وسعت إلى إيجاد وخلق الظروف المناسبة للإسراع في تنفيذ المشروع الصهيوني، وعرض الرئيس ويلسون في حزيران ١٩١٧م، على الدولة العثمانية خطة طرحتها الحركة الصهيونية العالمية، تقضي بالتفاوض مع بريطانية للخروج من الحرب العالمية الأولى، وإنهاء الحرب في الشرق.

لكن القوات البريطانية والفرنسية تمكنت من سحق القوات العثمانية في فلسطين، خريف عام ١٩٧١، بقيادة الجنرال اللنبي، فكثفت الحركة الصهيونية نشاطها في الولايات المتحدة وعملت كل ما من شأنه حمل إدارتها على إعطاء المشكلة الفلسطينية طابعاً دولياً، واستطاعت الحركة الصهيونية بالتعاون مع الإدارة الأمريكية ولاعتبارات تكتيكية واستراتيجية إلقاء مهمة تنفيذ المشروع الصهيوني في فلسطين على كاهل بريطانية آخذة بالحسبان ما يمكن أن يترتب عليه من تبعات على العلاقات البريطانية العربية وعلى أن تقدم الإدارة الأمريكية من جانبها كل أشكال الدعم السرّي للحركة الصهيونية إلى أن يحين الوقت المناسب لإظهاره، خاصة أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت قد تحولت خلال الحرب إلى دولة عظمى من الناحيتين العسكرية والاقتصادية، وكان لابد لها من تعميق وتكريس نفوذها في منطقة الشرق العربي وبالتحديد في مناطق إنتاج النفط في الخليج العربي والعربية السعودية، كخطوة لابد منها لدخول حلبة التنافس الدولي من أبوابه العريضة وبعدما أثبتت الحرب الأهمية الفائقة للنفط والسيطرة على منابعه.

٣- وضع حجر الأساس لإقامة المحمية الاستيطانية الصهيونية (إصدار وعد بلفور ١٩١٧م)

كان تجاوب الحكومة البريطانية مع مطالب الحركة الصهيونية سريعاً للغاية، وبعث وزير خارجيتها (آرثور جيمس بلفور) رسالة إلى نائب رئيس الفيدرالية الصهيونية - البريطانية اللورد روتشلد تضمن ما يلي: ((إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين[٤٥] العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وإنها مستعدة لاتخاذ كافة الإجراءات اللازمة لتحقيق هذا الهدف، وإنها لن تقوم بأي عمل من شأنه أن يلحق الضرر بالسكان أو الحقوق المرعية في فلسطين..))[٤٤] ودخلت هذه الرسالة في التاريخ تحت اسم وعد بلفور. وكانت النتيجة المباشرة للمباحثات الطويلة التي أجراها

حاييم وايزمان رئيس المنظمة الصهيونية البريطانية مع أعضاء المكتب العسكري البريطاني ورئيسهم لويد جورج الذي أصبح رئيساً للوزراء البريطاني عام ١٩١٦م[٤٥]، حيث أخذت الحكومة البريطانية آنذاك وبشهادة رئيس وزرائها نفسه في الحسبان أن دعم المنظمات الصهيونية سيؤدي إلى تحويل فلسطين العربية، التي أصبحت من مخلفات الدولة العثمانية المهزومة إلى (مركز سياسي وروحي للقومية اليهودية العالمية)، والتأثير على اليهود في العالم، واستخدام إمكانات الصيارفة وأصحاب البنوك منهم لدعم بريطانية بعدما فقد الحلفاء احتياطاتهم من الذهب والعملة الصعبة بسبب الحرب، والتي سخرت لتغطية ثمن الأسلحة والبضائع والواردات الأخرى من الولايات المتحدة لأمريكية[٤٦]، وسعى اليهود الصهاينة في أوانها إلى تضخيم الصورة المتوقعة لتلك المساعدات وتسخيرها لخدمة الدعاية الصهيونية، وارتبط ذلك بشكل رئيسي بإمكانية استخدام بريطانية لهذا الوعد على شكل أداة أو وسيلة لتأييد بقية دول الحلف للمشروع الصهيوني.

ومنذ صدور وعد بلفور وإلى اليوم وغالبية المؤرخين تعتقد بريطانية هي الدولة الوحيدة، التي صاغت الوعد وقدمته هدية للحركة الصهيونية ورعته وأشرفت على تنفيذه. لكن والحق يقال: إنّ مسؤولية الولايات المتحدة الأمريكية لا تقل عن المسؤولية البريطانية، صحيح أن بريطانية قامت بكل هذا وكانت السبّاقة في تقديم خدماتها للحركة الصهيونية غير أنها لم تكن الوحيدة والدور الأمريكي في هذا المجال لم يكن أقل خطورة من الدور البريطاني، إن لم نقل إنه وبشكل مشترك من قبل حكومتي الدولتين في آن معاً. ومنذ عام ١٩١٤م، أي قبل صدور وعد بلفور بثلاث سنوات قام (ل. برانديس)، ممثل المنظمة الصهيونية في الولايات المتحدة الأمريكية بفعل كل ما من شأنه إعلان هذا الوعد وبوساطة برانديس حصلت بريطانية على تأكيدات شفهية أدلى بها الرئيس الأمريكي ويلسون أعرب فيها عن دعمه للحركة الصهيونية في إقامة (وطن قومي لليهود في الشرق الأوسط[٤٧]. وجرت بعدها مراسلات بين وزير

الخارجية الأمريكي (لانسينغ) وبرانديس وكذلك (س. أوعـيز)، و(ف. فزانكفوتـير)، و(ج. دي خاعاس). خلال عامين متتالين دون انقطاع حول تعاون وزارة الخارجية الأمريكية والمسؤولين عن السياسات الخارجية في الولايات المتحدة من الذين تتوافق أفكارهم مع الفكر الصهيوني حول مسألة إستعمار فلسطين وتحويلها إلى (دولة يهودية)(٤٨).

وركّزت الحركة الصهيونية آنذاك جلّ اهتمامها لكسب الشخصيات التي تحيط بالرئيس ويلسون بالذات، وهنا لا بدّ من ذكر أسماء بعضها مثل العقيد (إيدف هاوزا)، الذي ارتبطت به إلى حدّ كبير السياسات الخارجية الأمريكية خلال تلك الفترة، ويمكن الحكم على نتيجة تلك الاتصالات من رسالة (أوعايزا) إلى (برانديس المؤرخة في ٧ شباط ١٩١٧م، والتي تضمنت ما يلي: "لقد أرسلت إلى العقيد هاوزا الوعد المتعلق بمسألتنا فكتب لي ما يلي: أنا آمل بأن الحلم الذي نتقاسمه سوية سوف يتحقق في القريب العاجل")(٤٩). وهذا يؤكد أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت على علم مسبق بمسألة وعد بلفور قبل صدوره بحوالي تسعة أشهر، وأعطت موافقتها الضمنية عليه. وبعد رسالة (أوعايزا) بفترة وجيزة صرّح (أوعايزا) تنفسه أن (برانديس) مهتم بنجاح اليهود في مهمتهم أكثر من اليهود أنفسهم(٥٠).

وبذلك تثبت رسالة (أوعايزا) وتصريحاته، ومقاطع أخرى مشابهة وردت في رسائل الصهاينة الأمريكيين إلى قيادة المنظمة الصهيونية العالمية أن سياسة الرئيس الأمريكي ويلسون اتجاه الحركة الصهيونية تنبع من جذور (التحديث) البروتستانتي المتحالف مع الصهيونية وكان يميل كل الميل إلى تقديم كافة ما تطلبه من خدمات.

ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أنه لا توجد في الدراسات الصهيونية وجهة نظر واحدة موحّدة تجاه العقيد (هاوزا)، وأن بعض المؤلفين والباحثين الصهاينة (على سبيل المثال: م. أوروفسكي، س. آدلير، ن. كوهين)، يتحدثون عن أفكاره "المعادية

للسامية"[٥١]. وهذا ذاك في الحقيقة يخدم هدفاً واحداً هو دفع قارئ مؤلفاتهم إلى الثقة بكتاباتهم وتصديق ما كتبوه وما طرحوه من آراء غايتها الوحيدة الترويج للصهيونية وخدمتها. وبرأينا فإن (هاوزا) وبقية الصهاينة الآخرين كانوا مضطرين إلى انتهاج مثل هذا السلوك بعد صدور وعد بلفور وسعوا جاهدين بعد صدوره إلى تأمين الأجواء المناسبة للترويج له وقبوله على المستوى الدولي وبخاصة في الأوساط الأمريكية، وكان عليهم (بحكم كونهم من الصهاينة) فعل كل ما من شأنه تنفيذ ذلك الوعد في المحصلة النهائية، وبالفعل فقد رحّبت الأوساط الحاكمة في الولايات المتحدة الأمريكية به ولربما شاركت في دعم الفكرة مادياً بضغط من الأوساط اليهودية الأمريكية و(الأصدقاء الصهاينة المقربين) من الرئيس ويلسون، خاصة وأن الظروف كانت مناسبة للغاية إذا ما أخذنا بالحسبان الدور المتزايد للصهاينة في الحملة الانتخابية، التي أوصلت ويلسون إلى رئاسة الإدارة الأمريكية عام ١٩١٢م، ودورهم المالي الكبير في تمويلها، وتأثيرهم المعنوي الكبير على الرئيس ويلسون نفسه[٥٢]. كما ساعد نجاحهم في ممارسة الضغط على الرئيس ويلسون وعلى مساعديه والمحيطين به من ذوي السمعة والنفوذ لديه، على التدخل في اللحظات الحاسمة والتحكم بقرارات السياسة الخارجية الأمريكية خلال تلك السنوات.

من ناحية أخرى كانت الدوائر الصهيونية في الولايات المتحدة قد لاحظت ميل الرئيس ويلسون منذ البداية على حصر المسائل المتعلقة بالسياسات الخارجية الأمريكية به، إذ كان على الغالب يتجاهل رأي وزير خارجيته في القضايا والمسائل الهامة، من هنا ونظراً لفهم الصهاينة لهذه الحقيقة فقد قطعوا الطريق على ويلسون من خلال سعيهم الدائم إلى استخدام مختلف أشكال الدعاية وسط الدوائر الحكومية وبث الدسائس والمكائد من وراء الكواليس وبشكل دائم في أروقة البيت الأبيض، وهذا الأمر مكّن الصهاينة من توجيه الرئيس ويلسون بالشكل الذي يخدم المصالح والتطلعات الصهيونية. لذلك ليس من الغريب على الإطلاق أن وزير الخارجية الأمريكي (ر.

لانسينغ)، الذي كان على علم مسبق بالمخططات التي أعدّت في بريطانية حول قضية إعطاء اليهود (الحق) في إقامة (وطن قومي) لهم في فلسطين، وعلى الخلافات البريطانية الفرنسية في الشرق العربي، كان يقع دائماً في الظل ولا يعرف حقيقة ما كان يجري بين الرئيس ويلسون وزعماء الحركة الصهيونية خاصة خلال المرحلة التي سبقت إعلان بريطانية وعد بلفوار في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧م، وسبقت أيضاً زيارة كل من (ل. برانديس) و(ف. فرانكفورت) و(س. أوعايزا) للرئيس الأمريكي ويلسون، وكذلك محادثاتهم مع العقيد (هاوزا)[٥٣].

وتفيد المصادر والدراسات التاريخية أن عملية التباحث وتبادل وجهات النظر بين هؤلاء الصهاينة (براندیس، فرانكفوتير، وأعايزا) والرئيس الأمريكي ويلسون حول المسألة الفلسطينية انتهت إلى الاتفاق على أنه وقبل دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب العالمية الأولى وزيارة بلفور إلى واشنطن في نيسان ١٩١٧م، أعطى رئيس الإدارة الأمريكية وعداً شفهياً بدعم الأنشطة و التحركات الصهيونية في الشرق العربي[٥٤].

وبرأينا فإن الرئيس ويلسون كان قد علق آمالاً عريضة من خلال دعمه للحركة الصهيونية وأطماعها الاستعمارية في فلسطين، لتحقيق مكاسب سياسية تعود بالفائدة عليه شخصياً عن طريق جعله المدافع عن اليهود، ولا يستبعد أن يكون كرئيس للإدارة الأمريكية قد أخذ بالحسبان جملة من المتغيرات المتسارعة والجارفة، التي كانت تشهدها الساحة الدولية آنذاك وبالدرجة الأولى في منطقة الشرق العربي. وبالارتباط مع تلك المتغيرات يعير عدد من الباحثين انتباهنا إلى أن توجه ويلسون هذا لم يكن من ناحية أخرى بعيداً عن نشأته البروتستانتية المتعصبة، وسيلة لتحقيق الأحلام والأهداف اليهودية الصهيونية في فلسطين العربية، وبالتالي فإن (هـ. فانيف) على سبيل المثال يؤكد على (أن بروتستانتية الرئيس الأمريكي ويلسون دفعته إلى

الأخذ بالحسبان أن موقفه من مسألة إقامة "الوطن القومي اليهودي" في فلسطين أكثر من شك، وهي الأقرب إلى الحقيقة والواقع إن لم تكن الحقيقة بعينها)[٥٥].

ولا بدّ من الإشارة إلى حقيقة أن الرئيس ويلسون أيضاً كان قد أطلع وعرف من المؤسسات الدينية البروتستانتية ورؤساء البعثات التبشيرية البروتستانتية ورؤساء المؤسسات الدينية الأمريكية في الشرق حقيقة الوضع في فلسطين، (لا كما صورته الدعاية الصهيونية ومدى النجاح الذي يمكن أن تحققه الولايات المتحدة الأمريكية من خلال الهيمنة على منطقة الشرق العربي في المستقبل، وعلى الوطن العربي بأكمله نظراً لأهميته الاستراتيجية العسكرية والاقتصادية، علاوة على ذلك فإن إعطاء الرئيس ويلسون موافقة مبدئية لبرانديس، بدعم فكرة صدور وعد بلفور يعطي اليهود (الحق) في إقامة (الوطن القومي اليهودي)، ما هي إلا محاولة جادة منه للتدخل في شؤون الشرق العربي وضمان إمكانية توسيع دائرة النفوذ والتأثير الأمريكي فيه، كبديل عن السير في ركب السياسات البريطانية في الشرق، وإيجاد خط سياسي مستقل خاص بالولايات المتحدة الأمريكية ويخدم تطلعاتها الاستعمارية في المنطقة ويقوي قدراتها على منافسة الدول العظمى الأخرى للهيمنة على المنطقة العربية. ولهذا السبب بالتحديد وافق الرئيس ويلسون في صيف عام ١٩١٧، على فكرة لانسنغ الداعية إلى إجراء محادثات مع الدولة العثمانية والتوقيع على معاهدة سلام معها وإعادة ترتيب الأوضاع في منطقة الشرق. وقد تم تعيين (مورغانتو) في منصب رئيس اللجنة الأمريكية، الذي كان يأمل بتعميق نفوذ الولايات المتحدة في الشرق العربي عن طريق طرح "المسألة اليهودية"، حتى قبل أن تظهر الحركة الصهيونية العالمية إلى الوجود[٥٦]، وأخفي هذا الهدف غير النظيف خلف ادعاء أن مهمة اللجنة هي الاطلاع على أوضاع التجمعات اليهودية والأرمنية واليونانية تحت الحكم العثماني، وعندها تظاهرت الأوساط الصهيونية بإبداء انزعاج وامتعاض كبيرين[٥٧]، لكن ومن خلال (برانديس) تم إدخال (ف. فرانكفورتير) و(هـ. فيتسمان) برفقة الصهيوني الفرنسي

(هـ. فيل)، الذي التقى رسل الرئيس ويلسون في (غيلانيز) في طريقهم إلى الشرق العربي وأقنعهم بالعودة، وتشهد هذه الحادثة على مدى التدخل الصهيوني الواسع النطاق في الشؤون الحكومية الأمريكية. ويعكس هذا الوضع حقيقة محاولات يهود العالم التدخل في الشؤون السياسية لشركائهم خلال مرحلة زيادة حدة التنافس الاستعماري على المنطقة العربية، والأهم من هذا وذاك عدم السماح بإحداث أية تغيرات في المنطقة، ومنع السيطرة على خاماتها دون إقامة "الوطن القومي اليهودي" على أرض فلسطين.

وكان الرئيس ويلسون على استعداد للتعامل مع التيار الصهيوني، وأعلن بصراحة تامة مراراً عن موافقته على المخططات والمشاريع الصهيونية الداعية إلى إنشاء "الوطن القومي اليهودي" في فلسطين[٥٨]، ويشير (لويد جورج) في مذكراته على حقيقة الدور الأمريكي في دعم فكرة خلق كيان يهودي بقوله: "عندما تمت مناقشة وعد بلفور في ٣ أيلول ١٩١٧م، في اجتماع مجلس الوزراء البريطاني -أي قبل صدور الوعد بشهرين- تم الاتفاق على الاتصال بالرئيس ويلسون وإخباره بأن اليهود يطالبون بإعلام الوعد الذي يتجاوب ومطالب الحركة الصهيونية، ورجاه المجلس أن يعطي رأيه بخصوص مدى ملاءمة هذا الوعد، وقد تم الحصول على جواب الرئيس ويلسون بعد عدة أيام، وعندما تسلمت وزارة الخارجية البريطانية الجواب، قام بلفور بإخبار مجلس الوزراء أن الرئيس ويلسون يتعامل بمودة خاصة جداً مع الحركة الصهيونية"[٥٩].

وفي ١٦ تشرين الأول ١٩١٧م، بعد مكالمة العقيد (إدف عاوزا) مع (فورين أوفيس) المكلّف من قبل وايزمان بالتحرك في الولايات المتحدة الأمريكية لتسخير كافة القوى والإمكانيات اللازمة لتقديم الدعم لوعد بلفور قام (فورين أوفيس) بإخبار السكرتير الخاص لوزير الخارجية البريطاني أن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الذي تلقى "الصيغة الصهيونية من العقيد هاوزا، وافق عليها "لكنه طلب عدم الإعلان على

الإطلاق عن هذه الموافقة عندما ستعلن حكومة صاحب الجلالة هذا الوعد أو الصيغة"[٦٠]. والتزمت الحكومة البريطانية، ولم تعلن عن حقيقة الموقف الأمريكي المؤيد لوعد بلفور عندما أعلنته في الثاني من تشرين الثاني ١٩١٧م.

وهكذا تكون الجهات المهتمة بصدور وعد بلفور قد نجحت في القيام بتحرك سري عن طريق العقيد (هاوزا) وعبر سلسلة (برانديس -هاوزا - ويلسون)، ودفعت بالوعد إلى الضوء. وبعد مرور عشرة أشهر على صدور وعد بلفور تقصد البيت الأبيض عدم إعطاء أي انتباه لهذا الوعد الظالم، وعولت الأوساط الحاكمة في واشنطن آنذاك على تعاون بريطانية مع الحركة الصهيونية لتحديد مصير الشرق العربي في المرحلة اللاحقة (مرحلة ما بين الحربين) لتعود وتدخل المنطقة سياسياً بعد الحرب العالمية الثانية، وتتحالف مع الحركة الصهيونية ثم مع الكيان الصهيوني بعد قيامه عام ١٩٤٨.

ومن الأهمية بمكان الإشارة أخيراً إلى أن الأرشيف القومي في الولايات المتحدة الأمريكية (واشنطن -دائرة كالومبية) يتضمن عدد كبير من الوثائق التي تشهد على الموقف السلبي للإدارة الأمريكية من مسألة وعد بلفور والحركة الصهيونية بشكل عام، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر مقطعاً من نص تقرير نائب القنصل الأمريكي في جنيف (س. إيدلمان)، الذي أعده في ١٥ تشرين الثاني ١٩١٧م، وأرسله إلى وزير الخارجية الأمريكي (لانسينغ عن طريق الوكيل المؤقت للولايات المتحدة الأمريكية في سويسرة (هـ. ويلسون)، في قسم أبحاث الشرق الأوسط: "جنيف ١٥ تشرين الثاني ١٩١٧م، إلى السيد هيو ويلسون ومنه إلى الوكيل الأمريكي المعتمد ببرن. نظراً لاحتلال فلسطين من قبل القوات العسكرية البريطانية يشرفني أن أقدم لكم المعلومات التي تمكنت من الحصول عليها وجمعها نتيجة دراستي للشؤون الفلسطينية والدعاية الصهيونية، ولا بدّ من الاعتراف بصدق أن زعماء الصهيونية استطاعوا تطوير منظمتهم إلى حد كبير، ولا توجد مدينة في أوروبة وأمريكة لا يوجد فيها

منظمة صهيونية محلية تدعم المشروع الصهيوني العام بطرائق مختلفة، ويشكّل القسم الأعظم من هذه المنظمات من الجهلة والأميين، الذين لا يفقهون حقيقة منظماتهم. وقد تمكّن الصهاينة من جهة أخرى، من إيجاد مؤيدين لهم وسط ذوي النفوذ والأغنياء اليهود الذين يعقدون الآمال على فكرة القوة السياسية للحركة الصهيونية. من وجهة النظر الأمريكية فإن اهتماماتنا ومصالحنا في فلسطين موجودة بشكل مستقل، والحركة الصهيونية الأمريكية هي الجهة الوحيدة المرتبطة معهم، وإذا تمكنوا (أي الصهاينة)، من تحقيق نجاح في التأثير على الحكومة البريطانية من خلال إصدار وعد بلفور، فإنه من المشكوك فيه استمرار هذا الدعم والتأييد بعد نهاية الحرب...وهذا لا يعني الضرورة أن على حكومتنا تعقب خطى الحكومة البريطانية على هذا الطريق فيما يتعلق بالشؤون الفلسطينية، ويجب علينا ألا نسمح بإقامة الدولة اليهودية"(٦١).

بعد استلام وزير الخارجية الأمريكي (لانسينغ) تقرير (إ. ويلمان) في ٢١ تشرين الثاني عام ١٩١٧م، جرت مناقشته ودراسته مباشرة(٦٢)، وبعد مرور يومين على وصول التقرير حاول وزير الخارجية الأمريكي التدقيق أكثر فأكثر في الأخبار الواردة من الشرق العربي، ومن أوروبة، وطلب من السفير الأمريكي في بريطانية (و. بيدج) التأكد بدقة من صحة الأخبار الواردة، وإعلام وزارة الخارجية الأمريكية أسباب صدور وعد بلفور المتعلق بإقامة "دولة يهودية" في فلسطين(٦٣).

لكن وجود مثل هذه الوثائق لا ينفي حقيقة مباركة الإدارة الأمريكية للمشروع الصهيوني الذي روّجت له كما رأينا حركة التبشير البروتستانتية الأمريكية البريطانية طيلة القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وبالتنسيق المشترك بين بريطانية والولايات المتحدة الأمريكية من جهة، والحركة الصهيونية العالمية، من جهة أخرى، عملت هذه الأطراف الثلاثة على تحقيق الحلم الصهيوني الإمبريالي. أما التباين الواضح في مواقف الرئيس ويلسون ومواقف وزارة الخارجية الأمريكية فمردّه إلى حرص الرئيس الأمريكي ويلسون على عدم إظهار الروابط العميقةالتي ربطته بالحركة

الصهيونية. وكل هذا وذاك لا يخفي حقيقة الدور الكبير، الذي لعبه الرئيس ويلسون وإدارته في وضع الأسس العريضة للمشروع الصهيوني الاستيطاني في فلسطين العربية.

٤- مبدأ السيطرة على منابع النفط العربية:

بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة دخلت الولايات المتحدة الأمريكية في منافسة حادة مع بريطانية بشأن امتيازات التنقيب عن النفط واستثماره في الشرق العربي، بعدما أدركت الأهمية الفائقة للنفط من الناحيتين والاقتصادية والعسكرية، وتخوّف الرسميين الأمريكيين من سياسات الدول الصناعية الكبرى، التي تهدف إلى السيطرة الكاملة على مصادر النفط المعروفة في العالم، فطرحت إدارة الرئيس ويلسون من جديد سياسة "الباب المفتوح"، والسماح بالمنافسة الحرة بين الدول الرأسمالية سعياً منها للحصول على منفذ إلى حقول النفط في الشرق العربي.

خلال الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الأولى مباشرة ساندت الإدارة الأمريكية جهود شركاتها النفطية في الحصول على امتيازات التنقيب والاستثمار، وجاءت الخطوة العملية الأولى عندما قدمت المساعدة والدعم الدبلوماسي لشركة "سوكوني"، التي اشتكت من أن البريطانيين يعيقون أعمال استكشاف النفط في صحراء النقب في فلسطين، حيث كانت لهذه الشركة حقوق الامتياز، غير أن بريطانية أصرت على موقفها آنذاك بحجة أن فلسطين ما تزال تحت الاحتلال العسكري، وأنه لن يسمح بعمليات التنقيب عن النفط فيها.

وعندما حاولت الشركات النفطية الأمريكية الحصول على امتيازات للتنقيب عن النفط واستثماره في العراق، الذي كان تحت الانتداب البريطاني رفضت السلطات البريطانية السماح للجيولوجيين التابعين لشركة "سوكوني" الأمريكية في أواخر صيف عام ١٩١٩م، بممارسة نشاطاتها في الأراضي العراقية، وساءت الأمور أكثر في اجتماع

الحلفاء في "سان ريمو"، في إيطالية ربيع عام ١٩٢٠م، عندما تم الاتفاق بين بريطانية وفرنسة على إعطاء فرنسة جزءاً من نفط ما بين النهرين مقابل السماح لبريطانية بمدّ أنبوب لنقل النفط عبر الأراضي السورية إلى شاطئ البحر المتوسط، فأصدرت الولايات المتحدة الأمريكية مذكرتين في أيار وتموز ١٩٢٠م، عدّت فيهما الاتفاقية البريطانية -الفرنسية انتهاك لمبدأ سياسة "الباب المفتوح"، وأنها تميز بشكل كبير بين الحلفاء، والولايات المتحدة الأمريكية التي ساهمت إلى حد كبير في انتصارهم على دول المحور.

في عام ١٩٢١م، تمّ انتخاب وارين هاردنج رئيساً جديداً للولايات المتحدة الأمريكية، في حين أصبح تشارلز هيوز وزيراً للخارجية ، ويعرف عن هاتين الشخصيتين السياسيتين الأمريكيتين بأنهما الأكثر حماساً لدخول مضمار المنافسة على النفط والسيطرة على مناطق إنتاجه. وتابع الرئيس الجديد سياسة ويلسون القائمة على مبدأ "الباب المفتوح"، ومبدأ "الفرص التجارية المتساوية"، في دول الانتداب، وسعت إدارته إلى دفع رجال النفط الأمريكيين، الذين ضموا في ذلك الوقت شركة "سوكوني" إلى شركة "ستاندار أويل في نيوجرسي"[٦٤]، لاستثمار النفط في منطقة الشرق العربي. وانضمت جهود هيوز إلى جهود هربرت هوفر وزير التجارة الأمريكي للدفاع عن رجال الأعمال الأمريكيين ومساندتهم. ودعا هوفر مدراء شركات النفط الأمريكية الكبرى إلى واشنطن في أيار ١٩٢١م، لتعزيز إمكانات الدخول إلى حقول النفط في العراق. وفي تشرين الثاني عام ١٩٢١م، أعلم متحدث باسم رجال النفط الأمريكيين الإدارة الأمريكية عن تشكيل مجموعة من سبع شركات ترغب باستكشاف الأراضي العراقية. ثم قامت هذه المجموعة بتنظيم اتحاد مالي خاص بها، وأعلم مدير شركة "جيرسي ستاندار" الإدارة الأمريكية بأن الاتحاد مستعد للبدء بمفاوضات مع البريطانيين. وفي تموز بدأت المباحثات الأمريكية – البريطانية، وخصص قسم كبير منها لمناقشة (سياسة الأبواب المفتوحة). وفي النهاية تمكّن ممثل شركة (جيرسي

ستاندار) من وضع اتفاق أصبحت فيه الولايات المتحدة شريكاً في التنقيب عن النفط واستثماره في العراق.

في عام ١٩٣٠م، تمكّنت شركة النفط الأمريكية (ستاندار أويل أوف كاليفورنية) من الحصول على امتيازات التنقيب عن النفط في البحرين، وتمكّنت من سبر أول بئر في أيار عام ١٩٣٢م. بحلول نهاية عام ١٩٣٢م، ظهر هناك ستة عشر بئراً تنتج النفط بكميات تجارية جيدة، فأقدمت الشركة على بيع نصف الامتياز الممنوح لها إلى شركة النفط التكساسية بهدف الحصول على أسواق التصريف في القسم الشرقي من العالم[٦٥].

وتمكّنت شركة نفط الخليج بفضل المساعي والجهود التي بذلتها وزارة الخارجية الأمريكية في عام ١٩٣٦م، من الحصول على امتياز للتنقيب عن النفط في الكويت، وبدأت عمليات الحفر في نفس العام. لكن النتائج في البداية لم تكن مشجعة، ومع ذلك استمرت أعمال البحث والتنقيب، التي توّجت في عام ١٩٣٨م، بتحقيق نتائج رائعة، وتم حفر تسعة آبار، وبعد عدة سنوات من العمل تحولت الكويت إلى أكبر دولة منتجة للنفط الخام في العالم، في سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية[٦٦].

ومنذ عام ١٩٣١م، أصبحت العربية السعودية هدفاً للشركات النفطية الأمريكية. وقام تشارلز كراين بزيارة لها عرض خلالها على الملك خدماته الخاصة كمهندس للمناجم، وطلب منه السماح بالتنقيب والبحث عن المصادر المعدنية والنفط في العربية السعودية. وبناءً على ذلك توجه كارل تويتشل على رأس بعثة جيولوجية أمريكية قامت بفحص التربة، وإجراء الدراسات والبحوث الميدانية في مختلف أنحاء المملكة لتعلن في النهاية أن السعودية بلد غنية بالثروة النفطية.

في صيف عام ١٩٣٢م، عاد كارل تويتشل إلى نيويورك حاملاً نتائج أبحاثه المذهلة، فأوعز لموظفي شركة (سكاندارو أويل) بالعمل مباشرة للحصول على امتيازات

التنقيب عن النفط واستثماره في العربية السعودية، فأوكلت الشركة المذكورة إليه مهمة العمل هناك. وفي آب من العام نفسه وقّعت الشركة الطلب الخاص لتمويل نفقات العمل، وأخذت الامتياز شركة (سوكال)، التي وافقت بدورها على إدخال شركة (تكساس) لتأمين عملية التسويق. وبدأت أعمال التنقيب عن النفط مباشرة في عام ١٩٣٦م، حيث تمكّنت الشركة الأمريكية من استخراج النفط بكميات تجارية. وفي عام ١٩٣٨م، حصلت شركتا (تكساس) و(كاسوك) على (حقوق امتياز شامل)[٦٧].

في شباط عام ١٩٤٣، حصل تحول جوهري في السياسة الأمريكية تجاه المنطقة العربية، عندما أخبر الرئيس روزفلت المدير المسؤول عن قانون "الإعارة والتأجير" إدوارد ستيتينوس بأن الدفاع عن العربية السعودية أمر حيوي بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية وأنه يجب تقديم الأموال لها)[٦٨]، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت السياسة الخارجية الأمريكية تتناغم مع مقولة "حماية المصالح الحيوية الأمريكية"، ومسألة "الأمن القومي الأمريكي"، يدفعها إلى ذلك الرغبة التاريخية لدى الإدارات الأمريكية المتعاقبة في الحصول على المزيد الفرص التجارية، ورغبة لا متناهية في السيطرة الكاملة على المنطقة. واستناداً إلى ذلك بدأت الولايات المتحدة الأمريكية تفكر بأساليب جديدة للسيطرة على النفط بشكل تام في المنطقة، وبدأ وزراء الخارجية والدفاع والبحرية والداخلية بوضع الخطط الناجعة لذلك. وكان هارولد إيكس قائد هذه الحركة، واقترح على الحكومة الأمريكية تشكيل شركة خاصة باحتياطي النفط تتولى ملكية الامتيازات الأمريكية وتحدّ من نشاط بريطانية والاحتفاظ بمزيد من الاحتياط النفطي بيد الولايات المتحدة. وفي حزيران ١٩٤٣م، اقترحت لجنة وزارية تشكيل الهيئة الخاصة باحتياطي النفط للحصول على حق يخولها امتلاك الاحتياطات النفطية فيما وراء حدود القارة، فوافق الرئيس روزفلت على الاقتراح، وعيّن هارولد إيكس رئيساً لها.

في عام ١٩٤٤م، تلقت وزارة الخارجية الأمريكية شكاوى تفيد بأن جوردن، السفير البريطاني في جدة يعمل على إضعاف الموقف الأمريكي في العربية السعودية، الأمر الذي دفع الرئيس روزفلت إلى إصدار أمر بزيادة النفوذ العسكري الأمريكي في المنطقة بحجة حماية المصالح الحيوية الأمريكية ومواجهة التهديدات البريطانية لتلك المصالح، وفي العام نفسه أصبحت شركة ستاندار والعربية الأمريكية، والتي كانت ملكيتها الكاملة لشركة نفط كاليفورنية تعرف باسم شركة (آرامكو) أي شركة النفط العربية الأمريكية(٦٩).

واختلفت الولايات المتحدة الأمريكية مع بريطانية في منطقة الشرق العربي على صعيد السياسات الاستراتيجية الاقتصادية. فقد عمل الرئيس روزفلت بشكل مستقل عن بريطانية في فلسطين، وعمل ما في وسعه على إنشاء "وطن قومي لليهود" فيها. ولم تكن الولايات المتحدة الأمريكية تؤمن في يوم من الأيام كما يصوّر بعض المؤرخين المعاصرين بأن فلسطين قضية بريطانية. وقد توافقت السياسة الأمريكية خلال الحرب العالمية الثانية مع توجهات الصهاينة الأمريكيين الذين لعبوا دوراً قيادياً مميزاً وموجهاً داخل الحركة الصهيونية العالمية، والذين علّقوا آمالاً عريضة على الولايات المتحدة الأمريكية في إقامة "الوطن القومي اليهودي". وبالتالي فقد نظر روزفلت إلى فلسطين كهدف حيوي أمريكي، ودفع بالقضية الفلسطينية إلى مسرح الأحداث. فقد رفضت الحكومة الأمريكية في الذكرى الخامسة والعشرين لإعلان وعد بلفور الكتاب الأبيض الذي صدر عام ١٩٣٩م، عن الحكومة البريطانية القاضي بمنع الهجرة اليهودية إلى فلسطين بعد عام ١٩٤٤م، وطرحت مشروع بلتيمور كبديل عنه، وبدأ نشاط المنظمات الصهيونية الواسع لجمع الأموال اللازمة لتنفيذ هذا المشروع، وسخّرت وسائل الإعلام والدعاية الأمريكية من قبل الصهاينة لإقناع الشعب والكونغرس الأمريكيين بالمشروع، كما سعى الرئيس روزفلت نفسه إلى إقامة الكيان الصهيوني على أرض فلسطين بطريقة سلمية من خلال العمل على إقناع بعض الزعماء العرب بذلك آنذاك

وفي سبيل تحقيق هذه الفكرة حاول الترتيب لعقد اجتماع بين الملك ابن سعود والزعماء الصهاينة أمثال حاييم وايزمان. لكن الملك رفض ذلك. ومنذ ذلك التاريخ أصبحت الولايات المتحدة تشكّل طرفاً في القضية الفلسطينية. وفي عام ١٩٤٤م، خوّل الرئيس روزفلت القادة الصهاينة بإصدار قرار مؤدّاه أنه أثناء صدور القرارات في المستقبل سوف يكون هناك حق عادل أمام أولئك الذين يبحثون عن "تكوين وطن قومي يهودي".

وتمكّنت الإدارة الأمريكية من إقناع الحكومة البريطانية بإلغاء الكتاب الأبيض عام ١٩٤٤م، وفي سبيل التوفيق بين الأهداف الصهيونية، وعدم إلحاق الضرر بالمصالح النفطية الأمريكية في الشرق العربي، لجأ الرئيس روزفلت إلى التحدث بطريقتين مختلفتين مع العرب والصهاينة، وبخاصة بعدما رسمت السياسة الأمريكية تجاه المنطقة، وتحقيق الهيمنة الاقتصادية والعسكرية الكاملة عليها، وبعدما أثبتت الحرب العالمية الثانية أن النفط سيكون من الناحية الاستراتيجية الاقتصادية العنصر الأهم في السياسات الدولية اللاحقة.

بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة تراجعت السيطرة البريطانية-الفرنسية على منطقة الشرق العربي، وبرزت الولايات المتحدة كأكبر قوة اقتصادية وعسكرية في العالم، وتولّت زعامة العالم الرأسمالي في وقت ترسّخت فيه وتعمقت الروابط الصهيونية - الأمريكية، التي استندت في الأساس على مبدأ تلازم المصالح والأطماع المشتركة في المنطقة العربية. وبدأت الولايات المتحدة الأمريكية تواجه مشكلة رئيسية في علاقاتها العربية هي كيف يمكنها أن تحافظ على علاقات طيبة مع العرب في ظل عدائهم المتزايد لفكرة إنشاء الكيان الصهيوني، في وقت أصبحت فيه هذه الفكرة هدفاً استراتيجياً أمريكياً، وفي وقت راحت تقدم فيه كل أشكال الدعم للحركة الصهيونية العالمية. غير أنها تجاوزت هذه المعضلة بإظهار حيادها أمام العرب، ودعمها الضمني اللامحدود للحركة الصهيونية.

ولم يكن النفط العربي ضرورياً للصناعة الأمريكية نظراً لما تحتويه أراضيها من احتياطي هائل يفوق استثماره وإنتاجه حاجاتها المحلية. لكن الاستراتيجية الكونية، التي تبنتها الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية قامت على أساس الحصول على أكبر قدر ممكن من الفوائد والعائدات النفطية وجعلها رديفاً أساسياً للاقتصاد الأمريكي. وكان من المناسب جداً للولايات المتحدة الأمريكية وفق هذه الاستراتيجية أن تغلق آبار النفط المتواجدة في أراضيها، وأن تعلن النفط الأمريكي احتياطياً استراتيجياً، وأن تتحكّم بتأمين وتدفق النفط في المنطقة العربية إلى أوروبة واليابان، وأن تجعل منه أداة ضغط اقتصادية وسياسية على أوروبة واليابان لإرغامها على السير وفق السياسات الأمريكية الكونية المتبعة. من هنا طرحت الإدارة الأمريكية في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية (نظرية الاستقرار الإقليمي)، واتخذت سياسة ذات حدين، فمن جهة كانت الفوائد النفطية الأمريكية تسير جنباً إلى جنب مع تطوير المصادر الجديدة للنفط في الشرق العربي وتعميق النفوذ العسكري الأمريكي في منطقة الخليج. ومن جهة ثانية تعاظمت الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة الأمريكية بصورة سريعة جداً، وأصبحت مسألة تقديم المساعدات المادية والدعم السياسي لإنشاء الكيان الصهيوني جزءاً من سياسة الولايات المتحدة الأمريكية.

وهكذا تحولت الولايات المتحدة الأمريكية منذ عام ١٩٤٦م، إلى العامل المسيطر على إنتاج النفط في المنطقة العربية. وتمكّنت شركتا (جيرسي) و(سوكوني) الأمريكيتان من الاندماج في شركة آرامكو، بعدما قدمتا المساعدة المالية اللازمة لمدّ خط التابلاين، والذي استكمل في عام ١٩٥٠، لتأمين تدفق النفط إلى دول حلف شمال الأطلسي في أوروبة وارتفع إنتاج الشركات النفطية الأمريكية بعده إلى مليون برميل يومياً عام ١٩٥١م، وأصبحت العربية السعودية رابع دولة في العالم بإنتاج النفط بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وفنزويلا.

ومن ناحية أخرى يعدّ نشاط الشركات النفطية الأمريكية في الكويت عاملاً هاماً وثميناً. وفي عام ١٩٤٨م، منح الشيخ أحمد أمير دولة الكويت امتيازاً لشركة (أمين أويل) الأمريكية للتنقيب عن النفط في المنطقة المحايدة، وفي العام التالي منح الملك سعود امتيازاً لشكة النفط العربية الأطلسية التابعة لـ باول جيني لمدة ستين عاماً. وفي العراق كانت شركتا (جيرسي ستاندار) و (موبيل أويل) قد حصلتا على مقدار ٢٣,٧٥% من إنتاج العراق من النفط بنتيجة اشتراكهما مع شركة أي بي سي.

وفي مطلع الخمسينيات أثارت ليبية اهتمام الشركات النفطية الأمريكية خاصة وأن النفط الليبي، الذي تم اكتشافه في أواسط الخمسينيات يتمتع بمواصفات عالية الجودة نظراً لاحتوائه على كميات قليلة من السلفر (فالمدن الأمريكية الساحلية الشرقية تستخدم النفط الليبي من اجل منع التلوث). وبعدما وقعت الولايات المتحدة على العقد الخاص بالنفط الليبي عام ١٩٥٥م، تزايد تدفق النفط وخلال بضعة أشهر كان هناك عدد من الشركات النفطية الأمريكية الكبرى منها (تريبوليتانيا، وشركة بتروليوم أوكسيد انتال)، تعمل في إنتاج النفط الليبي ووصل إنتاجها عام ١٩٦٨م، إلى ٤٧٨ ألف برميل يومياً(٧٠).

وبذلك تكون الشركات النفطية الأمريكية قد وضعت يدها على عملية استثمار وتسويق النفط العربي، وأصبح النفط ومسألة الحفاظ على السيطرة الأمريكية عليه العامل الهام في استراتيجية الولايات المتحدة الأمريكية وخاصة بعدما تزايدت عمليات التأميم، وتزايد الشعور القومي العربي الأمر الذي دفع بالولايات المتحدة الأمريكية إلى جعل الكيان الصهيوني حجر الزاوية في استراتيجيتها العسكرية في مواجهة حركة التحرر العربية.

الخاتمة:

بهذه الدرجة من الحماس وقوة الاندفـــاع، صـــاغت الولايـــات المتحـــدة الأمريكيـــة استراتيجيتها في المنطقة العربية، وجعلتها ضمن محيطها الجيوسياسي والجيواقتصادي على امتداد قرن ونصف من الزمن، وتفاعلت مع الحركة الصهيونية العالمية في بوتقة واحدة أنتجت أقوى وأفظع خليط استعماري تشهده المنطقة العربية على امتداد تاريخها الطويل. وفيما يلي أهم نتائج البحث:

١-دخلت الولايات المتحدة الأمريكية حلبة المنافسة الدولية للهيمنة علـــى المنطقـــة العربية منذ وقت مبكّر. وجعلت الإدارات الأمريكية المتعاقبة من السيطرة علـــى المنطقة العربية واحدة من القضايا والمســـائل الجيوسياســـية والجيواســـتراتيجية بالنسبة لها. وكان الموقع الاستراتيجي الهام، الذي تتمتع به المنطقة العربية مـــن أهم العوامل التي أدّت إلى تفعيل السياسات العدوانية الأمريكية وفق هذا الاتجـــاه وصولاً إلى حالة فرض الهيمنة على هذه المنطقـــة ومقدراتـــها بكـــل الوســـائل والإمكانات المتوافرة بما في ذلك القوة العسكرية عندما يتطلب الأمر تحت شـــعار (حماية المصالح القومية الأمريكية) و (توسيع التجارة الحرة).

٢-أدّى تبني الإدارات الأمريكية المتعاقبة منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشـــر لسياسات (الباب المفتوح)، إلى إقامة جسور اتصال مع المنطقة العربيـــة أمنـــت الفرصة المناسبة للإمبريالية التجارية الأمريكية، لتوسيع نشاطاتها عن طريق فتح مكاتب وممثليات لها وفروع للشركات التجارية الأمريكية، التـــي ســـرعان مـــا تحولت إلى نقاط ارتكاز شكّلت قاعدة انطلاق لتعميق النفوذ التجاري الأمريكـــي وتفعيل الدور الاقتصادي للولايات المتحدة الأمريكية في المنقطة العربية، الأمـــر الذي دفع الحكومات الأمريكية إلى البحث عن حليف استراتيجي لها في المنطقـــة، يلعب بالتنسيق معها وفق مبدأ (المصلحة المشتركة). وكانت البعثات التبشـــيرية

البروتستانتية، التي تمثل الأصولية المسيحية أفضل مرشح لتحقيق هذا الهدف الفائق الأهمية فاخترعت الصهيونية السياسية ونفخت فيها روح الحياة في مطلع ستينيات القرن التاسع عشر بعد أن مهدّت لعملية الخلق والاختراع هذه بحملات كبيرة ومنظمة سارت وفق اتجاه واحد غايته إقناع الغرب البروتستانتي بشطريه الأمريكي والأوروبي بضرورة تطبيق (مبدأ التحديث) و(تغريب فلسطين). وجرى الترويج لبدعة (أرض الميعاد) وعودة (الشعب الله المختار) إلى الأرض المقدسة فلسطين (تصديقاً) لنبوءة الكتاب البروتستانتي المقدس. ولتصبح الصهيونية السياسية المخترعة بأيديولوجيتها وخططها وأهدافها الحليف الاستراتيجي الخفي للإمبريالية التجارية الأمريكية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وغدت مسألة خلق الكيان الاستيطاني الصهيوني في قلب الشرق العربي ضرورة ملحة اقتضتها عملية انصهار الرأسمالية اليهودية والرأسمالية الأمريكية في بوتقة دينية وإيديولوجية واحدة.

٣-تتحمل البعثات التبشيرية البروتستانتية مسؤولية كبرى في رسم معالم الإيديولوجية الصهيونية وبلورتها، ولم تبخل حتى في تقديم تصوراتها لكيفية تجسيد هذه الإيديولوجية في الواقع العملي على أرض فلسطين العربية. وتعد خطة (ج دونان) لتشكيل جمعية الشرق العالمية السالفة الذكر المثال الحي للطريقة التي اتبعتها الحركة الصهيونية فيما بعد لوضع يدها على الأرض المقدسة فلسطين تمهيداً لتهويدها والسيطرة الكاملة عليها. وجرى البدء بتنفيذ هذه الخطة الدونانية مع وصول الدفعة الأولى من المهاجرين اليهود إلى فلسطين من أوروبة الشرقية عام ١٨٨٢م، وظهرت بنتيجتها أولى المستعمرات الزراعية الصهيونية على أرض فلسطين العربية. وكان البروتستانتي الأمريكي أوليفانت المعروف بنشاطه الكبير داخل حركة التبشير الأمريكية في فلسطين أكثر تعصباً في تأييده للإيديولوجية الصهيونية من الزعماء الصهاينة أنفسهم . و كان أول من

اقترح اتباع أسلوب الطرد المنظم للشعب العربي من فلسطين وتفريغ هذه البلاد من سكانها وجعلها أرضاً بلا شعب تمهيداً لنقل المهاجرين اليهود إليها، وتهويدها كما تربع أوليفانت على رأس قائمة المبشرين والرحالة والمستكشفين البروتستانت الذين عملوا بكل ما لديهم من طاقات من أجل تغييب أي ذكر لحقوق العرب السكان الأصليين والشرعيين للأرض المقدسة فلسطين عبر تاريخها الطويل. ثم ماطبيعة هذه (المصادفة العجيبة)، التي جعلت الحركة الصهيونية تتبع أسلوب حرب الإبادة والاغتصاب والطرد المنظم في سبيل إقامة دولة احتلالية على أرض فلسطين العربية وهو الأسلوب بعينه، الذي اتبعه المهاجرون البيض من سكان أمريكة الأصليين أثناء تشكيل الولايات المتحدة الأمريكية. هل سبب هذه (المصادفة العجيبة) عائد إلى الوحدة الروحية بين اليهودية والبروتستانتية؟ وهل الأصولية المسيحية (البروتستانتية وجه من وجوه اليهودية)؟ نعم ولاشك في ذلك.

٤- استطاعت البروتستانتية في بداية العقد الثاني من القرن العشرين أن ترفع مستوى تبنّيها للصهيونية السياسية وإيديولوجيتها من مستوى المؤسسات الدينية البروتستانتية في كل من بريطانية والولايات المتحدة الأمريكية إلى المستوى الرسمي أي إلى مستوى الحكومات. وشكّلت هذه الخطوة سابقة خطيرة ومنعطفاً حاداً في تاريخ منطقة الشرق العربي بشكل عام والأرض المقدسة فلسطين بشكل خاص، بمعنى تحولت مسألة دعم الصهيونية من قضية (روحية) إلى قضية سياسية جرى تبنيها على المستويات الحكومية. وحلّت تصريحات الزعماء والمسؤولين الحكوميين في الولايات المتحدة الأمريكية مكان الوعود والتصريحات، التي كانت تصدر عن المؤسسات الدينية البروتستانتية. ولم يتردد العديد من المسؤولين الأمريكيين عن الإفصاح عن إيمانه بضرورة إنشاء محمية احتلالية يهودية في فلسطين ومنهم داعية (حق تقرير المصير) الرئيس الأمريكي ويلسون. وشكّلت هذه التصريحات مقدمات أفرزت وعد بلفور في ٢ تشرين

الثاني عام ١٩١٧م، والذي يعدّ وثيقة القران غير المقدس بين الرأسمالية الغربية والحركة الصهيونية العالمية، الذي تتمخض عنه ولادة الابن غير الشرعي المحمية الاحتلالية الصهيونية.

٥-كانت حرب التنافس والتضارب الدولية للسيطرة على منابع النفط في المنطقة العربية، بعد الحرب العالمية الأولى حرباً أمريكية في إيديولوجيتها وخططها وغاياتها وأهدافها ، خاصة بعدما أصبح لها شأن عظيم في صناعة النفط في مطلع العشرينيات، واستطاعت إنشاء تنظيمات صناعية من نوع جديد (الحماسية الكبرى)(٧١). وبدا واضحاً لكل من يراقب أن الولايات المتحدة الأمريكية لن تقبل بأقل من السيادة التامة وغير المنقوصة ليس فقط في مجال الإشراف على عملية إنتاج النفط، بل وأيضاً على عمليات النقل والتوزيع والتسويق بالاستعانة بما تمتلكه من أساطيل وناقلات نفط عملاقة. بمعنى بسط سيادتها على كل المجال الحيوي الممتد من المنبع إلى المصب. وقد تعمقت هذه السياسة عندما أدركت الولايات المتحدة الأمريكية بعد الحرب العالمية الأولى مدى أهمية النفط كشرط أساسي وجوهري لفرض سياسات الهيمنة على العالم (الدبلوماسية النفطية)، التي وضعت في أعلى درجات سلم أولوياتها إقامة رأس جسر متقدم للولايات المتحدة الأمريكية في قلب الشرق العربي (فلسطين)، وبالتوافق مع نهج هذه الدبلوماسية جرى تحويل المنطقة العربية إلى مجال حيوي للخامات والموارد الطبيعية وبخاصة النفط لصالح الولايات المتحدة الأمريكية ومن يدور في فلكها.

الحواشي

١) National Archives of the United States (NAUS). Record Group 59 Despatches from United States Councils in Tripoli 1796-1885. Microfilm T40, Roll No.1 (November 23, 1796 — December (10, 1800).

٢) بريسون. أ. توماس: العلاقات الدبلوماسية الأمريكية مع الشـرق الأوسـط مـن ١٧٨٤إلى عام ١٩٧٥م، ترجمة دار اطلاس للدراسات والترجمة والنشـر. الطبعـة الأولى ١٩٨٥م، ص ٣٠.

٣) المرجع نفسه، ص ٣١-٣٢.

٤) Field A. America and the Mediterranean World, 1776 1882 Prienceton: Prienceton University Press, 1969.

٥) Stephens G. Incidents of Travel, Arabia Petraea and the Holy land (1838).

٦) NAUS RG 59 Des patches from American Minister in Turkey 1818- 1906 Rolls 1-77.

٧) Зубок Л.И. Экспансионистская политика США в начале XX в. n 1969- 376-383

8-Mahan A.The Problems of Asia and its Effect Upon International Policies. London 1990.
9-NAUS. RG 59 File 867. 6020 t. 81/0-210.
10-Колобов О.А. Соединенные Штаты Америки и проблема Палестины. Нижний Новгород 1993 с. 23

11-Там же с 23.

12-Там же с.23

13-Осипова Н. Из истории английского управления Палестиной (1919-1939). Вопросы истории. 1948. №12 с. 68.

14-Попова Е.И. Политика США в Европе в 1918-1920гг. М. 1957 с. 123.

15-Лан В.И. США от первой до второй мировой войны. М. 1976.

16-Fishman H. American Protestantism and a Jewish State. Detroit : Wayne University Press 1973. P23.
17-Finnie David H. Pioneers of the East. Cambridge (Mass): Harvard University Press 1967. P 129.
18-Fishman H. Op. Cit.p. 24-27.
19-Epstein L. Zions Call. Christian contribution to the Origins and Development of Israel. University of America Press Inc. 1984.
20-Колобов О А. Соединенные Штаты Америки и проблема Палестины с 34.

21-Epstein L. Zions Call. Christian Contribution to the origins and Development of Israel. P. 42-45.
22-Колобов О.А. Соединенные штаты Америки и проблема Пале-стины. с. 35.

23-NAUS RG 59 Des patches from American Minister in Turkey 1818-1906 Rolls 1-77.
24-Oliphant L. Memoir of the life of laurence Oliphant vol II. 1891 p. 169-170.
25-Колобов О.А. Соединенные Штаты Америки и проблема Палестины с. 36

26-Там же с 36

27-Epstein L. op. Cit p. 61-62.
28-Колобов О.А. Соединенные Штаты Америки и проблема Палестины.с.36

29-Там же с 36

30-Там же с. 36.

31-Крачковский И.Ю Избранные произведения. т 1. М. 1953 с. 50.

32-Оде-Васильева К.В. Взгляд в прошлое. Палестинский сборник. 13-й (76). 1965. с 175.
Киселев В.И. Палестинская проблема М. 1976. с. 16.

33-Колобов О.А. Соединенные Штаты Америки и проблема Палестины. с 40.

34-Библиотека классиков сионизма. Теодор Герцль. Петроград. 1918. т 1. с 113.

35-Zionism and Arab Resistance Beirut 1969. P. 24-25.

٣٦- الكيالي، عبد الوهاب: تاريخ فلسطين الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر الطبعة الثامنة، ١٩٨١م، ص ٣٥.

37- Колобов О.А. Соединенные Штаты Америки и проблема Палестины с.41.

38- Колобов О.А. Корнилов А.А. Сергунин А.А. Документальная история арабо-израильского конфликта. Документ №3. с. 16-18.

39- Эрлих В. Сионизм: теория и практика. Против сионизма и израильской агрессии. М. 1974. с. 115.

40- Колобов О.А. Соединенные Штаты Америки и проблема Палестины. с. 42.

٤١- بريسون. أ. توماس: العلاقات الدبلوماسية الأمريكية مع الشرق الأوسط، ص ١٤٨-١٤٩.

٤٢- المرجع نفسه، ص ١٥٢-١٥٣.

٤٣- المرجع نفسه، ص ١٥٤-١٥٥.

44- Ключников Ю.А. Сабанин А. Международная политика новейшего времени в договорах, нотах и декларациях. М. 1925. с. 118.

45- Ллойд Джордж. Д. Права о мирных переговорах. М. 1967. т. 2. с. 285-286

46- Там же с. 289.

47- Колобов О.А Соединенные Штаты Америки и проблема Палестины. с. 42.

48- Там же с. 42.

49- Там же с. 42.

50-Там же С. 42.

51-Dodd W.E Jr, Dodd M. (Editors). Ambassador Dodds Diary, 1933-1938 N.Y., 1941 p.10

52- Колобов О.А. Соединенные Штаты Америки и проблема Палестины С. 43

53- Там же С 43.

54- Там же С 43.

55-Feingold H.Zion in America. The Jewish Experience from Calonial Times to Present. N.Y: Hippocrene Books Inc., 1974. P. 253.

56-Колобов О.А Соединенные Штаты Америки и проблема Палестины. С. 43.

57-John R, Hadwi S, The Palestine Diary N.Y: New World Press, 1970 vol 1. P 81.

58-Колобов О А. Соединенные Штаты Америки и проблема Палестины С. 45.

59- Ллойд Джордж Д. Правда о мирных переговорах. Т. 1. с.298-299.

60-Колобов О.А. Соединенные Штаты Америки и проблема Палестины. С. 47.

61- Там же С 47

62- Там же С. 47.

63-Колобов О.А Соединенные Штаты Америки и проблема Палестины. С 48.

٦٤- للمزيد من المعلومات حول صراع الشركات النفطية، انظر سامبسون، أنتوني: **الشقيقات السبع شركات البترول الكبرى والعالم الذي صنعته**، ترجمة سامي هاشم،معهد الإنماء العربي، فرع لبنان، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٧٦م.

٦٥- بريسون. أ. توماس: **العلاقات الدبلوماسية الأمريكية مع الشرق الأوسط، من عام ١٧٨٤ إلى عام ١٩٧٥**، ص ٢٥٢.

٦٦- **المرجع نفسه**، ص ٢٥٣-٢٥٤.

٦٧- **المرجع نفسه**، ص ٢٥٨

٦٨- **المرجع نفسه**، ص ٢٧٠.

٦٩- **المرجع نفسه**، ص ٢٦٧.

٧٠- **المرجع نفسه**، ص ٣٩٠.

٧١- للمزيد من المعلومات عن (الخماسية الكبرى)، أي الشركات النفطية الأمريكية الخمس الكبرى، التي شكّلت أكبر كارتيل احتكاري دولي في العالم باتحادها مع شركتي بريتش بترليوم وشركة شل، انظر كتاب أنتوني سامبسون: **الشقيقات السبع شركات البترول الكبرى في العالم الذي صنعته.**

دور المنظمات الطلابية الإفريقية في فرنسة من حركة التحرر الوطني في المستعمرات الفرنسية من إفريقية السوداء (١٩٤٦-١٩٥٢)

أ. د. صباح كعدان
قسم التاريخ
جامعة دمشق

دور المنظمات الطلابية الإفريقية في فرنسة من حركة التحرر الوطني في المستعمرات الفرنسية من إفريقية السوداء (١٩٤٦-١٩٥٢)

أ. د. صباح كعدان

قسم التاريخ

جامعة دمشق

مقدمة:

على الرغم من الدور الطليعي، الذي قامت به الرابطات والمنظمات الطلابية والشبابية الإفريقية القطرية والإقليمية والجهوية في يقظة الوعي الوطني والقومي، وفي حركة النضال من أجل استقلال القارة الإفريقية ووحدتها، فإنها لم تحظَ إلا مؤخراً[١] بما تستحق من اهتمام الباحثين المهتمين بالشؤون الإفريقية. وما ظهر من دراسات حتى الآن هي دراسات أحادية تتناول إما إحدى المنظمات القطرية، وإما إحدى المنظمات الجهوية، ولاسيما في إفريقية الشمالية[٢]، وإفريقية الغربية ومدغشقر والحبشة (إثيوبية) أو في لندن أو باريس[٣].

وقد رأينا أن يتناول هذا البحث بعض المنظمات الطلابية الإفريقية السوداء في فرنسة، التي لعبت فيما بين ١٩٤٦-١٩٥٢، دوراً مهماً في يقظة الوعي الوطني والقومي، وفي حركة النضال من أجل استقلال بلدان إفريقية الغربية وإفريقية الاستوائية، التي

كانت تخضع للسيطرة الاستعمارية الفرنسية، والدعوة إلى وحدة القارة الإفريقية، ولم تسلط عليها الأضواء حتى الآن.

ويقسم البحث إلى أربعة أقسام:

- القسم الأول يخصص للطلبة الأفارقة من أبناء المستعمرات الفرنسية بإفريقية السوداء في فرنسة إبان العهد الاستعماري.
- القسم الثاني ويُعنى بدراسة الرابطة العامة للطلبة الأفارقة السود في باريس AGEAP.
- القسم الثالث ويتناول فريق البحوث الاقتصادية والسياسية الإفريقي.
- القسم الرابع ويبحث في رابطة طلبة التجمع الإفريقي.

أولاً- الطلبة الأفارقة من أبناء المستعمرات الفرنسية من إفريقية السوداء في فرنسة:

ويقصد بالطلبة الأفارقة من أبناء المستعمرات الفرنسية من إفريقية السوداء، أبناء المستعمرات الفرنسية من إفريقية الغربية (السنغال وموريتانية والسودان الغربي والنيجر وفولتا العليا وغينية الفرنسية وساحل العاج والداهومي) وإفريقية الاستوائية (التشاد وأوبانغي، شاري والكونغو الأوسط والغابون)، بالإضافة إلى أبناء التوغو والكاميرون اللتان كانتا تحت الوصاية الفرنسية منذ ما بعد الحرب العالمية الأولى. حتى قيام الحرب العالمية الثانية بقي عدد الطلبة الأفارقة من أبناء المستعمرات الفرنسية في إفريقية السوداء، الذين يتابعون تحصيلهم العلمي العالي في فرنسة محدود جداً. ففي عام ١٩٣٦، مثلاً لم يكن عدد هؤلاء الطلبة يزيد عن ٢٠ طالباً، منهم طالبان فقط من أبناء السنغال يستفيدان من منحة حكومية(٤)، ويعزى ذلك بالدرجة الأولى إلى ضعف انتشار التعليم في تلك المستعمرات، والتركيز أساساً على التعليم

الابتدائي الهادف إلى إعداد صغـــار الموظفيــن مــن الإفريقييــن لمســاعدة الإدارة الاستعمارية في إدارة شؤون تلك المستعمرات، والقيام بدور همزة الوصل بينها وبيـن أبناء جلدتهم من جهة، واقتصار تعليم المرحلة المتوسطة، الذي يعدّ التلاميذ لدخـــول المدارس الاتحادية على الطلبة اللامعين من خريجيّ التعليم الابتدائي، أي على النخبـة وحصر التعليم الثانوي بأبناء الأوروبيين وأبناء الكومونات الأربعة في السنغال(٥).

لكن التطورات السياسية الجذرية التي شهدتها المستعمرات الفرنسية في إفريقية جنوب الصحراء الكبرى غداة الحرب العالمية الثانية، وما نجــم عنـــها مـــن دخـــول هـــذه المستعمرات في الحياة السياسية الحديثة، وما ترتب عن ذلك من قيام المجتمع المدني، وحصول الأفارقة على حق المواطنة بما لها من حقوق وما عليها من واجبات(٦)، أدّى إلى تطوّر نسبي مهم في انتشار التعليم الحديث في مراحله كافة. فمن ٣,٩٣% فـــي عام ١٩٤٧ (٧)، ارتفعت نسبة قبول الأطفال الذين كانوا في سن التعليم الابتدائي إلـــى ٦,٩% في العام ١٩٥١، ثم إلى ١١,٦% في العام ١٩٥٦ في المستعمرات الفرنســية في إفريقية الغربية(٨). أما بالنسبة للتعليم في المرحلـــة المتوســطة فقــد ازداد عــدد التلاميذ، في الفترة ١٩٥١-١٩٥٧، بنسبة ٢٠٠% في التعليم العام، وتجاوز نسبة الـــ ٥٠٠% في التعليم الخلص(٩). ونظراً لعدم وجود أية جامعة في المستعمرات الفرنسية في إفريقية الغربية وإفريقية الاستوائية قبل عام ١٩٥٦، فقد بدأ الطلبة الأفارقـــة مـــن أبناء هذه المستعمرات يتوافدون بأعداد مهمة نسبياً لمتابعة تحصيلهم العلمي العالي في الجامعات الفرنسية.

ورغم عدم توفر إحصاءات رسمية دقيقة تسمح بمعرفة الأعداد الحقيقية للطلبة الأفارقة الوافدين إلى فرنسة من أبناء تلك المستعمرات فإنّ ما نجده من تقديرات فـــي بعـــض المصادر يعطينا فكرة عن أعداد هؤلاء الطلبة وأهمية تزايدها فـــي الفـــترة ١٩٤٥-١٩٦٠. فمن نحو ٢٠ طالباً يتابعون تحصيلهم العلمي العالي في فرنســـة فـــي العـــام ١٩٣٦، ارتفع عددهم إلى نحو ١٠٠٠ طالباً في العام ١٩٥١(١٠)، ثم تراوح ما بيـــن

٣٠٠٠ طالباً[١١] و ٤٠٠٠ طالباً[١٢] في العام ١٩٥٤، ليرتفع إلى نحو ٨٠٠٠ طالباً في العام ١٩٦٠[١٣]. ومن بين أهم العوامل التي أسهمت، بالإضافة إلى التطور النسبي في انتشار التعليم الثانوي، في هذا التزايد المستمر في أعداد الطلبة الأفارقة من أبناء المستعمرات الفرنسية في إفريقية السوداء الوافدين إلى فرنسة للدراسة في جامعاتها نذكر: انتشار الرغبة الجامحة لدى الأفارقة في حصول أبنائهم على الشهادات الجامعية، وطموح الطلبة الأفارقة لمواصلة تعليمهم، وتقديم الحكومة الاستعمارية للمنح الدراسية الجامعية، بل منح الدراسة الثانوية أيضاً، واعتماد قسم من الطلبة الذين لم يستفيدوا من منح دراسية حكومية إما على التضامن الإفريقي، وإما على بعض الأوروبيين من أصحاب النوايا الطيبة للحصول على مساعدات مالية تسمح لهم بالقدوم إلى فرنسة ومواصلة الدراسة فيها[١٤]. وفي حين أن بعض المصادر تشير إلى أن نصفهم في عام ١٩٥٠[١٥]، ومعظمهم في عام ١٩٥٨[١٦]، كانوا من الحاصلين على منح دراسية، فإن بعضها الآخر يبيّن أن عدد الطلاب الحاصلين على منح دراسية ما بين ١٩٤٦-١٩٥٥، كان على النحو التالي:

السنوات	عدد الطلاب الحاصلين على منح دراسية جامعية	عدد الطلاب الحاصلين على منح دراسية ثانوية
١٩٤٦	٢١٢*	١٥٠**
١٩٥٠-١٩٥١	١٧١	
١٩٥١-١٩٥٢	٢٢١	
١٩٥٣-١٩٥٤	٣٢٧	
١٩٥٤-١٩٥٥	٤٩٦***	٥١٧***

وفي الفترة ١٩٥٠-١٩٥٤، كان الطلبة الأفارقة الحاصلين على منح دراسية جامعية يتوزعون على الأقسام والفروع العلمية على النحو التالي[١٧]:

*A. MOUMOUNI: **L'Education en Afrique**, Maspero, 1964, p. 105.

**P-H. SHRHEX: Felix Houphouet-Boigny, l'homme de la paix, Seghers, et Les Nouvelles Editions Africaines, p. 78

***J. R. de BENOIST: **L'Afrique Occidentale Française,** Dakar, Les Nouvelles Editions Africaines, 1982, p. 270 et p. 273.

الفروع والأقسام العلمية	السنوات					
	١٩٥٠-١٩٥١	%	١٩٥١-١٩٥٢	%	١٩٥٣-١٩٥٤	%
الحقوق	٢٧	١٥,٨	٣٥	١٥,٨	٥٠	١٥,٣
الطب	٣٥	٢٠,٥	٤٢	١٩	٧٦	٢٣,٢
الصيدلة	١٥	٨,٨	٢٢	١٠	٢٢	٦,٨
الجراحة السنية	١٠	٥,٨	١٠	٤,٥	١٠	٣,١
الآداب	١٨	١٠,٥	٢٤	١٠,٩	٣٩	١٢
العلوم	١٤	٨,٢	٣٢	١٤,٥	٥٦	١٧,١
المدارس العليا	٤	٢,٣	٦	٢,٧	{٣٤}	١٠,٤
التحضير للمدارس العليا	٢٢	١٢,٩	٢٥	١١,٣		
المؤسسات التعليمية العليا للثقافة	٢٦	١٥,٢	٢٥	١١,٣	٤٠	١٢,٢
المجموع	١٧١	١٠٠	٢٢١	١٠٠	٣٢٧	١٠٠

أولاً- منظمات الطلبة الأفارقة السود في فرنسة فيما بين ١٩٤٦-١٩٥٠.

بعد وصول الطلبة الأفارقة السود إلى فرنسة بأعداد مهمة منذ غداة الحرب العالمية الثانية لمواصلة تعليمهم في المدارس والمعاهد والجامعات الفرنسية، سرعان ما بدؤوا يعانون من وحدة الغربة والحنين إلى الأهل والوطن، ويلقون العديد من الصعاب المادية والمعنوية في الصعيدين الدراسي والاجتماعي. فأصبحوا يشعرون بحاجة الالتقاء فيما بينهم، وتبادل العون والمساعدة من جهة[١٨]، ومن أجل النضال معاً لدى السلطات المختصة بهدف تحسين ظروفهم المعيشية والمعاشية، وتوفير الظروف الملائمة والأجواء الدراسية المرضية (منح دراسية كافية، مراكز إقامة مناسبة...) خلال إقامتهم في فرنسة.

وقد دفعتهم هذه الأسباب، منذ عام ١٩٤٦، إلى تأسيس العديد من الرابطات والمنظمات الطلابية في باريس وفي المدن الفرنسية الكبيرة الأخرى حيث تتواجد المعاهد العليا والجامعات. ويمكن تصنيف هذه الرابطات والمنظمات في ثلاث فئات. الفئة الأولى وتضم الرابطات الأكاديمية مثل الرابطة العامة للطلبة الأفارقة في باريس AGEAP، التي تأسست في شهر حزيران/ يونيو ١٩٤٦[١٩]، ورابطة الطلبة الأفارقة في بوردو، التي نشأت في شهر آب/ أغسطس ١٩٤٨[٢٠]، وقد انتشر هذا النوع من الرابطات بخاصة في المدن الفرنسية الكبيرة حيث توجد المدارس والمعاهد والجامعات مثل بوردو، ومونبليه، وتولوز، وغرونوبل، إلخ.. وكان عدد الطلبة الأفارقة السود ضئيل نسبياً، ومن ثم فقد كان أعضاؤها ينتمون إلى مختلف المستعمرات الفرنسية في إفريقية السوداء. وقد بلغ عددها ٢٠ رابطة في عام ١٩٥٨[٢١]. وتشمل الفئة الثانية الرابطات القطرية، أي نسبة إلى الأقطار التي ينتمي إليها الطلبة مثل رابطة الطلبة التوغوليين أو توغو الفتاة (آذار / مارس ١٩٤٧)، ورابطة طلبة ساحل العاج في فرنسة(تموز/ يوليو ١٩٤٧)، والاتحاد الوطني للطلبة الكمرونيين (شباط/ فبراير ١٩٤٨)، ورابطة الطلبة الداهوميين في فرنسة (أواخر ١٩٤٨)، ورابطة الطلبة الغابونيين (تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٨)، ورابطة طلبة فولتا العليا[٢٢] في فرنسة (تموز/ يوليو ١٩٥٠)، ورابطة الطلبة الغينيين في فرنسة (تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٥٠)، إضافة إلى الرابطات الأخرى، التي أسسها فيما بين ١٩٥١-١٩٥٧، الطلبة من أبناء ما تبقى من مستعمرات فرنسية في إفريقية السوداء[٢٣]. وقد تأسست الرابطات القطرية في باريس حيث كانت أعداد الطلبة الذين ينتمون إلى قطر بعينه أعداداً مهمة نسبيا. وفي عام ١٩٥٤، بلغ عدد الرابطات القطرية ١٤ رابطة[٢٤]. والفئة الثالثة فتضم الرابطات التي تأسست على أساس الانتماء السياسي لأعضائها، مثل رابطة طلبة التجمع الديمقراطي الإفريقي AERDA، أو لهدف علمي سياسي، مثل الفريق الإفريقي للبحوث الاقتصادية والسياسية GAREP.

وإن أكدت دساتير هذه الرابطات والمنظمات على أنها منظمات غير سياسية، باستثناء رابطة طلبة التجمع الديمقراطي الإفريقي، وأن هدفها الدفاع عن مصالح الطلبة الأفارقة المادية وتحسين الظروف المعيشية والدراسية، وتقديم العون والمساعدة لأعضائها لمتابعة دراستهم وتسهيل إقامتهم في فرنسة، وعقد اللقاءات وتبادل الأفكار بين أعضائها من جهة، ومع الرابطات المماثلة لها من جهة أخرى. وذلك عن طريق تنظيم الرحلات الترفيهية المشتركة والمعسكرات الصيفية، والنشاطات الرياضية والفنية والثقافية، وتنظيم حلقات الدراسة، إلخ...[٢٥]، من جهة أخرى، فما ذلك إلا بهدف الحصول على ترخيص رسمي بشرعيتها من السلطات الفرنسية المختصة، وجذب الطلبة الأفارقة الذين لا يكترثون بالعمل السياسي إلى صفوفها. وسنكتفي هنا بدراسة ثلاث رابطات، كان لها دوراً رائداً في بث الوعي القومي والوطني في نفوس الطلبة الأفارقة السود الذين كانوا يتابعون تحصيلهم العلمي في فرنسة وفي نضالهم، فيما بين ١٩٤٦-١٩٥٢ من أجل استقلال إفريقية السوداء ومهدت السبيل لتأسيس اتحاد طلبة إفريقية السوداء في فرنسة LA FEANF، موضوع بحثنا اللاحق، نقصد الرابطة العامة للطلبة الأفارقة في باريس، وفريق البحوث الاقتصادية والسياسية الإفريقي، ورابطة طلبة التجمع الديمقراطي الإفريقي التي لم تسلط الأضواء عليها حتى الآن.

١- الرابطة العامة للطلبة الأفارقة في باريس AGEAP

في ٢١ حزيران ١٩٤٦، انشقت مجموعة من الطلبة الأفارقة الأعضاء في رابطة طلبة المستعمرات Assocsiation des Etudiants Coloniaux عن هذه الرابطة لما وجدوا فيها من التزام شديد بالعمل النقابي فحسب، **وأسست الرابطة العامة للطلبة الأفارقة في باريس** Assocsiation Générale des Etudiants Africains de Paris. وانتخبت السنغالي شيخ فال رئيساً لها[٢٦]. ورغم أن هدفها المعلن هو الدفاع عن

المصالح المادية للطلبة الأفارقة، وتحسين شروط حياتهم المعيشية، فقد كان شغلها الشاغل هو "استقلال إفريقية"[٢٧]. وكان من أبرز أعضائها وأكثرهم نشاطاً أحمد مختار مبو، وعبد الله لي، وفاضل ديوب، وسيني لوم، ولويس بيهانزان، وفرانسوا موران. وهم الذين شكّلوا نواة الرابطة. وتركز جلّ اهتمامهم على بيان شخصية الطلبة الأفارقة؛ ورفضوا "الاتحاد الفرنسي"، الذي رأوا فيه وجهاً جديداً للنظام الاستعماري، ورغم تأثرهم في هذه النقطة بالذات بالماركسية، فقد كانوا من معارضي الحزب الشيوعي الفرنسي. وسرعان ما تقاسم أعضاء الرابطة ثلاثة تيارات هي: التيار الموالي للتجمع الديمقراطي الإفريقي بقيادة شيخ أنتا ديوب، والتيار الاشتراكي ويتزعمه بوبكر غي، وتيار اللاسياسيين ويقوده حسن سيك ودودو تيام[٢٨].

وإبّان تولي شيخ فال لرئاسة الرابطة (١٩٤٦-١٩٤٩)، غلب على مجلسها الإداري طابع الموالاة للتجمع الديمقراطي الإفريقي، "مخالفاً بذلك رغبة معظم أعضائها" من أنصار الحفاظ على استقلال الرابطة عن جميع الأحزاب السياسية.

لكن أحمد مختار مبو، الذي انتخب رئيساً للرابطة في عام ١٩٤٩، واستمر في رئاستها حتى تاريخ إنهاء دراسته في فرنسة وعودته إلى السنغال في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥١، نجح في إحباط محاولة إثارة الانقسام في صفوفها، التي قام بها طلبة التجمع الديمقراطي الإفريقي المناهضين لفك التحالف الذي كان قائماً بين التجمع والحزب الشيوعي الفرنسي (نظر في هامشنا رقم ٣٧). كما نجح أيضاً في إحكام سلطته عليها وجعلها منظمة نقابية وثقافية، والحفاظ على استقلالها عن جميع الأحزاب السياسية لضمان تماسكها[٢٩]. كما لعب مبو، كما سنرى لاحقاً، دوراً حاسماً في تأسيس اتحاد طلبة إفريقية السوداء في فرنسة.

من جهة أخرى، كان للنشاط الثقافي الذي قامت به الرابطة دور مهم في وعي أعضائها للواقع الإفريقي وفي تكوين وعيهم السياسي، وتعرفهم مشكلات العالم المعاصر ولاسيما من خلالها علاقتها بإفريقية[٣٠].

٢- فريق البحوث الاقتصادية والسياسية الإفريقي:

بعد الحرب العالمية الثانية أسست مجموعة من الطلبة الأفارقة في **باريس فريق الدراسات السياسية الإفريقي GEAP**[٣١]. وكان من أهم منشطيه السنغالي عبد الله لي، والداهومي لويس بيهانزان، ومن أشهر أعضائه أول رئيسين للرابطة العامة للطلبة الأفارقة في باريس شيخ فال وأحمد مختار مبو، والداهومية صولانج فلاد التي ستصبح أول رئيسة لاتحاد طلبة إفريقية السوداء في فرنسة[٣٢]. وقد بقي نشاط هذا الفريق نشاطاً سرياً. وهذا ما يفسر شح المصادر التاريخية حوله. فنحن لا نملك سوى وثيقة واحدة نشرها الفريق نفسه في شهر تشرين الثاني ١٩٥١، حين قرر الإفصاح عن أهدافه ونشاطاته بعنوان: الآن ! بيان فريق البحوث الاقتصادية والسياسية الإفريقي ١٩٥١-١٩٥٢*.

أما أهدافه فتتعلق بمناهضة الإمبريالية خدمة "لجماهير إفريقية السوداء بفاعلية، هذه الجماهير التي وحدّها الاستغلال الإمبريالي، طوعاً أو كرهاً ، في الأوضاع والمصير المشترك".

أما اختيار العمل السري، فهو "موقف فرضته أهداف مناهضة الإمبريالية والظروف". والحقيقة أن السرية "كانت خلوة للدراسة، وتركيز من اجل العمل في حقبة تغلغل فيها الفساد والغموض والديماغوجية والتساهل في كل مكان" (ص ٤).

*MAINTENANT! Manifeste du Groupe Africain de Recherches Economiques et Politiques 1951-1952.

وكان من أهم ما قام به فريق الدراسات السياسية الإفريقي منذ تأسيسه حتى عام ١٩٥١:

١-في مستوى التنظير: شكّل "حلقات تأهيل وبحوث لمناهضة الإمبريالية. وإن لم تعالج جميع المسائل الجوهرية الخاصة بإفريقية، فإنها تعتقد أنها حققت الأسس الأولية لثقافة واقعية تقوم على العمل ووضحت المسائل الملحة المتعلقة بالمذهب Doctrine والنهج Méthode" (ص ٤).

٢-في مستوى العمل السياسي البحت: بادر بعض أعضاء الفريق، وبمشاركة بعض الطلبة الأفارقة من ذوي النوايا الطيبة، ودعم من الفريق كله، إلى تشكيل فريق للدراسات السياسية الإفريقية حيث أمكن لجميع الطلبة الأفارقة في باريس دون تمييز لانتماءاتهم، أن يلتقوا ويتبادلوا وجهات نظرهم، وتنظيم عمل موحد عند الضرورة" (ص٤).

٣-في مستوى العمل النقابي: قام الفريق بمداخلات في عدة مناسبات للدفاع عن المصلحة المشتركة أو تحمل مسؤولياتها. وكان العامل الأساسي في تحقيق نجاحات مؤكدة (لكن دون أن يعطي البيان أي إيضاحات حولها؟).

ونشط الفريق الرابطة العامة للطلبة الأفارقة في باريس في عهدين "دعيت ببساطة متعمدة أحياناً بعهدي رئيسيها مبو ومن قبله فال" (ص٥).

٤-قام الفريق بدور مهم في تصور أولى المعسكرات الصيفية وطرق تسييرها، التي نظمها الطلبة الأفارقة في فرنسة، وأشرفوا عليها بأنفسهم (في فيرتيماسة، وكوتانس، ومولوز، بمشاركة ٢٠٠ طالباً) (ص ٥).

٥-أسهم الفريق، كما سنرى لاحقاً، إسهاماً مهماً في تأسيس اتحاد طلبة إفريقية السوداء في فرنسة.

وفي عام ١٩٥١[٣٣]، استبدل بفريق الدراسات السياسية الإفريقي فريق البحوث الاقتصادية والسياسية الإفريقي. ووضع برنامجاً لنشاطه حدد فيه الأهداف التي يسعى إليها ووسائل تحقيقها.

فبعد أن قرر أن ساعة تقرير المصير في إفريقية السوداء قد اقتربت، أكد أن خيبة أمل الجيل الصاعد بالماضي الإفريقي الحديث والتجارب السياسية والاقتصادية المعاصرة تجعله يرى بوضوح أنه أمام خيار واحد*: إما أن يعيش خاملاً وملوثاً وفاسداً، وإما أن يكون (جيلاً) رائداً بلا غطرسة يقوم، مع كل ما يتطلب منه ذلك من تبعات ومخاطر وتضحيات، ببناء مجتمع إفريقي عصري، تقدمي وأخوي، يستعيد فيه الإنسان -بعد أن حوله الاستغلال الإمبريالي إلى بهيمة- كرامته الإنسانية، وقدرته الكاملة كمواطن من إنسانية... مسالمة وعادلة" (ص ٩-١٠).

لكن نتيجة لما يتعرض له الطلبة الأفارقة بمنفاهم في فرنسة من دعايات منهجية، واستلابات أيديولوجية وتعبئة سياسية تبقى إفريقية الحقيقية مجهولة بالنسبة لهم، أو لا تحظى بالقدر الكافي من المعرفة، وأولئك الذي يبحثون منهم ويتسلحون بهدف النضال المناهض للإمبريالية في إفريقية السوداء منقسمون على أنفسهم إلى شيوعيين ومناهضين للإمبريالية.

وبما أن إفريقية السوداء في نضالها ضد الإمبريالية بحاجة إلى توحيد جهود أبنائها كافة، فلا بد "من محاربة الانقسام والقضاء عليه". وهذا يحتاج أولاً إلى طرح المسألة الشيوعية "للتخلص نهائياً من الأسطورة القائلة بمناهضة فريق البحوث الاقتصادية والسياسية الإفريقي للشيوعية..". فالفريق يرى أن: "الشيوعية" تجيب عن مسائل تطرحها إفريقية لم يعد بمقدور الإمبريالية المتفسخة الإجابة عنها"، لكنها غير قادرة بمناهجها وحدها على الإجابة عن المسائل المطروحة كلها. فإفريقية الباحثة عن

* هكذا وردت في الوثيقة.

نفسها تطرح مشكلات جديدة، وتظهر فيها تيارات مناهضة للإمبريالية غير الشيوعية، وإذا كان من المؤكد أن: "الشيوعيين الأفارقة يقدمون تجربتهم وحلولهم، لأن نضالهم ضد الإمبريالية يمنحهم هذا الحق والقدرة، ويصنفهم بين طليعة الجماهير الإفريقية، فإن "الشيوعية" تشكّل أحد عناصر المعسكر التقدمي في إفريقية السوداء، وليس المعسكر التقدمي كله" (ص ١٠-١١). ومن المهم أن يفهم الشيوعيون الأفارقة ضرورة التعاضد المناهض للإمبريالية، وأن يصبح واضحاً لديهم أن الطريق القويم سيكون طريقاً جديداً لأن المسألة المطروحة مسألة أصيلة وتتطلب (لما لا؟) حلاً جديداً تماماً. مما يجعل "التعددية خصبة ومخصبة بعد محاربة الانقسام والقضاء عليه" (ص١١).

من جهة أخرى، يرى فريق البحوث الاقتصادية والسياسية الإفريقي "أن المهام الثورية الآنية مستحيلة، بل لا يمكن التفكير فيها بدون تأسيس جبهة مناهضة للإمبريالية – بدون توحيد جميع الأحياء (الرجال والمفاهيم) في إفريقية، وبخاصة توحيد الشباب ومنظماتهم لكي يقوموا بأنفسهم بمجابهة الواقع الإفريقي بالأيديولوجيات الحديثة". كما يجب أن يبقى حاضراً في الأذهان قول لينين: "**لا حركة ثورية بدون نظرية ثورية**" (ص١١)، وأن حزباً تقوده نظرية طليعية هو الحزب الوحيد القادر على القيام بدور المناضل الطليعي" (ص١٢).

وبما أن الانتلجنسيا الإفريقية -نتاج الإمبريالية وخادمتها في إفريقية السوداء- لم تبتكر شيئاً مهماً، وثبت عجزها على الصعد كافة، والعناصر التي تعيش على هامش النظام الاستغلالي منها لم تنتج إلا (...) "أحسية انتقائية بدون قوام*"، وبما أن عدم وجود

---

* des soupes élétiques sans constances

نظرية ثورية مناهضة للإمبريالية** في إفريقية السوداء قد يصبح أحد فضائح القرن العشرين، ولم ينجح فشل الحركات الجماهيرية الذريع في إقناع أنصار التطبيقية "Praticisme" الضيقة والبرلمانية الساذجة، فقد أصبح من الواضح، بغض النظر عن جميع صيغ الدعم المباشر للحركات الثورية الإفريقية، أن المهمة الأولى للهجرة المثقفة (أي المثقفين الذين يعيشون في فرنسة) هي الدراسة والتأهيل النظري.

بناء على ما سبق فإن فريق البحوث الاقتصادية والسياسية الإفريقي قد وضع برنامجاً يتألف من قسمين هما الإعداد والتأهيل النظري، والعمل من أجل وحدة القوى التقدمية الإفريقية كلها.

١- الإعداد والتأهيل النظري: في هذا الإطار باشر الفريق بتنظيم:

أ- جلسات تأهيل نظري -سياسي وإعلام (عروض exposés ومحاضرات).

ب- جلسات نقاش نظري وسياسي.

ج- لقاءات دعم واحتجاج أو مطالبة سياسية في إطار النضال المناهض للإمبريالية في إفريقية السوداء.

ويؤكد عزمه على المشاركة مستقبلاً، وبكل استقلالية، في مظاهرات التضامن المناهض للإمبريالية.

** ولسد هذه الفجوة سعى منشط هذا الفريق عبد الله لي إلى وضع أسس نظرية مناهضة للإمبريالية بعد عودته إلى السنغال في كتابه: **Les Masses africaines et l'actuelle condition humaine** Paris Présence Africaine, 1956, pp. 25-149, et surtout pp. 123-149.

٢-توحيد القوى التقدمية الإفريقية. في هذا المجال أعلن الفريق أنه سيعمل بكل قـواه على تكوين اتحاد واسع يضم جميع القوى التقدمية الإفريقيـــة، بانتظـــار توفـــر الظروف المناسبة لتوحيدها.

وفي هذا الإطار يقترح الفريق تشكيل لجنة تنسيق دائمة مهمتها التنسيق بين التيـــارات والمنظمات السياسية وغير السياسية. وفي حال تعذر ذلك سيقترح الفريق تشكيل فرق تنسيق مؤقتة.

واعتبر الفريق أن هذا البرنامج لا يكتمل إلا بطرح عدد من الشعارات العامة القابلـــة للتعديل عند الضرورة، توجه الإعداد الفوري لنشاط (تنظيري وعملي) مشترك:

أ- **في الصعيد الاقتصادي والاجتماعي:**

- إلغاء جميع أشكال استغلال الإنسان لأخيه الإنسان القائمة اليـــوم فـــي إفريقيـــة السوداء.
- بناء هياكل اقتصادية اجتماعية عصرية تواكب حاجات إنسانية تقدمية والجمـــاهير الكادحة (وبخاصة المنتجة) الإفريقية.

ب- **في الصعيد السياسي:** سيادة الحريات الديمقراطيـــة فـــي إفريقيـــة الســـوداء، وبرلمانات قطرية كاملة السيادة (ص ١٣).

هكذا نرى أن فريق البحوث الاقتصادية والسياسية الإفريقي الذي أسسته مجموعة مـــن الطلبة الأفارقة السود الذين يتابعون تحصيلهم العلمي في باريس، كان فريقا مناهضـــا للإمبريالية، يرى أن "لا حركة ثورية بدون نظرية ثورية"، وأن الانتلجنسيا الإفريقيـــة السوداء، التي أفرزها النظام الاستعماري الإمبريالي أثبتت بالتجربة أنها عاجزة عـــن وضع نظرية ثورية يقوم عليها نضالها. ومن ثم فإن مهمة إعداد مثل هذه النظرية تقع على عاتق المثقفين الأفارقة السود، الذين يعيشون في فرنسة. وبناء على ذلك فقد تبنى

هذا الفريق برنامجاً يهدف إلى تحقيق أمرين: أولهما الإعداد والتأهيل النظري الثوري للطلبة الأفارقة السود في فرنسة كخطوة أولى نحو إعداد النظرية المنشودة؛ وثانيهما العمل على تأسيس جبهة مناهضة للإمبريالية تضم جميع القوى الإفريقية التقدمية، وفي مقدمتهم الشباب ومنظماتهم "لكي يقوموا بمواجهة الواقع الإفريقي بالأيديولوجيات الحديثة". كما رفع عدداً من الشعارات ترمي إلى تحرير إفريقية السوداء من جميع أشكال الاستغلال والعبودية، وتدعو إلى بناء أقتصاد إفريقي حديث يلبي حاجات الجماهير الإفريقية الكادحة، ويسهم في بناء إنسانية تقدمية تقوم على الكفاية والعدل، وتطالب بسيادة الحريات الديمقراطية في إفريقية السوداء، وضمنياً باستقلال بلدانها: "برلمانات ديمقراطية كاملة السيادة".

٣- رابطة طلبة التجمع الديمقراطي الإفريقي: AERDA:

في عام ١٩٤٧، حينما كان التجمع الديمقراطي الإفريقي في أوج تصاعده[٣٤]، حض رئيسه فيلكس هوفيت-بواني الطلبة الأفارقة الأعضاء في التجمع، الذين يتابعون تعليمهم في باريس على تأسيس **رابطة طلبة التجمع الديمقراطي الإفريقي**. وكان ما يهمه آنذاك أن يرى الطلبة الأفارقة يقفون إلى جانبه، ويدعمون نشاط ممثلي التجمع في المجالس البرلمانية الفرنسية والاتحادية. لكن بعد أن أخذ وضع التجمع الديمقراطي الإفريقي يتأزم منذ عام ١٩٤٩، دخلت الرابطة في مرحلة السبات لأنها لم تعد تحظى بدعم هذا التجمع لها[٣٥]. لكن رأى بعض أعضائها وفي مقدمتهم شيخ أنتا ديوب أن ما يقومون به من دراسات لا معنى لها ما لم تكن في السياق السياسي لتلك الحقبة، وأن على الطلبة الأفارقة أن ينخرطوا في العمل السياسي علناً وفي كل مكان. وفي شهر تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٥٠، عين طلبة الرابطة شيخ أنتا ديوب أميناً عاماً لها. وفي ٢٣ من الشهر نفسه حصلت الرابطة على ترخيص رسمي لها[٣٦]، أي بعد إعلان التجمع الديمقراطي الإفريقي فك التحالف بينه وبين الحزب الشيوعي الفرنسي[٣٧]،

وانقسام قادة التجمع وفروعه بين مؤيد لفك التحالف بقيادة هوفيت-بواني، ومعارض له بزعامة أمينه العام جورج دار بوسيه، وقد انضمت الرابطة إلى الجناح المعارض.

أ- **أهداف الرابطة:** حددت الرابطة أهدافها على النحو التالي:

١-لمّ شمل جميع الطلبة الديمقراطيين الراغبين في الدفاع عن القضية الإفريقية في إطار التجمع الديمقراطي الإفريقي[٣٨]، بهدف الإسهام، رغم بعدهم عن إفريقية، في نضال الشعوب الإفريقية من أجل تحررها من النظام الاستعماري تحرراً سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً بهدف الاستقلال القومي[٣٩].

٢-صون وعي الطلبة الأفارقة بالمشكلات الإفريقية، وتذكيرهم دوماً بأن الحياة في الميتروبول (فرنسة) يجب ألا تنسيهم بأي حال من الأحوال أن المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المطروحة في إفريقية ليست هي المشكلات نفسها المطروحة في الميتروبول في فرنسة[٤٠].

٣-النضال من أجل توفير أوضاع معيشية وأجواء دراسية مرضية للطلبة الأفارقة (منح دراسية، مراكز إقامة، فنادق) خلال إقامتهم في فرنسة، وأن تشمل هذه التدابير أعداداً متزايدة باستمرار من الطلبة الأفارقة[٤١].

ب- **برنامج الرابطة:** في إطار النضال من أجل الاستقلال القومي، وضعت الرابطة برنامجاً يتضمن البنود التالية[٤٢]:

١-التحرك أمام الحكومة والبرلمان وأمام الرأي العام الفرنسي لفضح مساوئ النظام الاستعماري واستنكارها.

٢-متابعة أعمال النواب الأفارقة عن كسب ودعم نشاطهم البرلماني، أو على العكس تنبيه الأفارقة قليلي الاطلاع أو المضللين إلى خيانة هؤلاء النواب لتوكيلاتهم.

٣-تزويد إخواننا الأفارقة بمعلومات وإيضاحات تساعدهم في نضالهم، والحرص، رغم بعدنا، على "عدم انسلاخنا عن جمهور الأفارقة الذي هو سبب نضالنا"، والعمل على "توثيق العلاقات مع حركات الشباب والطلبة الأفارقة في إفريقية، ومع التجمع الديمقراطي الإفريقي".

٤-عدم الانعزال "عن حلفائنا". وذلك بإقامة علاقات وتحالفات مع منظمات الطلبة الأفارقة، الذين يعانون من قمع الدول الاستعمارية الأخرى سواء أكان ذلك في فرنسة أم في عواصم الدول الأوروبية الأخرى مثل اتحاد طلبة إفريقية الغربية بإنكلترة، ومع طلبة أبناء البلدان الأخرى ، التي تعاني من النظام الاستعماري وتناضل ضده، ومع منظمات الطلبة العالمية مثل اتحاد الطلبة الأممي L' Union Internationale des Etudiants، ومع من يناضل من الفرنسيين ضد النظام الإمبريالي. أو بكلمات أخرى الحفاظ على تحالفات رابطة طلبة التجمع الديمقراطي الإفريقي مع قوى العالم كافة التي تدعم نضالنا وتقوم بنضال مماثل. وذلك نظراً لما لهذا التحالف من أهمية في المعركة الكبرى ضد الإمبريالية ومن أجل السلام العالمي.

٥-النضال "بكل قوانا:" للحيلولة "دون تحول بلدنا [إفريقية] إلى قاعدة استراتيجية [عسكرية] ضخمة وإلى مستودع مادي [للمواد الأولية]، وبشري مع كل ما يحمل ذلك من قمع متزايد الشدة وبؤس وقتلى".

٦-تنظيم جلسات عمل جماعي ودروس خصوصية في مختلف الاختصاصات، إلخ... داخل الرابطة لمساعدة أعضائها على متابعة دروسهم وإحراز النجاح فيها.

وبدءاً من شهر شباط / فبراير ١٩٥٢، أصبح للرابطة صحيفة شهرية تنطق باسمها هي **صوت إفريقية السوداء**، شعارها: "وعي من خلال النضال، تنظيم، التزام*".

* Parise de Conscience dans la lutte, Organisation, Discipline.

ومديرها السياسي شيخ أنتا ديوب، ومسؤول تحريرها أبو بكر نيان. والغرض منها إسماع صوت رابطة طلبة التجمع الديمقراطي الإفريقي في الوقت الذي تتسارع فيه عملية تصفية النظام الاستعماري الإمبريالي في العالم كله، والإسهام في "نضال رجال ونساء بلداننا إسهاماً أكثر إيجابية، ولكي يعلم شعبنا أن طلابه معه". وذلك عن طريق(٤٣):

١-تعويض النقص، بحدود متواضعة جداً، في "الصحف الديمقراطية" في بلداننا "الناجم أساساً عن القمع المستمر والمنظم" لهذا النوع من الصحف.

٢-اطلاع الفرنسيين على حقيقة الواقع الاستعماري، أي على واقع "القمع والذّل الذي يتعرض له شعبنا يومياً" على أيدي أولئك الذين يقتلون وينهبون باسم "مهمتهم الحضارية" المقدسة، بهدف "منح إخواننا المناضلين حلفاء جدد في أوساط الشعب الفرنسي" المشهود له بمناهضة الاستعمار وأنصاره.

٣-تكريس الصحيفة وسيلة اتصال بين طلبة الرابطة من جهة، والشباب والعمال الأفارقة من جهة أخرى.

ج - الرابطة والنضال من أجل الاستقلال القومي:

تجلّى نشاط رابطة التجمع الديمقراطي الإفريقي في إطار النضال من أجل الاستقلال القومي في محاولة رسم إيديولوجية لهذا النضال، وفي معارضة التوجه السياسي للتجمع الديمقراطي الإفريقي بعد تبنيه لما عرف بسياسة "الانطواء الاستراتيجي".

١- "نحو إيديولوجية سياسية إفريقية"

في دراسة بعنوان "نحو إيديولوجية سياسية إفريقية"(٤٤)، حاول أمين عام رابطة طلبة التجمع الديمقراطي الإفريقي شيخ أنتا ديوب، وضع الخطوط العريضة لإيديولوجية سياسية إفريقية للنضال من أجل الاستقلال القومي.

تناول القسم الأول منها[٤٥]، أول أهداف هذا النضال وهو "إثارة وعي أفارقة إفريقية السوداء كافة"، أي العمل على جعل كل إفريقي يدرك جملة من الأمور وهي: إن على المرء أن يناضل من أجل أفكار لا من أجل أشخاص، وأن مصير كل شعب هو بالدرجة الأولى بين يديه...، وأن بالإمكان تحسينَ هذا المصير على الأرض بوسيلة طبيعية سبق أن استخدمتها شعوب أخرى بنجاح وهي النضال الجماعي والمنظم المتلائم مع ظروف الحياة...، وأن الشعب في هذا النضال لا يمكن أن يستغني عن طليعة avant-garde توجه نضاله، غير أن بإمكانه ومن واجبه ممارسة الرقابة عليها بتجرد من كل عاطفة، وأن هناك استغلال رأسمالي هو سبب جميع أنواع البؤس وأن القضاء عليه مرهون بالقضاء على النظام الاستعماري، وأن جميع الأفارقة يشكلون طبقة مستغَلَة، وعليها وبإمكانها أن تناضل من أجل القضاء على هذا الاستغلال...، ومن ثم فإن، بالإضافة إلى الأهداف الفورية (زيادة الرواتب والأجور، وزيادة أسعار المنتجات الزراعية التصديرية، والمطالبة بشخصية حقوقية سياسية، والمشاركة بالسلطة التنفيذية المحلية، إلخ...) **هناك الهدف النهائي وهو الاستقلال القومي للقارة الإفريقية والإيمان الراسخ بإمكان تحقيقه***.

وفي القسم الثاني[٤٦] حلّل العقبات الاجتماعية والنفسية التي تحول دون تحقيق هذا النوع من الوعي. وأشار إلى ما قام به شيخ أنتا نفسه من دراسات لتذليل بعضها مثل الدراسة التاريخية للأصول الزنجية للحضارة الفرعونية المصرية ودورها الريادي في العالم، ودحض الأسطورة القائلة: "إن إفريقية بلا تاريخ"، والتأكيد على استمرارية هذا التاريخ، ومن ثم ردّ الاعتبار للشخصية الإفريقية المميزة التي سعى النظام الاستعماري لمحوها. وهذا ما يجعل الرجل الإفريقي الأسود يستعيد ثقته بنفسه، ويثير لديه شعوراً مشروعاً بالفخر بالانتماء إلى حضارة عريقة بالقدم "يتعارض مع فكرة النير الأجنبي أياً كان شكله"[٤٧].

* التأكيد من قبلنا.

وبحث في القسم الثالث[٤٨]، سبل ووسائل إثارة هذا النوع من الوعي، وتنظيم جميع الأفارقة من عمال وموظفين ومستخدمين وفلاحين... وتعبئتهم بهدف النضال الجماعي من أجل التحرر الوطني، وأكّد أهمية دور "الصفوة المختارة" في اختيار أهداف النضال ووسائله، والارتقاء التدريجي من النضال دفاعاً عن المصالح الخاصة حتى النضال من أجل التحرر الوطني، أي ربط النضال في البداية بالمصالح الآنية لكافة عناصر الشعب والدفاع عنها، ثم الانتقال بهذا النضال تدريجياً إلى النضال من أجل التحرر الوطني. وذلك بطرح المسائل السياسية أثناء النضال من أجل لقمة العيش. "يجب التفنن بتقديم ميكنزم الاستغلال بصورة مؤثرة لكن واقعية، وإعطاء فكرة عما يمكن أن يكون عليه مستوى المعيشة فيما لو كنا نستفيد، نحن أنفسنا، "من ثروات بلدنا". وشدد على أهمية تنسيق هذا النضال في مستوى القارة الإفريقية كلها. ذلك أنه "لكي يصل النضال إلى أقصى درجة من الفاعلية علينا تجاوز ما يوضع أمامنا عمداً من عقبات محلية، والوصول إلى تنسيق النضال في مستوى إفريقية كلها. من المهم أن يدرك الأفارقة أن مشكلات أية منطقة من إفريقية، مهما بدا أنها مشكلات خاصة بها، هي في الجوهر مشكلات قارية"، وأي خطر يهدد إحدى مناطقها، يهدد القارة كلها. وأبرز أهمية طرح فكرة تأسيس اتحاد دول ديمقراطية إفريقية. ذلك "أن إفريقية سوداء مستقلة لن تنعم بالاستقرار الاقتصادي والسياسي ما لم تمتد من الصحراء إلى الكاب. فالمناطق الاستوائية فقيرة ولا يمكنها الاستغناء عن أحواض خط الاعتدال والكاب، بحيث أنها إذا وقعت هاتان المنطقتان تحت سيطرة الفاشية التي ستنتقل إلى إفريقية [عن طريق دول جنوب إفريقية]، فإن إفريقية السوداء كلها ستصبح فريسة بلا دفاع. لذا فإن من المهم أن يُطرح كمبدأ فكرة اتحاد دول ديمقراطية إفريقية تمتد من الصحراء حتى الكاب، مروراً بالسودان الإنكليزي -المصري"[٤٩].

واستعرض القسم الأخير من الدراسة القوى الجديدة، التي تتصارع على إفريقية السوداء وتحاول ابتلاعها وهي دولة إفريقية الجنوبية، ومصر الإقطاعية، والولايات

المتحدة الأمريكية، والتحالف الأوروبي المقدس المحتضر، الذي يحاول دمج إفريقية في أوروبة[٥٠]، و"الأسلحة" التي تضمن سلامة إفريقية أمام هذا الوضع. فبما أن إفريقية معزولة جغرافياً عن البلدان التقدمية فعلينا نحن الإفريقيين[٥١]:

١- أن نفهم إذن أن سلامتنا تعتمد بالدرجة الأولى علينا. وجعل كل شيء يعتمد على العون الخارجي يعد انهزامية لا شعورية، والعون الخارجي لن يكون ممكناً وفعالاً ما لم نكن قد بدأنا النضال.

٢- تحقيق الوعي من خلال النضال.

٣- التنظيم ، التنظيم، التنظيم، ودائماً التنظيم بكافة صيغه وأشكاله.

٤- الالتزام Discipline.

٥- النضال من أجل انتصار النظام الديمقراطي في الدول الأوروبية التي تستعمرنا.

وبهذه "الأسلحة" لن يتمكن أحد من الوقوف بوجهنا في إفريقية حتى لو كان يمتلك قنابل ذرية تكتيكية [؟!].

ثم أشار إلى المهام الآنية لأعضاء رابطة طلبة التجمع الديمقراطي الإفريقي، وهي[٥٢]:

١- إنقاذ التجمع الديمقراطي الإفريقي بمساعدته على "تخطي الأزمة التي يمر بها"، لأنه ليس حركة أشخاص بعينهم يُحكم عليه من خلال أعمالهم، وإنما "حركة سياسية تجسم إرادة التحرر القومي".

٢- العمل على خلق مناخ للنضال بحيث يصبح بقاء الإفريقي غير مكترث به أمراً مخزيا بالنسبة له.

٣- السعي إلى إلزام الطلبة الأفارقة بالنضال اقتداء بطلبة الرابطة.

٤- التخلي عن عزلة الطلبة الأفارقة التقليدية عن نوابهم، والاتصال بهم والاستعلام منهم عن نشاطاتهم البرلمانية بهدف دعمهم في تلك التي تنسجم مع مبادئ التجمع الديمقراطي الإفريقي، ومحاربتهم حين مخالفتها.

٥- السعي إلى تأسيس أوسع اتحاد بين طلبة الرابطة ورفاقهم الآخرين الذين يعيشون في ظل الأنظمة الاستعمارية الأخرى.

٦- العمل على تعرف إفريقية في الصعد كافة لكي يمكنهم خدمتها على أفضل وجه.

وانتهت الدراسة بتوجيه نداء إلى الرفاق الأفارقة في فرنسة وإفريقية[٥٣]، للانضمام إلى حركة التجمع الديمقراطي الإفريقي، وتعزيزها بتقديم البناء لها ونضالهم الفعلي في صفوفها، لأنها الحركة الوحيدة التي أثارت فاعليتها في المستوى الإفريقي القمع الوحشي الذي يعرفونه[٥٤].

٢- الرابطة ضد التوجه السياسي الجديد للتجمع الديمقراطي الإفريقي:

لم تكتفِ رابطة طلبة التجمع الديمقراطي الإفريقي بإعلان رفضها للتوجه السياسي الجديد الذي تبناه قادة التجمع بعد فك التحالف مع الحزب الشيوعي الفرنسي في ١٧ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٥٠، ورصد أقوالهم وأفعالهم التي لا تنسجم مع مبادئ التجمع ومثله الأعلى المناهض للاستعمار، بل عملت أيضاً على فضح "جحود هوفيت-بوني وفلول هيئة أركانه وما قدموه من تنازلات جعلتهم يظهرون على حقيقتهم كعملاء مبتذلين للنظام الاستعماري"، ومناورة الإدارة الاستعمارية التي كانت وراء هذه التنازلات. تلك المناورة التي لم تكن "تشكّل [آنذاك] سوى المرحلة الأخيرة من المؤامرة الكبرى التي دبرها الاستعماريون الفرنسيون ضد شعبنا منذ ست سنوات"، والهادفة إلى "العودة عن الحقوق السيسية والاقتصادية التي حصل عليها الأفارقة" غداة الحرب العالمية الثانية من جهة، وإلى "خلق مناخ سياسي يضمن دمج إفريقية دمجاً كاملاً في الحرب الإمبريالية ضد الحرية والسلام"[٥٥]، من جهة أخرى.

وتحقيق مثل هذا الهدف المضاعف يقتضي محاولة "القضاء على مقاومة الشعوب الإفريقية وتحطين إرادة التحرر المنظمة والفعالة لهذه الإدارة". أي "محاولة القضاء بكل الوسائل" على التجمع الديمقراطي "المترجم الملموس لهذه الإرادة" وذلك بافتعال الإدارة الاستعمارية الأجواء المناسبة للقيام بمجزرة في ساحل العاج (مركز التجمع العصبي) مماثلة لتلك التي ارتكبتها في مدغشقر في عام ١٩٤٧(٥٦).

لكن رغم الأحداث الدامية التي شهدها ساحل العاج في أواخر ١٩٤٩، ومطلع ١٩٥٠، فقد فشلت تلك المحاولة بفضل "برودة دم المناضلين والجماهير وحسهم السياسي"، و"لم يتحول ساحل العاج إلى مدغشقر جديدة". وظهر بوضوح إبان محاكمات المعتقلين السياسيين تماسك التجمع أكثر من أي وقت مضى، ومن ثم أنه لا يمكن القضاء عليه بالعنف (وهذا ما يكذب تصريحات هوفيت-بواني بهذا الخصوص). عندئذ قررت الإدارة الاستعمارية القضاء على التجمع من داخله بممارسة الضغوط على قادته، ودفعهم باطراد لتعريض أنفسهم للشبهة بهدف خلق مناخ من الفوضى وتثبيط همم المناضلين، واستخدام هؤلاء القادة بعد تورطهم بما فيه الكفاية مع الإدارة الاستعمارية في محاولة لتحويل التجمع عن سياسته المناهضة للاستعمار. وباستخدام حكيم لوسائل الترهيب والترغيب، والابتزاز (بمناسبة اختفاء السناتور بياكا بودا) والتهديد (بعدم نجاحهم ثانية في الانتخابات التشريعية، ورفع الحصانة البرلمانية عنهم) نجحت الإدارة الاستعمارية في دفع نواب التجمع إلى تغيير التوجه السياسي للتجمع بشكل مفاجئ في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٥٠(٥٧). وقد تجلى هذا التغيير، حسب رأي الرابطة، في التوجه السياسي الجديد للتجمع في مستويين البرلماني في فرنسة والمحلي الإفريقي.

في المستوى البرلماني(٥٨)، تمثل هذا التغيير بتقديم العديد من التنازلات على حساب المبادئ التي حكمت نضال التجمع الديمقراطي الإفريقي وميزته عن غيره من الحركات السياسية الإفريقية. ففي موافقة نواب التجمع على ما اقترحته الحكومة الفرنسية من تدابير تساعد على استمرار الحرب الظالمة في الهند الصينية، قضوا

"على التضامن الضروري* بين الشعب الإفريقي من جهة، وشعوب فرنسة وفيتنام التي تناضل ضد الاضطهاد الرأسمالي والإمبريالي من جهة أخرى". وبمنحهم الثقة للحكومات الفرنسية المتعاقبة منذ الدورة البرلمانية الثانية لعام ١٩٥١، أعلنوا عن تضامنهم مع السياسية الاستعمارية الحازمة والمعادية للديمقراطية لهذه الحكومات. و"بموافقتهم على قانون تزييف الانتخابات التشريعية سمحوا بخروج عدد مهم من النواب الأصدقاء للشعب الإفريقي".

وفي المستوى المحلي الإفريقي(٥٩)، تجلى هذا التغيير في التوجه السياسي للتجمع بالعديد من تصريحات ومساومات نواب التجمع وما نجم عنها من عواقب أكثر وخامة بعد، مثل تخلي هوفيت-بواني عن المعتقلين السياسيين العاجيين البالغ عددهم ٤٠٠ معتقلاً أثناء محاكماتهم بأنه سيترك "للعدالة" العناية بتقدير أمرهم، وما أدى إليه ذلك من تبرئة ساحة الإدارة الاستعمارية المجرمة وتحميل مسؤولية جرائمها لضحاياها. ومساعدته لمن "يريدون تحويل بلدنا إلى ساحة للحرب الذرية، وتهديد شعبنا بأسوأ الأخطار بموافقته على اشتراك الأفارقة غير المشروط في الحرب الأمريكية"، ووضع هوفيت- بواني نفسه وشركاؤه في خدمة النظام الاستعماري بتمجيده الإدارة الاستعمارية و "مهمتها النبيلة" ودعوته المناضلين للتخلي عن النضال الفعال.

وانتهت الرابطة إلى التأكيد على(٦٠):

- عدم جدوى سياسة التعاون الجديدة مع الحكومات الفرنسية التي اختارها نواب التجمع بسبب رفض الجماهير الإفريقية لها لمعرفتها بأنها ضد مصالحها.
- استمرار المعركة لأن الجماهير هي الأساس.
- إن التجمع الديمقراطي لن يفسد، وسيطهر نفسه بتنقيته من خلال نضال الجماهير الإفريقية، وسيقوم بمهمته التاريخية حتى النصر. وسينتصر لأنه ليس وحده.

---

* هكذا وردت في النص.

فهناك الشعوب المضطهدة في الهند الصينية وإيران ومصر وتونس والمغرب، التي توجه ضربات حاسمة **تكرس احتضار الإمبريالية***.

- إن الشعوب الإفريقية ستواصل هي الأخرى المعركة مع مناضلي التجمع، الذين لم يتنكروا لمثلهم الأعلى (مناهضة الاستعمار) وما أكثرهم. **معهم كنا، ومعهم نبقى****، وسنأخذ مكاننا إلى جانبهم بشكل مواز مع دراستنا التي نجد فيها.

- إنها ستفضح الاضطهاد والاستغلال الوحشي-جوهري النظام الاستعماري، أمام ديمقراطيّ فرنسة، وستتكلم عن فداحة بؤس الفلاح والزراع والعامل الإفريقي، والجهل المنظم في أوساط الجماهير الإفريقية ومحافظة الإدارة الاستعمارية عليها بعناية.

- إنها ستدعم، بالعرائض والوفود، إلخ...، "من نوابنا الأفارقة من يدافع منهم عن مطالب الجماهير الإفريقية ومصالحها. أما من يخون منهم الوكالة المفوضة إليهم، فليكونوا على ثقة بأننا لن نتوانى عنهم".

والخلاصة أن رابطة طلبة التجمع الديمقراطي الإفريقي تميزت عن المنظمات الطلابية الأخرى بأمرين:

١- أنها لدى تأسيسها أعلنت بصراحة ووضوح أنها رابطة سياسية، وأنه لا يمكن الفصل بين النضال الطلابي النقابي وبين النضال من أجل الاستقلال القومي، ودعت الطلبة الأفارقة السود إلى الانخراط العلني في العمل السياسي، وتكريس ما يقومون به من دراسات لخدمة القضايا والمشكلات الإفريقية بحيث تسهم في دعم تلك القضايا، وتسعى إلى إيجاد الحلول المناسبة لهذه المشكلات بما يحقق

* هكذا وردت في النص.

**التأكيد من قبلنا

مصالح الشعوب الإفريقية. وأرادت الرابطة لنفسها أن تكون رابطة لجميع الطلبة الأفارقة السود الديمقراطيين الراغبين في الدفاع عن القضية الإفريقية والإسهام في نضال الشعوب الإفريقية من أجل تحررها واستقلالها القومي.

٢- إنها أول منظمة طلبية، بل شبابية من إفريقية السوداء الخاضعة للسيطرة الاستعمارية الفرنسية تحاول رسم إيديولوجية سياسية إفريقية للنضال من أجل الاستقلال القومي، وتطرح فكرة تأسيس اتحاد دول ديمقراطية إفريقية كشرط لضمان استقلال إفريقية السوداء واستقرارها الاقتصادي والسياسي.

الخاتمة:

بعد تتبّع تاريخ الحركة الطلابية الإفريقية السوداء في فرنسة فيما بين ١٩٤٦-١٩٥٢، تبيّن لنا أن هذه الحركة مرّت بمرحلتين لكل منها سماتها الخاصة:

أ- **المرحلة الأولى ١٩٤٦-١٩٥٠**: رغم أن معلوماتنا قليلة عنها نسبياً، فإننا نلاحظ أنها اتسمت بعدّة سمات أهمها:

١-تشتت الطلبة وتوزعهم بين العديد من المنظمات الطلابية الإفريقية السوداء القطرية أو الأكاديمية، النقابية منها والسياسية، وعدم وجود منظمة واحدة تجمع صفوفهم وتمثلهم جميعاً.

٢-تركز نشاط الغالبية العظمى من هذه المنظمات على العمل النقابي، أي على الدفاع عن حقوق ومصالح الطلبة المادية والمعنوية، وقيامها بنشاط ثقافي على درجة من الأهمية بحيث أسهمت في وعي الطلبة للواقع الإفريقي، وفي تكوين وعيهم السياسي والقومي، وتعرفهم مشكلات إفريقية السوداء، ومشكلات العالم المعاصر ولاسيما من خلال علاقتها بإفريقية السوداء. رغم أن استقلال إفريقية لم يكن غائباً من أذهان مناضليها.

٣-إن عدم انخراط الغالبية العظمى منها بالعمل السياسي، لا يعني أن الطلبة الأفارقة السود في فرنسة لم يمارسوا أي نشاط سياسي في هذه المرحلة، وذلك لأن معظمهم اختار النضال السياسي من داخل حركة التجمع الديمقراطي الإفريقي التي اختارت استراتيجية النضال الثوري من أجل تحرير الشعوب الإفريقية من نير الاستعمار الفرنسي، وأصبحت طليعة حركة التحرر الوطني في المستعمرات الفرنسية في إفريقية السوداء وقائدتها.

ب- المرحلة الثانية ١٩٥١-١٩٥٢: بعد "الردة التاريخية المفاجئة" لحركة التجمع الديمقراطي الإفريقي التي تمثلت بتخليها عن استراتيجية "النضال الثوري"، وتبنيها سياسة "الانطواء الاستراتيجي"، أي سياسة التقرب من الحكومة الفرنسية الاستعمارية والتعاون مع الإدارات الاستعمارية المحلية "والتأكيد بالأفعال أن النواب [الأفارقة] ينوون الدفاع عن الشعوب [الإفريقية]، في جميع الظروف والأحوال في إطار الاتحاد الفرنسي"[٦١]، رفض الطلبة الأفارقة السود في فرنسة "سياسة الاستسلام". وكانت أهم سمات الحركة الطلابية في هذه المرحلة:

١-نجاح الطلبة في التخلص من وصاية جيل الآباء، الذي نشأ وترعرع في ظل النظام الاستعماري الفرنسي القائم، فيما بين ١٩٠٠-١٩٤٥، على سياسة "استيعاب" الصفوة المختارة الإفريقية[٦٢]. وطرح شعار الاستقلال القومي والوحدة الإفريقية.

٢-وضع الخطوط العريضة لأيديولوجية سياسية إفريقية للنضال إلى جانب الشعوب الإفريقية من أجل الاستقلال القومي.

٣-الاهتمام بالإعداد والتأهيل النظري الثوري للطلبة كخطوة أولى نحو إعداد "نظرية ثورية لمناهضة الإمبريالية".

٤-طرح فكرة تأسيس اتحاد دول ديمقراطية إفريقية على مستوى القارة كشرط لضمان استقلال إفريقية السوداء واستقرارها الاقتصادي والسياسي.

٥-تأسيس اتحاد يضم جميع رابطات طلبة إفريقية السوداء بهدف مواصلة النضال الثوري من أجل تحرير إفريقية السوداء من ربقة الاستعمار الفرنسي، هو اتحاد طلبة إفريقية السوداء في فرنسة LA FEANF. وهو موضوع بحثنا التالي الذي سينشر في العدد القادم من المجلة نفسها.

الهوامش

(١) بدايات الثمانينيات بالنسبة لإفريقية العربيـــة، وبدايـــات التســعينيات بالنســبة لإفريقية السمراء.

(2) Charles-Robert AGRON, L'Association des étudiants musulmans nord-africains en France durant l'entre-deux-guerres. In: **Revue Française d'Histoire d'Outre-Mer,** Tom LXX, nos *25* 8-259, 1983.

(3) **Le Rôle des mouvements d'étudiants africains dans l'évolution politique et sociale de l'Afrique de 1900 a 1975**, Paris, UNESCO/ l'Harmattan, 1993.

(4) Sabah KAADAN, Nationalisme et Prise de conscience nationale en AOF, **Thèse de Doctorat d'Etat**, Paris I, 1985, 2vols, vol.2, p.666bis.

(5) Ibid. vol. I, pp.251-256.

(6) Cf. E. MILCENT, **L'AOF entre en scène**, Paris, Témoinage Chrétien, 1958, op. cit.; J. DEBEY, **Evolution en Afrique Noire**, Paris, Edition de l'Epargne, 1962; J.-R. de BENOIST, **L'Afrique Occidentale Française 1946-1960,** Dakar/ Les Nouvelles Editions Africaines, 1985.

(7) Abdou MOUMOUNI, **L'Education en Afrique,** Paris, Maspero, 1964, p.104.

(8) J.-R. de BENQIST, op. cit., p.256.

(9) Cf. A. MQUMOUNI, op. cit., p.114 et pp.110-113.

(10) La Fédération des Etudiants d 'Afrique Noire en France (FEANF), **Ministêre de l' Intérieur, Exemplaire no 12, mars 1959, Rapport du Sous-Direction de l' Information, Direction de Renseignements Généraux,** ronéoté, p.9.

(11) Voir: Allocution de la séance d'ouverture du 5ème Gongrês de la FEANF, prononcée par son vice-président CHEIKH KAN (janvier 1950).

(12) Les problèmes politiques en AOF, **Rapport du Haut-Comissaire B.C. GENTEILLE,** 1954, 138pp. ronéotées, p.28.

(13) Discours du Président sortants BA HAMAT. Dix ans de lutte des étudiants d'Afrique noire. In: **L' Etudiant d 'Afrique Noire,** no28, Jav.-Fév.1960, p.6.

(14) La FEANF. **M.I...,** op. cit.. pp.5-6.

(15) Ibid., p.5.

(16) Cf. Jean SURET-CANALE. **Afrique Noire. De la Colonisation aux Indépendances 1945-1960,** Paris, Ed. Sociales. 1972. pp.13-14.

(١٧) الجدول نقلاً عن: J.-R. de BENOIST. op. cit.. p.273. والنسب من عملنا

(18) R. BASTIDE. Les Etudiants d 'Afrique noire en France. In: **Encyclopédie Mensuelle d'Outre-Mer,** no8O. Avril 1957.

(19) La FEANF. **M.I..,** op. cit.. p.6.

(20) In: **Réveil,** no325. 16 Aout 1947.

(21) La FEANF. **M.I...,** op. cit.

(٢٢) التي أصبحت منذ ١٩٥٨ تعرف باسم "فولتا الفتاة Jeune Volta".

(٢٣) وهي رابطة الطلبة السودانيين (نسبة إلى السودان الفرنسي/مالي حالياً) في فرنسة (كانون الأول ١٩٥١، ورابطة الطلبة الكونغوليين في فرنسة في تشرين الأول ١٩٥٢)، ورابطة الطلبة السنغاليين في فرنسة، (تشرين الثاني ١٩٥٢)، ورابطة الطلبة النيجريين في فرنسة (أيلول ١٩٥٣)، ورابطة الطلبة التشاديين (آب ١٩٥٤)، ورابطة الطلبة الأوبانغيين (شباط ١٩٥٥)، ورابطة الطلبة الموريتانيين في فرنسة (كانون الثاني ١٩٥٦).

(٢٤) ثمان منها تمثل المستعمرات الفرنسية الثمانية في إفريقية الغربية بالإضافة إلى التوغو، وأربع أخرى تمثل المستعمرات الفرنسية في إفريقية الاستوائية بالإضافة إلى الكاميرون.

(25) **Le Rôe des mouvements d'étudiants africains...,** op. cit., p.14.

(26) In: **Réveil,** op. cit., Titre II: Buts et Moyens d'Action, Arts.5-6.

(27) J.-R. de **BENOIST, La France et l'autorités coloniales,** op. cit., p.275.

(28) J.-R. de **BENOIST, L'Afrique Occidentale Françaisę...,** op. cit., p.275.

(29) J.-R. de BENOIST, La FEANF et les autorités coloniales. In: **Le Rôle des Mouvements d 'Etudiants Africains...,** op. cit., p.115.

(30) Cf. G. LAGANE, Les Mouvements et Organisations de Jenesse en Afrique Noire Fraçaise (1950-1960), **Mémoire de Maitrise** d'Enseigne-ment d'Histoire, Centre de Recherches Africaines, Université de Paris I, (Sorbonne), 1975.

(٣١) مقابلة الباحث مع السيد عبد الله لي في السنغال بتاريخ ٢٨ آذار ١٩٧٨.

(٣٢) انظر حاشيتنا رقم (٢٨).

(٣٣) وليس في عام ١٩٤٧ كما ورد في المدخل الذي قدم به A.A. du BOAHEN لكتاب **Le Rôle des Mouvements d'Etudiants Africains...,**op. cit., p.14.

(٣٤) على أثر الحملات الشرسة التي شنتها القوى الرجعية الفرنسية وفي مقدمتها "أركان الاستعمار العامة"، ضد التوجه الليبرالي للمشروع الأول للدستور، الذي تبنته الجمعية التأسيسية الفرنسية في شهر نيسان/ أبريل ١٩٤٦، وما اكتسبه أبناء المستعمرات الفرنسية في إفريقية السوداء من حقوق وحريات بفضل جهود النواب الإفريقيين ودعم القوى الديمقراطية الفرنسية في هذه الجمعية، وفي مقدمتها الحزب الشيوعي الفرنسي، تأسس حزب "التجمع الديمقراطي الإفريقي" (بامكو، تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٧). وفي عام ١٩٤٨، بلغ عدد الأحزاب التي في تشكّل فروعاً لهذا "التجمع" اثنا عشر حزباً موزعة على اثني عشر بلداً من بلدان ما وراء البحار الفرنسية في إفريقية والبالغ عددها أربع عشرة بلداً، فأصبح بذلك أو حزب "دولي" فيها،

وهدفه المحافظة على المكتسبات الشعبية التي اكتسبتها شعوب إفريقية السوداء بعد الحرب العالمية الثانية، والمطالبة باحترام الشخصية الإفريقية. واختار النضال الثوري سلاحاً لتحرير إفريقية السوداء من نير الاستعمار الفرنسي. وتحالف مع الحزب الشيوعي الفرنسي ممثل القوى الديمقراطية الفرنسية والشريك في الحكومة الائتلافية الحاكمة، وذلك عملاً ببرنامج "التجمع". من أجل مزيد من التفاصيل انظر بحثنا الذي سينشر في العدد القادم في المجلة نفسها بعنوان: "الدور الريادي لاتحاد طلبة إفريقية السوداء في فرنسة (la FEANF) من الحركة الوطنية في المستعمرات الفرنسية في إفريقية السوداء ١٩٥٠-١٩٦٠.

(٣٥) مقابلة الباحث مع شيخ أنتا ديوب في السنغال بتاريخ ٢ شباط ١٩٧٨.

(٣٦) **Le Rôle des Mouvements d' Etudiants Africains...**, op. cit.

(٣٧) إن المد الكاسح الذي حققه حزب التجمع الديمقراطي الإفريقي في بلدان ما وراء البحار في إفريقية السوداء وتحالفه مع الحزب الشيوعي الفرنسي أثار قلق الحكومة الاستعمارية الفرنسية ومعها "أركان الاستعمار العامة". في حين أن توثيق العلاقات بين "التجمع" والحزب الشيوعي الفرنسي بعد اختلاف هذا الأخير مع الائتلاف الحاكم حول سياسة الحكومة التي يرأسها بول راماديه، وخروجه من السلطة في شهر أيار/ مايو ١٩٤٧ وانتقاله إلى صفوف المعارضة بصحبة حليفه حزب التجمع الديمقراطي الإفريقي أدّى إلى تصاعد ارتياب الإدارة الاستعمارية من "التجمع". وقاد اندلاع الحرب الباردة إلى تفاقم عدائها له. فنظمت حملة قمع واسعة ضد "التجمع". مما أدى إلى تأزم العلاقات بينهما. وسرعان ما شعر قادة حزب التجمع وفي مقدمتهم رئيس التجمع ونائب ساحل العاج فيليكس هوفييت-بواني بأن الإدارة الاستعمارية

تسعى إلى استئصال (شأفة التجمع وتدميره، وقرر فك التحالف مع الحـــزب الشيوعي الفرنسي، وتبني ما سمي "سياسة الانطواء الاســـتراتيجي le repli tactique"، أي سياسة التقرب من الحكومة الفرنسية والتعاون مـــع الإدارات الاستعمارية المحلية، "لأن من المهم التأكيد بالأفعال أن النـــواب [الأفارقـــة] ينوون الدفاع عن الشعوب [الإفريقية] في جميع الظروف والأحوال في إطار الاتحاد الفرنسي". لمزيد من التفاصيل انظر بحثنا القادم الذي سبق الإشـــارة إليه في الإحالة رقم ٣٢.

(38) **CRDA, Documents Originaux, 30 (1),** Statuts de l 'Association des Etudiants RDA, Art. 4.

(39) Programme Politique de l 'ARDA. In: **La Voix de l'Afrique Noire,** no 1, Per. Fév. *1952,* p.3.

(40) Ibid. p.4.

(41) Ibid. p. 3.

(42) Ibid. pp.3-4.

(43) La Liquidation de tout le système colonial de l' impérialisme est a l'ordre de jour (IDA NOV *1950).* In: **La Voix de l'Afrique Noire,** op.cit., pp.1-2.

(44) Cheikh Anta DIOP, Vers une idéologie politique africaine. In: **La Voix...,** ibid., pp.5-21.

(45) Ibid. pp.5-7.

(46) Ibid., pp.7-12.

(47) Ibid., pp.10-14.

(48) Ibid., pp.12-14.

(49) Ibid., pp.14.

(50) Ibid., pp14-19.

(51) Ibid., pp 19.

(52) Ibid., p.20.

(53) Ibid., pp.20-21.

(54) CONTRE LE PEUPLE AFRICAIN. Les Députés RDA complotent avec les Nègriers. In: **La Voix de l' Afrique Noire,** op. cit., pp.21-22.

(55) Ibid., p.22.

(56) Ibid., pp.23-24.

(57) C F. H. DIABATE, **la Marche des femmes sur Grand-bassam**, Dakar-Abidjan, les Nouvelles Editions Africaines, 1975, P.10 et le témoigngage de Daumbia Jacquees SANTIGUT, lutte et victoire du Rossemblement démocratique africain conter la colonisation Française, In: **Revue de la Fondation Houphuët-Boigny**,204, pp. 40-49.

(58) Ibid., pp.22-23.

(59) Ibid., p.23.

(60) Communiqué de désapparentement. In: G. LISETTE, **Le Combat du Rassemblement Démocratique Africain dans la lutte anti-impérialiste,** Paris, Présence Africaine, 1983, p.161.

(٦٢) انظر: صباح ممدوح كعدان، **تاريخ إفريقية الحديث والمعاصر**،جامعة دمشق، دمشق ١٩٩٨-١٩٩٩، ص ١٠٠-١٠١.

العولمة

إشكالية المفهوم - البدايات - المسارات

(ومنعكساتها في الوطن العربي)

الدكتور: حسن أبو حمود

جامعة دمشق

العولمة

إشكالية المفهوم - البدايات - المسارات

(ومنعكساتها في الوطن العربي)

الدكتور: حسن أبو حمود

جامعة دمشق

مدخل:

قبيل دخول العالم إلى الألفية الثالثة، نخر العقد الأخير من القرن العشرين، بأحداث وتطورات جسام، توجّت بانهيار جدار برلين وتفكك "الاتحاد السوفيتي" وباقي المنظومة الاشتراكية، وقيام منظمة التجارة العالمية، وما رافق ذلك من أحداث سياسية ومعارك عسكرية، وصراعات دموية، شملت بأبعادها المباشرة وغير المباشرة سكان العالم قاطبة، وبتلازم لصيق بكل ما حدث بدأت تتدفق شعارات كونية، توحي بأن شيئاً ما يجري التحضير له في الغرب عبر تلك الشعارات الضخمة مثل "الدفاع عن القانون الدولي" "والدفاع عن حقوق الإنسان"، "تحرير تجارة السلع والخدمات"، "حرية انتقال رؤوس الأموال". الحدّ من تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي، وتعزيز الخصخصة... وغيرها من الشعارات والمبادئ التي تنتشر في العالم اليوم بسرعة خيالية، مستفيدة من الثورة التكنولوجية للاتصال والمعلومات بمختلف وسائل الإعلام التقليدية والمعاصرة،

التي تعدّ بدورها إحدى سمات المرحلة الجديدة. وإحدى أهم أدوات "عصر العولمة"، الذي يجتاح العالم.

يندرج البحث تحت إطار "العولمة" كمصطلح لا زال الغموض يكتنف العديد من جوانبه، بالرغم من أن بداياته ليست حديثة نسبياً من جهة، وبالرغم من ارتسام مساراته السياسية والاقتصادية والاجتماعية في مراكز القوى والأطراف العالمية. وتشكّل العناصر الثلاثة -المفهوم – البدايات – المسارات، المحاور الرئيسة التي يدور حولها البحث.

أما الهدف الذي ننشده من البحث، فهو الخروج بمجموعة من المقولات أو الاستنتاجات العامة، المبنية على الفهم الموضوعي لعناصر البحث، من خلال استعراض مختلف الآراء ووجهات النظر التي تناولت ظاهرة "العولمة"، وما أكثرها، لاستشراف آفاق ومستقبل التوجهات الغربية المعولمة والمركزة، وكيفية انعكاساتها على البلدان والمجتمعات المتطوّرة والأقل تطوّراً أو النامية. معتمدين في ذلك على عرض وتحليل للوقائع الملموسة التي أفرزتها تلك التوجهات على مختلف الأصعدة خلال عقد التسعينيات من القرن الماضي، باعتبارها شكّلت المقدمات البنوية، والمرتكزات الأساسية للانطلاق بإشادة وبناء عصر بشري-مادي جديد. يحمل في طياته الكثير من التناقضات الحادّة، التي تنذر بأخطار عالمية قادمة، فيما لو استمرت الطروحات الغربية "المزيفة" بنفس النهج والأدوات، التي ستتضح من خلال نص البحث.

إشكالية المفهوم:

قبل الولوج في تحديد ماهية هذا المفهوم المستجد -نسبياً- في عالمنا المعاصر، بكل ما يحمله من مفاهيم ومسميات حديثة، أو مستحدثة، تنضوي بمعظمها ضمن هذا المصطلح الواسع، والقادر أيضاً على استيعاب المزيد من المفاهيم والمصطلحات، التي

ستظهر تباعاً في الحقبة الزمنية التي يمرّ بها العالم الآن، والتي لا يمكن تحديد نهايتها، على طريقة "فوكوياما" في كتابه ذي الشهرة الواسعة "نهاية التاريخ" دون أن نقصد بهذا التمهيد إضفاء هالة من الوهم، حول مصطلح العولمة، أو خروج عن الموضوعية في تحديد ماهيته، بعد أن باتت هذه القضية تحتل مساحات واسعة في الفكر الإنساني المعاصر، بدليل ذاك الحجم الهائل من الدراسات، والكتب، والمقالات، ومختلف وسائل التعبير والإعلام الأخرى، التي انصبّت، وتنصبّ يومياً عليها. وبعد أن أخذت تتغلغل في شتى نواحي الحياة الإنسانية، من سياسة، واقتصاد، واجتماع، وثقافة، وإعلام، وبيئة...إلخ، متجاوزة بذلك الكثير من الأسس والحقائق التي كانت - ولا زالت قائمة بحدود نسبية متباينة بين دولة وأخرى- ترتكز عليها الدولة، كالسيادة، والحدود، والإجراءات الوقائية...وغيرها، مع العلم بأن العولمة كظاهرة، لا زالت في طورها الأول من التشكّل ولن تتبلور بصورة متكاملة الرؤية. وبالتالي يصعب الخروج بمفهوم محدد ونهائي لما تعنيه العولمة، وجميع المحاولات السابقة بهذا الشأن، اعتمدت في طروحاتها ومحدداتها على مجموعة المظاهر والأبعاد التي تتوضح يوميا، كمنعكسات ومؤشرات تساعد في الوصول إلى مفهوم قابل للتعديل ولو على الأقل جزئياً. وهذا بالتأكيد حالنا في هذا البحث، حيث لن نستطيع، إلا أن نخرج بمفهوم لا نهائي، وغير قطعي. سيما إذا أضفنا لما سبق الواقع المتناقض في نظرة المفكرين والباحثين والسياسيين لهذه الظاهرة، فمن مؤيد ومدافع عن طروحاتها، إلى رافض ومناهض كليا، وما يقع بين الموقفين المتطرفين من مواقف أخرى، يكتفي أصحابها بتسليط الأضواء على الطروحات والمنعكسات الإيجابية أو السلبية، وفقاً لما ينسجم مع خليفته الفكرية أو السياسية. وما يلفت الانتباه بهذا الصدد أيضاً -وجود فريق من المفكرين الغربيين وغيرهم على قناعة شبه تامة بأن العولمة مجرد أسطورة، لا يمكن أن تتحقق في الواقع، وكل ما يجري من متغيرات وتحولات في عالمنا، ما هو الإنتاج طبيعي للإبداع الإنساني المتواصل، علميا، وتقنيا، ينتشر دوليا، ليضفي طابعا جديدا

على العلاقات الدولية بمستوياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. ونجد على سبيل المثال المنظِّر الاجتماعي "بول هيرست" وعالم الاقتصاد "جراهام تومبسون" يفرقان بين ظاهرة التدويل الموضوعية، والمزاعم الرائجة الأسطورية عن تبلور قريب العهد لهيكل اقتصادي معولم، ما هو برأيهما إلا نمطاً مثالياً لا واقعياً فعلياً. "تبلغ هذه الصورة - العولمة- من القوة درجة جعلتها تسحر عقول المحليين، وتأسر الأخيلة السياسية. ولكن أهي صورة حقيقية؟ وكما كان من المتوقع تعمّق ارتيابنا كلما مضينا في البحث حتى صرنا مقتنعين أن العولمة -أو الكوكبة- كما يتصورها أشد دعاتها تظرفاً، هي إلى درجة كبيرة أسطورة"(١).

إزاء ما تقدم نحن أمام إشكالية حقيقية في تحديد مفهوم العولمة، وللخروج منها، علينا أن ننتمي عقلانياً للموقف الذي يتلاءم مع ظروفنا ومحيطنا ومجالنا الحيوي. وألا نردد -ببغاوياً- مفاهيم الآخر إلا بعد تفنيدها وتحليلها وفهم مرادها، ولا زال العقل العربي -بالرغم من كل ما يعتريه من سلبيات- قادراً على تجاوز هذه العقبة.

إن منطلقنا الموضوعي لحل الإشكالية، يكمن في أن العولمة نتاج رأسمالي بكل ما تحمله من تجليات قائمة بالدرجة الأولى على أساس فكري اقتصادي رأسمالي متجدد على الدوام، بما يحقق له مزيداً من المكاسب والمصالح المادية والمعنوية بآن واحد، وهي بذلك تشكل مرحلة تاريخية جديدة، بدأت أمواجها تلامس مختلف شواطئ العالم المتباعدة، إلا أنها كظاهرة ما زالت غير واضحة المعالم، لا من حيث تحديد المفهوم، ولا من حيث اختبارها على أرض الواقع. تأتي في السياق التاريخي إثر سقوط العديد من الإيديولوجيات التي شهدها القرن المنصرم، وكان أهمها: الفاشية والنازية والشيوعية. إنها الثوب الأكثر حداثة وعصرنة للرأسمالية. حاكت خيوطه قوى المصالح الاقتصادية-السياسية الغربية، التي ترى فيه المستقبل، ولا مستقبل بدونه. فهم بذلك يعتبرون العولمة ظاهرة حتمية لا رجعة عنها، ستجلب الرخاء والخير للبشرية بأسرها، وترقى برأيهم إلى مراتب المذاهب أو العقائد التي حفل بها التاريخ

الإنساني. وهي تتوجه بقوة وثقة لتجعل من البشرية ككل الفضاء السياسي لها، والآخذ بالظهور أكثر تماسكاً وصلابة بفضل عمليات التحديث المتعاظمة في كافة المجالات، الإنتاجية، والاتصالات، المعلوماتية..يبدو وكأن العالم قاطبة يتحول إلى "قرية كونية"(٢). بهذه الصيغة تجدنا متفقين مع المفكر العربي محمد عابد الجابري إلى حد يذكر بأن العولمة كمصطلح معرب، يفيد تعميم الشيء، وتوسيع دائرته ليشمل الكل، وأن الدعوة إليها بهذا المعنى، إذا صدرت عن بلد أو جماعة، فإنها تعني تعميم نمط من الأنماط التي تخص ذاك البلد أو تلك الجماعة وجعله يشمل الجميع: العالم كله. إلا أن الدكتور الجابري يربط مفهوم العولمة بتعميم للنموذج الأمريكي باعتبارها ظهرت بداية في الولايات المتحدة الأمريكية(٣)، إلا أننا نرى الأمر أوسع من ذلك، فالنموذج مركّب رأسمالي غربي، ينضوي فيه النموذج الأمريكي إلى جانب النماذج الغربية الأخرى باتساق معين، ترعاه المصالح المشتركة، فيشكّل نموذجاً عاماً منسجماً عندما تتعارض مصالح الولايات المتحدة مع المصالح الأوروبية، أو البلدان الأوروبية فيما بينها، وكذلك للمصالح اليابانية مع أحد أو كلا الطرفين السابقين. باعتبار أن اليابان غدت جزءاً هاماً من ذلك النموذج العام.

نستطيع فهم ذاك التصور للعولمة الذي يقدمه أنصارها، لنؤكد من خلاله بأنها ظاهرة معقدة من منطلقات جيواقتصادية، وجيوسياسية، وجيوإنسانية، تؤثر تأثيراً كبيراً وملحوظاً على كل جوانب النشاطات الحياتية.

إنها عملية التحول التاريخي للفضاء العالمي نحو منطقة واحدة، تتحول فيها -دونما عوائق- رؤوس الأموال أو السلع والخدمات، وتنتشر فيها الأفكار بحرية، حيث يتحرك معتنقوها لخلق المؤسسات العصرية وتفعيل آليات عملها ونشاطها وتأثيرها المتبادل. بالاستناد على "الخصخصة" في الاقتصاد، والاستهلاك في الثقافة، ليكوّن الدور الرئيس بذلك كله لقوى السوق والقطاع الخاص. وهذا تحديداً ما قصدناه عندما ذكرنا الأساس الفكري -الاقتصادي- للعولمة، بحيث تنحسر فيه السياسات الوطنية أو

القومية لمصلحة الاقتصاد، وتتعدد نماذج التنمية والإنتاج لمصلحة نظام ليبرالي مفتوح، يعتمد التنافس كآلية في نظام السوق الذي يشترط: تدويل المال، وتوسيع التجارة البينية، وما تستلزمه من خدمات. ويتم هذا بمؤازرة قوية ومتجددة من أجهزة إعلامية بلغت حد الوصول إلى سلطة مسيطرة جديدة تتحكم في كيفية توزيع المعرفة والثقافة الغربية، دون أي اكتراث بحضارات الشعوب وخصوصية ثقافاتها. وللدلالة على قوة سلطة الإعلام لنتمعن بالمقطع التالي: "إن سلطان الصور المتحركة، قد أخذ يعم حتى قبيلة -يانومامي- الهندية الحمراء التي حظيت، بسبب خصوصيتها، باهتمام الكثيرين. كما عمّ سلطانها شباب -شاغري لا- في بوتان أيضاً، ففي هذه المدينة البوذية الواقعة على سفوح جبال الهملايا، والتي كانت إلى فترة وجيزة نقية التراث، خالية من المؤثرات الأجنبية، ولا يزال سكانها مواظبين على لف ركبهم بجلابيب سميكة تقيها من عنت السجود المتواصل، الذي يمارسونه وهم في طريقهم للحج إلى الأماكن المقدسة، ويزاولون الزراعة بطرق تعود للعصور الوسطى. إلا أنهم أيضاً قد صاروا يكنون الإعجاب والتقدير لأولئك المواطنين الذين يرتدون فوق زيهم الشعبي جاكيت الجلد، على الطريقة الأمريكية، ويتاجرون بأفلام أمريكية. طبعت في الهند، دونما ترخيص من أصحابها الشرعيين. وحتى في شرق روسية النائي، صار منذ أمد ليس بالقصير للمسلسل الأمريكي "دينفر كلان" وكما ذكر "برتران شنايدر" الأمين العام لنادي روما في مقابلة تلفزيونية أجريت معه عام ١٩٩٢م، بأن ما يزيد عن خمسمئة قمر صناعي تدور حول الأرض مرسلة الإشارات اللاسلكية للحداثة، وموجدة بذلك شاشات مليار من الأجهزة التلفزيونية، عملت على اقتلاع ملايين البشر من حياتهم القروية رامية بهم في خضم أبعاد فلكية"(٤).

والغاية الرئيسة للسلطة الإعلامية، في عصر العولمة، هي العمل على تعميم نموذج مغاير لمفهوم المواطنة، والحدّ من حرية الدول في اتباع سياسات وطنية مستقلة، كالخيارات الاقتصادية والاجتماعية والعديد من قضايا السياسية الخارجية أو الداخلية.

وهكذا يتضح أن العولمة كمرحلة تاريخية قادمة، أو كظاهرة عالمية تسير بخطى متتالية على ثلاثة أرجل إن صح التعبير -واضحة الملامح هي: الاقتصاد ، السياسة، والإعلام. تحركها قوى ومؤسسات دولية يصعب تجاهلها وفي مقدمتها صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، ومنظمة التجارة العالمية. لذا كان من الطبيعي لدول العالم قاطبة، ولاسيما تلك الأقل تطوّراً، من أن تستجيب بشكل أو بآخر لمختلف طروحات العولمة.

البدايات:

يخطئ من يعتقد أن العولمة ظاهرة جديدة، فهي تمثّل شكل من أشكال التعاون الدولي، القائم منذ مئات السنين. مثلها في ذلك مثل، تدويل العلاقات الاقتصادية، التي نشأت وتطورت منذ القرن التاسع عشر. وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أن الأزمات العالمية والحروب، وانهيار الإمبراطوريات الاستعمارية في القرن العشرين، قد أضعف جوهرياً وتائر ظهور وتشكّل العولمة.

وبعد عام ١٩٤٥م، برزت في الاقتصاد العالمي عمليتان هامتان، فمن جهة بدأت من جراء التوظيفات الاستثمارية، وتبادل التكنولوجية، وإدخال أساليب تنظيمية جديدة، عملية تقارب بين الدول المتطورة من حيث المستوى التقني -الاقتصادي. وكذلك من حيث مؤشراتها البنيوية الاجتماعية والسياسية. ومن جهة أخرى زالت الإمبراطوريات الاستعمارية وحصلت الدول المستعمرة على استقلالها السياسي، وبدأت تظهر خيارات واعية لديها باتجاه التحديث والتنمية، وانتشار وسائل التكيف الإداري التي أملتها عمليات التطور الاجتماعي بشكل تدريجي، يختلف بأدائه وفعاليته عما حصل في البلدان المتقدمة، ومع ذلك سارعت تلك المستجدات في اندماج البلدان المختلفة في الاقتصاد والفضاء العالميين، وبدأت تظهر جراء ذلك مقدمات هامة للعولمة.

لقد ساعد جوهرياً في دفع ظاهرة العولمة خطوات إلى الأمام، التطور النوعي لوسائط النقل، وعالم الاتصالات. الأمر الذي لم ينجم عنه فقط زيادة تعزيز وتسهيل الاتصال بين الشعوب والأقاليم والقارات، فحسب بل أسفر أيضاً من تمكين شرائح كبيرة من السكان من التواصل والاختلاط بسهولة.

مع العلم وكما نوهنا في إشكالية المفهوم -فإن العولمة لم تشمل حتى الآن إلا عدداً محدوداً نسبياً من البلدان الصناعية المتطورة، التي تشكل أساساً لعلاقات التكامل الناجمة بين عدد من مجموعات البلدان المتطورة والمتطورة نسبياً، والتي تشمل كعدد أكثر من ستين دولة. الأمر الذي لا يدل على ظاهرة العولمة بقدر ما يدل على ترشيح ظاهرة العلاقات الإقليمية كمرحلة تمهيدية للعولمة. الآخذة بشمول وجذب مشاركين جدد فيها. فقد لوحظ في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٥٠-١٩٨٠، أن بلداناً من مختلف قارات العالم، التحقت بعجلة التطور الاقتصادي، وأصبح لها وزنها الفعال في المجتمع الدولي مثل (البرازيل - الهند - النمور الآسيوية - نيجيرية - فنزويلا- مصر وغيرها)، وكان بروز مثل هذه البلدان، إنما يعني في جوهر الأمر نشوء عملية تمايز ضمن إطار بلدان "الجنوب" وظهور منطقة عازلة مستقلة في عالم متغير، أخذت جميع بلدانه ترفض فكرة تبعية الاقتصاد، وإذعانه للمبدأ السياسي، والانحياز باتجاه اقتصاد السوق، واعتراف النخب السياسية بالنموذج الرأسمالي بوصفه النظام الاجتماعي - الاقتصادي الأمثل. مما جعل هذا العالم -ولو نظرياً- يبدو متشابهاً أكثر من أي وقت مضى على امتداد القرن العشرين.

بيد لأن تصور العالم كفضاء اجتماعي -اقتصادي، أحادي الطراز، محركه باعث أحادي مبني على قيم إنسانية جديدة وعامة. بدا بسيطاً ساذجاً، مبالغاً فيه لأسباب عدة نذكر منها:

أولاً: إن عملية الانتقال إلى منظومة بنيوية، وظيفية متطورة، تقضي إلى قيام نظام سياسي معاصر، لم يبدأ بعد في الكثير من المناطق والأقاليم، كما أن نتائج التحولات الديمقراطية في أغلب الحالات لم تتبلور بعد.

ثانياً: إن دمقرطة الحياة السياسية في البلدان النامية تتشابك مع بعث القيم الحضارية المتأصلة والتي تمثل الزعامة الروحية، والموجّه لقيم مجتمع جماهيري مفتوح على المخاطر والاحتمالات. وينعكس عدم توفر الأرضية الثقافية والحد الأدنى المطلوب من الوعي لتمثّل قيم ومؤسسات النموذج الغربي، ينعكس أحياناً على شكل نزعات أصولية متطرفة -مصر، الجزائر- تعارض التحديث والعولمة بإطارها الراهن. فتظهر مسارات _في المركز – الغرب – والأطراف – البلدان النامية) مختلفة في السمت والاتجاه.

ثالثاً: ثبت من أحداث النصف الثاني من تسعينيات القرن العشرين أن القوى المؤثرة الفاعلة، تبذل قصارى جهودها لخلق عالم أحادي القطب في العلاقات الدولية، يقوم على استبدال الأسس والمبادئ الأفقية المتوازنة في تلك العلاقات، بمبادئ تراتبية عمودية، يفرضها المركز على الأطراف قائمة أساساً على الهيمنة والإخضاع. إن مثل هذه الرغبات والتوجهات ستثير بالضرورة تضارباً، وتصادقاً في المصالح السياسية والاقتصادية لمجموعات مختلفة من الدول، لأن التصورات المتفائلة النابعة من الفهم الأحادي لـ "نهاية التاريخ"، لا تعكس بحال من الأحوال آفاق التطور الموضوعية للعالم. وهذا ما لمسناه إلى حد ما في إشكالية المفهوم بين المتفائلين والمعارضين للحقبة الجديدة للتاريخ.

من الضروري أن نشير هنا إلى أن وضوح وتجلي جهود المركز الغربي بزعامة الولايات المتحدة ما كان لها أن تتضح -كما أشرنا- في النصف الثاني من عقد تسعينيات القرن العشرين، لولا جملة من التغيرات الدولية الكبيرة والتي توّجت بظهور

نظام عالمي أحادي القطبية بعد انهيار الاتحاد السوفيتي ومنظومة الدول الاشـــتراكية، بدأت تظهر خصائصه تدريجياً خلال العقد المذكور، لنصل في نهايته وبدون مفاجــآت تذكر للولوج بشكل طبيعي في العصر الجديد المســـمى بعصـــر "العولمـــة" مـــع أن المصطلح بحد ذاته كان قد ظهر في بدايات العقد المذكور، دون أن يعني ذلك فـــهماً متكاملاً لمختلف جوانبه، أو تعمقاً بطياته، ومكنوناته، وتفصيلاتـــه. لأننـــا مـــا زلنـــا وبالرغم من اهتمام المفكرين، والدارسين، والمحللين، والمراقبين الدوليـــين، وجميـــع المواقف الصادرة عن مختلف الجهات والأوساط -نعايش خطوطه العامـــة المبهمـــة، التي تحاول فرض نفسها بصورة أو بأخرى مستخدمة أدوات ووسائل لا حصر لها من جهة، ولا مجال لتجاهلها أو الاستغناء عنها، من جهة أخرى.

لنحاول الآن النظر لبدايات العولمة من جانب آخر، أكثر وضوحاً من النظرة العامـــة السابقة، وليكن الجانب الاقتصادي، الذي يعدّ بحق أولى الصفحـــات التـــي ســـجلتها العولمة في مسيرتها، التي بدأت كما ذكرنا بعيد الحرب العالمية الثانية، حيث انطلقـت اتجاه العلاقات الاقتصادية عندما توصلت الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبة الغربية إلى "الاتفاقية العامة للتعريفات والتجارة" المسماة اختصاراً بـــ: "الجات"، وذلك رغبـــة من الدول المذكورة في خلق نظام مشترك للتجارة الدولية لأول مرة في التاريخ، تلـــى ذلك جولات دولية وصل عددها إلى الثمانية، واستغرقت الأخيرة منـــها والمعروفـــة بجولة أورجواي، سبع سنوات متتالية ١٩٨٧-١٩٩٤، وفي كل عام كان يزداد عـــدد الدول المنضمة للاتفاقية ليصل اليوم إلى أكثر من ١٣٠ دولة متقدمة وناميـــة، تعمـــل على خفض مستمر لتعريفاتها الجمركية السائدة بين الـــدول، -مـــع العلـــم أن تلـــك التعريفات السيادية المختلفة التي تمارسها الدولة داخل حدودها الجغرافيـــة- إلـــى أن ظهرت في عام ١٩٩٥، "منظمة التجارة العالمية"، كبديل لاتفاقيـــة الجـــات. وكـــانت النتائج التي أفرزتها الالتزامات المحددة من قبل المنظمة "WTO" والاتفاقية السابقة لها عظيمة جداً، فخلال العقود الأربعة الأخيرة من القرن الماضي فاق نمو التجارة للسـلع

والخدمات نمو الإنتاج، ووصل الفارق بينهما عام ١٩٨٥، إلى الضعف، بعد أن كانت الحالة السائدة في السبعينيات في الدول الغربية تعتمد وإلى درجة كبيرة على ضوء المبادئ التي صاغها الاقتصادي البريطاني الشهير "جون ميغارد كينز"، والتي يعطي فيها للحكومة، ممثلة بموازنتها العامة حق التدخل في الحياة الاقتصادية وفقاً لحالتي الاقتصاد الإنكماشية أو الرواجية، ومع بداية الثمانينيات تم التخلي بصورة شبه كلية عن طروحات "كينز"، بطروحات جديدة توكل للحكومة مهمة الحفاظ على الإطار العام للنظام الرأسمالي، مع التأكيد على أنه كلما تمتعت المشروعات بحرية أكبر بشأن استثماراتها واستخدامها للأيدي العاملة، كان النمو أكبر، والمستوى الاقتصادي أعلى للجميع، وبناءً على هذا الاعتقاد راحت حكومتي الولايات المتحدة وبريطانية، وتلتها بقية الحكومات الغربية، الليبرالية النزعة جميعها، تبذل قصارى جهدها من أجل تحرير رأس المال من القيود، فألغت وبشكل واسع، ما كان سائداً من رقابة وتدخلات حكومية، وتضغط أيضاً على كل الشركاء الرافضين لتطبيق هذا النهج، والأخذ بالتوجهات الجديدة، مستخدمين لتحقيق ذلك مختلف وسائل التهديد من عقوبات تجارية، وحصار اقتصادي. ووقف المساعدات، والاتهام بالإرهاب، وتجاوز حقوق الإنسان، وغيرها من وسائل الضغط الأخرى، التي تمارس على أنظمة ودول تحاول معارضة النهج الجديد. وبذلك غدت الليبرالية، وتحرير التجارة، والخصخصة هي الوسائل الاستراتيجية في السياسة الاقتصادية الأمريكية -الأوروبية لخلق أكبر تغير جذري في النظام الاقتصادي العالمي، والذي سيتحول حسب آراء المدافعين عنه إلى اقتصاد معولم، يحمل الرفاهية لكل الأمم المشاركة فيه.

المسارات السياسية:

نوهنا فيما سبق بأن العولمة ظاهرة مركبة أو معقدة في مكوناتها الجيوسياسية والجيواقتصادية، والجيوإنسانية (ثقافية -مجتمعية...)، وهذا التركيب لا يمكن فصله عن بعضه بعض، أو فهم كل منه على انفراد في الواقع، إنما من خلال فرزه إلى

مسارات منفصلة نظرياً فقط لتسليط مزيد من الأضواء على كل منها والتعمق بفهمها بطريقة تحليلية تسمح بقراءة أكثر موضوعية للظاهرة ككل. واخترنا كبداية المسارات السياسية فقط للعولمة كظاهرة يسعى أنصارها لأن تكون متكاملة.

تتبدى العولمة بوصفها عملية متناقضة وديالكتيكية. تكوّنها وتؤثر فيها نزعات مختلفة ومتنوعة، نظراً لغياب وحدة الاتجاه والرؤى الفكرية إزاءها، مما خلق تأويلاً متناقضاً ظاهرياً. فالعولمة تحقق فعالياتها من خلال الوحدات الإقليمية، أي من خلال لا مركزية الفضاء الكوني وما تسفر عنها هذه العملية من الزيادة المتنامية لفعالية وقدرة هذه التكوينات، الإقليمية الاقتصادية والسياسية. ويجد موضوع الترابط بين العولمة والوحدات الإقليمية تفسيراً له في الأبحاث والدراسات التي بدأت تظهر بوضوح في أواسط تسعينيات القرن الماضي، والمكرّسة لتبيان "التناقض العالمي الجديد".

إننا نرى في جوهر التناقض العالمي، تجسيداً للتناقض الدائم بين منظومتين رئيستين لبناء العالم، الأولى تتجسّد في مبدأ السيادة السياسية للدولة القومية. والثانية تتجسّد في عولمة العمليات الاقتصادية والثقافية والإيديولوجية والسياسية والأفكار المتعلقة بالوجود الإنساني، أو ما يطلق عليها "القيم الإنسانية العامة". إن المساعي الرامية لحل هذا التناقض نظرياً، قد أفضت إلى نشوء مفهوم مستحدث للأممية، التي أشبه ما تكون مشابهة في الجوهر لمبدأ "السيادة المحدودة"، التي طرحها "بريجينيف" وطبقها الاتحاد السوفيتي -آنذاك- عام ١٩٦٨، فيما كان يعرف بـ: تشيكوسلوفاكية، وفي أفغانستان عام ١٩٧٦م.

إن المفهوم المستحدث للأممية أو ما يمكن أن نسميه "الأممية الجديدة"، تجلّت في الواقع السياسي أثناء حرب حلف شمال الأطلسي ضد يوغسلافية، وتبين أنها لا تحل المشكلات والصراعات الناجمة عن التناقضات الأثنية، والمذهبية، التي تضرب بجذورها عميقاً في التاريخ البشري، بل ثبت عكس ذلك، واتضح بأن مثل هذه

التناقضات لا يأتِ من خلال "الحلول العسكرية المتطورة"، بل من خارجها، ويمكن الكشف عن جذور "الأممية الجديدة" في رغبة النخب السياسية لحل مشاكلها التكتيكية، وكأنها تريد أن تتجاهل الآثار المدمرة للعملية التي تزج البلدان المتجاورة والبعيدة على حد سواء، في دوامة العنف والصراعات.

ونرى أثناء المساومات والمفاوضات المضنية التي أدّت إلى توقيع اتفاقية "ماسترخيت"، حصل وزير خارجية ألمانية السابق "غينشر" على موافقة أوروبية باستقلال كرواتية، وسلوفينية، قبل انفصالهما عن الاتحاد اليوغسلافي، والتي كانت تنسجم مع رؤى ومصالح قوى دولية خارج حدود يوغسلافية. إن السياسيات الاجتماعية التي انتهجتها النخب السياسية في هاتين الجمهوريتين، قد سارع في تفتيت يوغسلافية مع نهاية ١٩٩٠، وبداية ١٩٩١. وكما كان معلوم فإن مناورات تلك الجمهوريتين الاتحاديتين سابقاً، قد أدت ليس إلى تفتيت الاتحاد اليوغسلافي فحسب، بل وإلى نشوب حرب البلقان في ربيع ١٩٩٩.

إن ما حصل من انهيار للمنظومة الاشتراكية أدّى بشكل ما إلى تراجع التحليل المعمّق الغربي للنظام العالمي، ليفسح المجال للأمزجة الصحفية المتفائلة كي تحتل موقع الصدارة، التي تعدّ أبرز تجلياتها وتعبيراتها إعادة إحياء النظرية التي تعدّ مستقبل البشرية عبارة عن نتيجة لحركة ارتقائية عفوية تقريباً نحو نموذج معياري لبناء وإعادة صياغة العالم، تتكشف فيه وبسهولة ويسر السمات النمطية للمجتمع الغربي المعاصر. ومن خلال اكتساب قوة الدفع والاستمرار بذهنية الانتصار هذه، فقد بدأ التبسيط الذهني يتطور وفق قوانينه الخاصة، دون أي تقيد بحقائق جديدة ظهرت في أواخر القرن العشرين، أو حتى بحقائق المنطق السليم.

إن نظريات التحديث التي ظهرت في أواخر الخمسينيات وبداية الستينيات من القرن الماضي، وبعد أن تم تجديدها قليلاً، تم النظر إليها وكأنها ثمرة لتطور في جوهر

العلوم السياسية. فتكون بذلك قد أقصت من مجال الاهتمام. ظواهر وعمليات كونية، غاية في الأهمية مثل: التناقض الصارخ المنذر بأخطار شتى بين "المدينة" العالمية و"القرية" العالمية من النواحي الاقتصادية- الاجتماعية- وهو ما يشكّل المحور الرئيس للقسم التالي من الدراسة. وفي هذا تأكيداً آخر على صعوبة فصل مسارات العولمة عملياً.

إن أزمات العولمة والنظام العالمي بوجه عام لا تنجم فقط عن التناقضات ذات الطابع الجيواقتصادي، فهناك تناقضات وصراعات تبرز تحت تأثير مبادرات أحادية الجانب تتخذها النخب السياسية في البلدان الصناعية، وفي مقدمتها الولايات المتحدة، تجاه الدول التي ترى فيها -البلدان الغربية- أحد أسباب التناقضات الجيوسياسية على الصعيد العالمي، أو في "الأسرة الدولي"، التي تزعم بناءها. إن النتيجة المباشرة التي أسفرت عنها هذه المشكلة الكبيرة هي إطلاق بعض الدول الغربية، على العديد من الأنظمة السياسية مثل (إيران، سورية، العراق، كورية الديمقراطية، كوبة، العراق، وغيرها) تسمية "الأنظمة الإرهابية". ومن الجدير بالذكر أن ظهور مصطلح ":الأنظمة الإرهابية" يعود إلى النصف الأول من ثمانينيات القرن العشرين، حيث برزت آنذاك، وبعد سلسلة من الإخفاقات على الصعيد العالمي، خلال السبعينيات منه، حاجة ماسة من جانب الولايات المتحدة الأمريكية، للتغلب على الأزمة الداخلية الأخلاقية -النفسية، الناجمة عن "مركب الهزائم"، وذلك من خلال الاستعانة ببعض الأفكار المحافظة الجديدة، التي تفترض على وجه الخصوص القيام بخطوات هجومية على الصعيد الخارجي، فقيام الثورة الإيرانية، وما أعقب ذلك من احتجاز لبعض المواطنين الأمريكيين في إيران، أو حتى بصيغة واضحة وبسيطة من التضامن داخل المجتمع الأمريكي، وعدم قبول للأصولية الإسلامية، والعمل الجاد والحاسم لقطع الطريق على كل المحاولات الرامية لإحياء "القيم الدينية الهدامة"، ونشرها في البلدان المجاورة،

التي تعدّ منطقة حيوية لمصالح الولايات المتحدة الأمريكية، تجلت أهميتها بشكل أوضح فيما بعد بحربي الخليج الأولى والثانية على التوالي.

في جانب آخر، وضمن السياق نفسه نجد أن المساعي المحمومة لألمانية الموحدة عام ١٩٩٠، قد تأكدت، نحو استعادة "مواقعها التاريخية"، المفقودة في جنوب شرق أوروبة، حتى لو كان الثمن تقطيع أوصال يوغسلافية الاتحادية. ولم تكن الأهداف والمقاصد الألمانية تندرج تماماً ضمن فهم الإدارة الأمريكية الجمهورية المحافظة آنذاك للوضع في البلقان، والتي كانت ترى حينها ضرورة المحافظة على وحدة يوغسلافية، إنما في إطار ديمقراطي جديد ينسجم مع الطروحات الغربية سياسياً واقتصادياً. وبعد أن أصبح الانفصال حقيقة واقعة، برزت أمام الغرب مشكلة الحفاظ على مواقعه الجيوسياسية في البلقان أمام شبح الحرب الأهلية. وقد تم تحقيق هذه الاستراتيجية من خلال المبادرات والخطط المقدمة عن طريق مؤسسات حلف الناتو، الإقليمية العسكرية والسياسية، لأن نشاط المنظمات الدولية، وفي المقام الأول منظمة الأمم المتحدة، لم تكن مقبولة قطعاً من جانب الولايات المتحدة الأمريكية.

إن استخدام البنى العسكرية-السياسية الإقليمية الغربية في البلقان، أو الخليج أو إفريقية...إلخ، تحت غطاء وهمي من الأمم المتحدة، يأتي مرتبطاً بالظرف الناجم عن انهيار حلف وارسو وانهيار المنظومة الاشتراكية، وانتهاء الحرب الباردة وما طرحته هذه المتغيرات موضوعياً أمام الولايات المتحدة والغرب لإضفاء الشرعية الدولية على الناتو، كمؤسسة شرعية قانونية تمارس نشاطها تحت غطاء دولي في ظروف جديدة، تتحدد مخاطرها وفقاً للمصالح الحيوية الغربية بوجه عام والأمريكية بوجه خاص.

إن نتائج الأعمال العسكرية للغرب، في البلقان أو الخليج ضمن الإطار أو المسار السياسي للعولمة، ستترك آثاراً بعيدة المدى (من حيث تفاعلها) بما ستخلفه من آفاق سياسية سلبية، عرّضت "عملية" العولمة ومنظومة الاتفاقيات الدولية برمتها كهيكل

"سياسي – حقوقي" للعلاقات الدولية الجديدة، لامتحان جدي. كما بدا بصورة خاصة، أن نظام عدم انتشار الأسلحة النووية في وضع معقّد وخطير للغاية، فبعد الكيان الصهيوني، بدت العراق، والهند، والباكستان. وربما بلدان أخرى تمتلك هذه الأسلحة من منطلق إدراكها لضروراته، كوسيلة لردع العدوان، فأصبح هذا الإدراك يمتلك أساساً منطقياً من وجهة النظر السياسية السليمة. وتزداد خطورة هذا المنطق في العديد من البلدان ذات البنى الإثنية المعقدة، كالمناطق الكردية من تركية، وغيرها من الاثنيات الأخرى، ومنطق الغرب في تقسيم حركات الانعتاق أو الانفصال في تلك المناطق إلى حركات "عادلة" و"غير عادلة" وفقاً للمعايير الغربية.

إن ما حصل ويحصل من تطورات سياسية وعسكرية في العالم، منذ مطلع التسعينيات، كان يرافقه وبشكل موازي، تيار فكري سياسي غربي ينتمي لتلك الأحداث ويتداخل معها، فبعد أن نشر "فوكوياما" كتابه الشهير "نهاية التاريخ"، جاء الكاتب الفرنسي "بييرتويليه" بكتاب تحت عنوان: "الانفجار الأعظم"، والذي يتحدث فيه عن فناء الحضارة الغربية بأسلوب أدبي أقرب إلى قصص الخيال العلمي، إنما بطريقة رمزية عن المستقبل الإنساني، ويميز في فصول الكتاب بين "إنسان المدينة" و":إنسان الاقتصاد"، و"إنسان الرشوة" "إنسان التقنية" "إنسان العلم" وهم من سيدير العالم في القرن الحالي. ليأتي بعد ذلك كتاب آخر بالغ الأهمية للكاتب الأمريكي البروفسور "صموئيل هانتغتون" تحت عنوان: "صدام الحضارات"، وقد نشر في عام ١٩٩٣. ومنذ ذلك الوقت أصبح هذا العنوان موضوعاً عاماً لكثير جداً من الردود والمناقشات حول الأفكار الواردة فيه، والتي تحمل في معظمها معارضة أو عدم اقتناع بها. ويضاف إلى ذلك عشرات الأسماء والعناوين(٥)، التي روجت بشكل أو بآخر لمستقبل العالم سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وفلسفياً، بعد انهيار الحرب العالمية الباردة، وظهور عالم القطبية الواحدة. ونظراً للأهمية التي أحاطت أفكار "صدام الحضارات"، سنحاول استخلاص الرؤى الرئيسة فيه، كما وصفها الباحث والمفكّر العربي محمد عابد

الجابري متسائلاً: لماذا توارت فكرة "نهاية التاريخ" بسرعة واختفت، ولم تعد تثير الاهتمام، بعد إعلان هانتنغتون عن أطروحته، وهل يرجع ذلك إلى كون مركز هذا الأخير في مجال الدراسات الاستراتيجية والعلاقة مع الإدارة الأمريكية، أقوى بكثير من مركز ذلك الأمريكي من أصل ياباني، أم لأن أطروحة صدام الحضارات، إنما قصد منها إزاحة فكرة نهاية التاريخ من مسرح الأحداث، ولماذا كل هذا الانشغال بها؟(٦).

إن معظم الكتابات المذكورة أعلاه وغيرها، المنتشرة في الغرب بكثرة، تفصح عن اتجاه جديد للتفكير الغربي بالعالم ومستقبله، وللسياسة الواقعية في العالم الجديد، والأنماط الجديدة للأمن العالمي في القرن الحادي والعشرين، وما العبارة الأخيرة إلا عنوان مقالة لكاتب صحفي بريطاني نشرها في مجلة "شؤون دولية" الأمريكية في ١٩٩١/٧/٣، أي قبل أطروحة "صدام الحضارات" بسنتين.

إن التصور الجديد للعالم أخذ يختلف كلياً عما كان عليه حتى ثمانينيات القرن العشرين، فالعالم الآن يقسم إلى: مركز، يتكون من كتلة رئيسية من الاقتصاديات الرأسمالية المسيطرة على العالم، وأطراف تتكون بدورها من مجموعة الدول الأضعف من النواحي الصناعية والمالية والسياسية، تتحرك ضمن نمط من العلاقات التي يشكلها المركز في المقام الأول. يضاف إلى ذلك "أشباه الأطراف" وهي الدول الأقوى في الأطراف(٧). إن التطورات التي حصلت في المركز كما يلخصها "باري بوزان" في مقالته تلك هي:

١- عودة ظاهرة "الدول العظمة" كإطار يجمع ذوي القوة في العالم.
٢-بروز الرأسمالية الليبرالية.
٣-قيام جماعة أمنية تضم المراكز الرئيسة للقوة الرأسمالية في أمريكة الشمالية، وأوربة واليابان، وأسترالية، وما يميز هذه المجموعة، عدم استخدام القوة العسكرية في علاقاتها مع بعضها البعض.

٤-تعزيز قوة وفعالية المجتمع الدولي، بمجموعة من المؤسسات والتنظيمات مثل الأمم المتحدة، والمجموعة الأوروبية، وصندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، ومنظمة التجارة العالمية...إلخ.

٥-وستنعكس هذه التطورات التي عرضها المركز على الأطراف في المجالات التالية:

السياسية: بحيث تنخفض قيمة الأطراف بوصفها "مغانم إيديولوجية" أو مواقع استراتيجية.

العسكرية: كنتيجة لتفشي النزاعات في الأطراف، فيزداد دور مجلس الأمن لفصل النزاعات، وأداة لإضفاء الشرعية على نظام "الأمن الجماعي".

الاقتصادية: ستظل الأطراف، أطرافاً، بسبب المعوقات الذاتية، وبسبب تدخل المؤسسات التي يشرف عليها "المركز". الأمر الذي قد يخلق ما يمكن أن يسمى "الاستعمار المؤسسي".

الاجتماعية: فمن الأرجح برأي "بوزان" أن يصبح الأمن الاجتماعي مسألة أكثر أهمية عما كان عليه الحال زمن الحرب الباردة.. ويتعلق الأمر بالأخطار، ونقاط الضعف، التي تؤثر في أنماط هوية المجتمعات وثقافتها، ويرى الكاتب أن الهجرة وما يسميه بالتصادم بين الهويات الحضارية المتنافسة، أهم قضيتين في هذا المجال.

البيئية: ينظر لهذا المجال خارج نطاق "الأمن" كونه مسألة تتعلق بالاقتصاد، أي بكيفية حساب تكاليف التلوث الناتج عن النشاط الصناعي، والطابع الكلي للبيئة على مستوى الكرة الأرضية سيعطي المركز أسباباً للتدخل في شؤون الأطراف بدعوى الأمن البيئي.

وهنا لا بد من الإشارة إلى عدم قدرة مجموعة المركز التدخل المباشر مع الولايات المتحدة الأمريكية التي قرر رئيسها الجديد "بوش" الابن قبيل نهاية شهر آذار من العام ٢٠٠١، الانسحاب من اتفاقية "كيوتو" الدولية الرامية لخفض الانبعاثات الكربونية، المؤدية إلى رفع درجة حرارة الأرض. وعلى خطورة هذا القرار، علماً أن الولايات المتحدة بمفردها أطلقت ما يزيد عن خمس مليارات من الأطنان المترية من انبعاثات ثاني أكسيد الكربون خلال عام ١٩٩٦، بما يعادل أكثر من ٢٢٥ من الإجمال العالمي لانبعاثات الكربونية، وفقا لتقدير التنمية البشرية لعام ١٩٩٩م، اقتصر الأمر غربيا "مركزيا" على مجموعة من المواقف الإعلامية والتصريحات عديمة الفعالية مما يدلل حقيقة على وجود تراتبية في المركز نفسه من جهة، ووجود مدير أو قيادة شبه منفردة تدير شؤون المركز هي الولايات المتحدة الأمريكية. ومبررات ذلك كثيرة، فالغرب قاطبة يدرك أن أمريكة وحدها في العالم تستطيع أن تحرك جيشاً حديثاً ضخماً إلى أي مكان في العالم،وما حرب الخليج الثانية إلا مثالا على ذلك، ومن ناحية اقتصادية، فإن تكاليف تلك الحرب، كان من الممكن للولايات المتحدة أن تتحملها بيسر،فتلك التكاليف كانت صغيرة للغاية بالمقارنة بناتج قومي إجمالي يزيد عن ثمانية آلاف مليار دولار[١] في العام،أما المعونة المالية التي طلبتها الحكومة الأمريكية،فقد جاءت من البلدان التي لم تقدم جنودا، ولم يكن ذلك للإسهام في بعض تكاليف تلك الحرب، وإنما لإقناع الرأي العام الأمريكي، والعالمي أن الحرب أساسها التحالف وليست مجرد جهد أمريكي منفرد.

المسارات الاقتصادية-الاجتماعية:

يتربع فندق "فيرمونت" على مرتفعات "نوب هيل" المطلة على وسط "سان فرانسيسكو" وقلبها التجاري، ويعدّ الفندق المذكور من أكثر الأماكن المناسبة في العالم للرؤى ذات الأبعاد العالمية. فمنذ ١٩٩٥، التقى في هذا المكان قادة كبار على المستوى العالمي منهم غورباتشوف، جورج بوش "الأب"، جورج شولتز، تاتشر، مع مجموعة من أباطرة العالم الجدد، وأصحاب المليارات وكهنة الاقتصاد العالمي الجديد أمثال رئيس مؤسسة "سي. إن.إن"، التي غدت بعد دمجها مع شركة "تايم وارنر"، أكبر اتحاد في مجال المعلومات في العالم. وعملاق التجارة، واشنطون سي سيب وغيرهم. أما الغاية من اللقاء فهي تبيان معالم الطريق إلى القرن الحادي والعشرين، التي ستفضي إلى حضارة جديدة. واستهلت المناقشات -المؤطرة بدقة- بتقرير حول "جون جيج" قائلاً: "إننا لا نحتاج إلى الحصول على تأشيرات السفر للعاملين لدينا من الأجانب، فالحكومات ولوائحها لم تعد لها أهمية في عالم العمل. إن الشركة تتسلم بواسطة الكومبيوتر طلبات للعمل من كل أنحاء المعمورة، ونتعاقد مع العاملين لدينا بواسطة الكومبيوتر، وهم يعملون لدينا بالكومبيوتر، ويطردون من العمل بواسطة الكومبيوتر أيضاً(٩)..."، واختصاراً لهذا اللقاء الموسع، يخرج الجميع بنتيجة بالغة الخطورة، تختزل المستقبل البشري القادم برقمين هما العشرين، والثمانين، أو الخمس، والأربعة أخماس، مؤكدين أن ٢٠% من قوة العمل العالمية ستكفي القرن القادم للحفاظ على نشاط الاقتصاد الدولي، وهو ما ذكره في الاجتماع عملاق التجارة "واشنطون سي سيب" قائلاً: "لن تكون هناك حاجة إلى أيدي عاملة أكثر من هذا"، فخمس قوة العمل سيكفي لإنتاج جميع السلع ولسدّ حاجة الخدمات الرفيعة القيمة التي يحتاج إليها المجتمع العالمي. ثم توجه الحضور السياسي -الرأسمالي للحديث عن مستقبل العمالة وأولئك الذين لن يحصلوا على فرصة للعمل، ليخرجوا وعلى لسان "بريجينسكي" مستشار الرئيس الأمريكي للأمن القومي، بنتيجة شديدة الجرأة إلى حدّ الوقاحة-

تختصر بالمصطلح "Tittytionment"، الذي طرحه المستشار لأقوى دولة في العـالم، والمنحوت –وهذا المصطلح– من كلمتين تعريبهما "تسلية، وحلمة"، دون أن يقصد منها الجنس طبعاً، بل هي إشارة للحليب الذي يفيض عن ثدي الأم المرضع، فبخليط مـن التسلية المخدرة، والتغذية الكامنة، يمكن تهدئة خواطر سكان المعمورة المحبطيـن(١٠). بهذا الشكل رسمت في "فيرمونت" الخطوط العريضة للنظام الاجتماعي فـي القـرن الجديد. واصفاً إياه آخر رؤساء الاتحاد السوفيتي –ميخائيل غورباتشوف، الذي كـان أول رئيس من بدأ بتحديد مسار المستقبل الجديد –من خلال مداخلتـه التاليـة: "هـل سيتحول العالم بأجمعه إلى برازيل كبيرة، أعني إلى دول تسـودها اللامسـاواة، مـع وجود أحياء مقفلة تسكنها النخب الثرية؟ إنكم بهذا السؤال تطرحون لب المشكلة علـى بساط البحث، وإنها لحقيقة أن روسية نفسها ستصبح على شاكلة البرازيل"(١١).

إنها صورة واضحة المعالم، رغم كثرة تفاصيلها، فكبار رجال السياسة في العالم، إلى جانب عتاة المال والشركات العملاقة، متعددة الجنسيات، يتبـادلون الآراء ويضعـون التصورات، ليقوم جهابذة الفكر الاقتصادي الجديد بترويج وتسويق وتعميم تلك الأفكار بأسلوب يتناسب مع روح وسمات العصر الذي يسعون –مجتمعين– لبلورتـه وجعلـه واقعاً قائماً، لا مجال للخروج أو الحياد عنه، فتتجلى الهيمنة المطلقة للاقتصاد المعولم على المجتمع بثقافته وأخلاقياته، لتتلاشى الخصوصيات والأصول ومختلف "العلاقـات الفارقة"، التي قد "تسيء" أو تعرقل آليات عمل النظام الجديد، ولا بأس مـن وجـود علامة فارقة وحيدة بين المجتمعات المتقدمة والمختلفة، أو ضمن المجتمـع الواحـد، وهي الغنى، والفقر، ولا إمكانية ترتجى من استمرار وجود طبقة متوسـطة. ومـبرر ذلك على الصعيد العالمي تبلور ظاهرة النمو بدون فرص عمل، أي حتى ولـو ازداد الإنتاج، فإن حجم العمالة في تراجع مستمر. فقد كان النمو في الناتج المحلي الإجمالي في البلدان النامية من ١٩٦٠ إلى ١٩٧٣، يصل إلى ٤–٥%، في حيـن كـان نمـو العمالة خلال الفترة ١٩٧٣–١٩٨٧، ولكن معدلات العمالة انخفضت بحدة في كل مـن فرنسة، بريطانية، ألمانية، أثينة. وفي الولايات المتحدة كان الانتعاش الاقتصادي، الذي

تحقق حتى منتصف التسعينيات، انتعاشاً بدون فرص عمل. أما مع نهاية القرن العشرين وفي عام ٢٠٠٠م، تحديداً فقد ازدادت الهوة اتساعاً بين معدلات نمو الناتج المحلي، ومعدلات نمو العمالة في مختلف أرجاء العالم، كما تشير إلى ذلك تقارير التنمية البشرية الصادرة عن "برنامج الأمم المتحدة الإنمائي"، ويوضح الجدول رقم (١) الواقع الحقيقي لهذه الظاهرة الخطيرة بالأرقام في مختلف بلدان العالم، بشكل إقليمي. ونرى في تحليل تلك المعطيات المتضمنة في الجدول، مقدمة أساسية لما آل – وسيؤول– إليه توزيع الثروات في العالم، من تركيز شديد، ومستمر للثروة على الصعيد العالمي، فمن بين ٢٠٠ أكبر الشركات العالمية المسيطرة عملياً على الاقتصاد العالمي، والماضية قدماً في تعزيز هذه السيطرة، تمتلك خمس دول (الولايات المتحدة الأمريكية، اليابان، فرنسة، ألمانية، بريطانية) ١٧٢ شركة منها. كما تشير التقارير ذاتها أن حوالي ٣٥٠ شخصاً من كبار أثرياء العالم يمتلكون من ثروات نقدية تعادل ما يمتلكه ملياران ونصف من فقراء العالم. وأن الخمس الأغنى من البشرية بات يمتلك من الثروة العالمية لوحده (تقرير التنمية البشرية) ١٩٩٥، ما يقارب ٨٣% من تلك الثروة، والباقي أي ١٧% تتوزع أيضاً بشكل غير عادل على ٨٠% من سكان العالم.

جدول ١

الرقم القياسي للناتج المحلي الإجمال، والعمالة ١٩٩٠–٢٠٠٠م

(١٩٧٥=١٠٠)

البيان	١٩٧٥		١٩٩٠		٢٠٠٠	
	الناتج المحلي	العمالة	الناتج المحلي	العمالة	الناتج المحلي	العمالة
منظمة التعاون والتنمية	١٠٠	١٠٠	١٤٩	١٢٠	١٩١	١٢٤
أمريكة اللاتينية	١٠٠	١٠٠	١٤٣	-١٣١	١٩١	١٤٨
جنوب آسية	١٠٠	١٠٠	١٩٨	١٣٧	٢٩٩	١٥٤
شرق آسية	١٠٠	١٠٠	٣٠٤	١٨٣	٥١٨	٢٥٦
إفريقية–جنوب الصحراء	١٠٠	١٠٠	١٤١	١٢١	١٩٦	١٥٠

المصدر: تمت جدولة الأرقام من الشكل البياني رقم(٣)من تقرير التنمية ١٩٩٥البشرية–مصدر سابق ص ٣٦.

بمنتهى السهولة تتضح النتائج الاجتماعية لتلك المتناقضات الاقتصادية، والتي تنعكس بجلاء على تعميق الهوة بين دول العالم، وضمن الدولة الواحدة، لا كشرائح اجتماعية فحسب، بل وعلى صعيد فئات، وأفراد المجتمع الواحد. ولم يعد التفاوت الحاد في الدخل سمة من سمات البلدان المتخلفة بل أصبح سمة عالمية قائمة في البلدان الصناعية والمتخلفة على حد سواء، وإن تفاوت معاني ودلائل الفقر والغنى بينهما فإننا نجد "٥٠ مليوناً من الفقراء في مجموعة الدول الأوروبية، حسب إحصاءات العام ١٩٨٥، أي ١٥,٥%، من مجموع السكان، و٣٢ مليوناً في الولايات المتحدة الأمريكية. حسب إحصاءات ١٩٨٧، أي ١٣% من مجموع السكان"[١٢]، مما يعزز تباعاً ضعف النسيج الاجتماعي في هذه البلدان بمختلف مظاهره التي تتفشى بتزايد في المجتمعات المتطورة والمتخلفة أيضاً من جرائم غير منظمة، ومنظمة تقودها عصابات ومافيات محلية ودولة، غدت مع مطلع القرن إحدى البُنى الاجتماعية الفاعلة سلبياً في المجتمعات، وعلى مختلف الأصعدة والمستويات بدءاً من قمة الهرم (السلطة السياسية) وصولاً إلى قاعدته على مستوى الأفراد. ولتأكد هذه الحقيقة نعود مجدداً إلى المعطيات الإحصائية المتوفرة فقط عن البلدان المتطورة، والواردة في الجدول رقم (٢) على شكل مقارن بين نهاية عقدي الثمانينات والتسعينيات من القرن العشرين.

جدول (٣) بعض مظاهر ضعف النسيج الاجتماعي لبلدان متطورة مختارة الأعداد لكل ١٠٠ ألف نسمة فيما عدا النسب المئوية لحالات الطلاق

البيان الدولة	حالات القتل العمد		حالات الانتحار		حالات الاغتصاب المسجلة		جرائم المخدرات		نزلاء السجون		حالات الطلاق
اليابان	١,٥	١,٤	١٧	٣٥	٥	٣	٣١	١٨,٥	٠٠	٣٧	..
السويد	١,٥	١٢	١٩	٢٨,٥	٤٣	٥٠	٠٠	٣٥٠	٠٠	٧٠,٤	٦٤
الولايات المتحدة	٨	٩	١٣	٢٣	١١٨	٩٧	٢٣٤	٠٠	٤٢٦	٥٥٤	٤٦
فرنسة	٤,٦	٠٠	٢١	٤٠	١٧	٢٧	٠٠	٩٣	٤٠	٠٠	٤٣
بريطانية	١,٦	٠٠	٨	١٤	٠٠	٠٠	٠٠	١٩	٧٧	٠٠	٥٣
ايطالية	٤,٣	٥,٣	٨	١٦,٧	٤	٣,٤	٦	٦,٧	٦٠	٩٠	١٢

ملاحظة: عدم توفر بيانات المصدر.

تقارير التنمية البشرية من١٩٩٥-٢٠٠٠ الصادرة عن البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة. مركز دراسات الوحدة العربية-بيروت.

فإذا كان حال البلدان المتطورة على ذاك النحو، فكيف يمكن تصوّر الواقع الاجتماعي في البلدان الأقل تطوراً، أو البلدان النامية ومنها بلداننا العربية.

ما لا شك فيه أن الحقائق الاقتصادية والاجتماعية الجديدة في هذه البلدان أشد وضوحاً كنتائج، يمكن وصفها بالكارثية. وبنظرة عامة نلاحظ مدى تردي الواقع الاقتصادي والاجتماعي للبلدان النامية، التي تشكّل نحو ٨٠% من سكان العالم، وتساهم بأقل من ٢٠% من الناتج المحلي الإجمالي العالمي، وهذه النسبة تتحقق بمعظمها من قبل عدد محدود من البلدان النامية فقط (البيانات لعام ١٩٩٧)، (كما أوردها تقرير التنمية البشرية الصادر عام ١٩٩٩، ص ١٨٢)، حيث يصل نصيب الفرد في بعض منها إلى أكثر من ٣٢ ألف دولار سنوياً في سنغافورة، لينخفض إلى ١١٠ دولارات فقط في إثيوبية، مما يدلل على دور محدود هامشي جداً للبلدان الأقل تطوراً والفقيرة في عصر العولمة، فهي بذلك عاجزة عن تأمين القدرة اللازمة للتحرك أو التفاوض، أو إيصال رأيها للمحافل الدولية والأخذ به، ولا غرابة أن نجدها مدفوعة للانضمام في تيار العولمة بفعل تبعيتها وضعف قدرتها التفاوضية، لتترك تواجه مصيرها في التفكك والأمراض والمجاعات. فمن بين ١٣٥ دولة انضمت إلى منظمة التجارة العالمية (أحدث مؤسسة دولية للعولمة) هناك ١٠٠ دولة نامية /٦٠/ منها هي الأفقر في العالم، مع العلم أن مبادراتها التجارية الدولية لا تمثل أكثر من ١% من حجم التجارة العالمية، لذا من الطبيعي أن تظل هذه الدول على هامش مؤسسات العولمة ومنتدياتها، كما حصل في المؤتمر الوزاري للدول الأعضاء في المنظمة المذكورة، الذي انعقد في مدينة "سياتل" الأمريكية بتاريخ ١٩٩٩/١١/٣٠، حيث أعلن أحد أعضاء الوفود الإفريقية قائلاً: "يعاملوننا كالحيوانات لقد أبقونا خارجاً في البرد، ولم يبلغونا بشيء". وقال أحد الدبلوماسيين الآسيويين المشاركين في الاجتماع: "لقد ألقوا بنا خارج الأبواب، وهذا التصرف لا يعود إلى أن المؤتمر كان الأسوأ من حيث التنظيم منذ الحرب العالمية الثانية فحسب، بل نتيجة نيّات سيئة أيضاً"(١٣).

ويزداد تهميش البلدان النامية التي اضطرت بأغلبيتها تحت وطأة مديونيتها لتنفيذ تعليمات المؤسسات المالية الدولية وخاصة البنك الدولي للإنشاء والتعمير، وصندوق النقد الدولي (حارسا العولمة الأمينان)، من برنامج للتكيف الهيكلي، وانحسار دور الدولة في النشاط الاقتصادي، وزيادة نشاطها القمعي لتوفير المناخ الملائم للنشاط الاقتصادي والتجاري السوقي، الذي انعكست على المجتمع بمظاهر متعددة بدأت بتراجع حصة الفرد من الغذاء وتواصلت بتدني المستوى الصحي وتراجعه وانتشار الأمراض والأوبئة والبطالة والفقر والاغتراب النفسي والاجتماعي، وما يمكن أن يتولد عن ذلك من خراب وتشويه للنسيج الاجتماعي ككل.

العرب والعولمة:

لو انتقلنا إلى جانب أكثر تخصيصاً، وتساءلنا كيف تبدو مسارات العولمة السياسية الاقتصادية –الاجتماعية)، في الوطن العربي؟ سنجد وباختصار من خلال معظم الدراسات التي تناولت هذا الموضوع من مختلف جوانبه، نظرة متشائمة لمستقبل العرب في ظل العولمة، وللدلالة على ذلك يكفي أن نستعرض فقط عناوين بعض تلك الدراسات المنتشرة في الكتب، والدوريات، ومحاور اللقاءات والندوات العلمية، المخصصة لهذا الغرض، فنجد على سبيل المثال لا الحصر*:

١–العولمة: هل هي انفجار الهوية.

٢–العولمة والعنف.

٣–تداعيات العولمة على المجتمع العربي.

* وردت تلك العناوين حسب تسلسلها أعلاه مكا يلي: العناوين ١-٢-٣ ملف خاص عن العولمة/ هوية وثقافة – مجلة الفكر العربي ٩٣ عام ١٩٩٨، وهي على التوالي ١- ابراهيم محمود، ٢- زهير حطب، ٣- د. عدنان سليمان، ٤- د. منعم العمار –مجلة قضايا استراتيجية- العدد ٤ حزيران ٢٠٠٠م، ٥- عواطف عبد الرحمن–مجلة النهج- العدد ١٤ ربيع ١٩٩٨، ٦- ندوة مهداة إلى سمير أمين–مركز البحوث العربية، والجمعية العربية لعلم الاجتماع–تحرير د. عبد الباسط عبد المعطي- الناشر مكتبة مدبولي- القاهرة ١٩٩٩م.

٤- العولمة ودورها في تهميش النظام الإقليمي العربي.

٥- الإعلام العربي وتحديات العولمة.

٦- العولمة والتحولات المجتمعية في الوطن العربي.

تلتقي تلك الدراسات وسواها على قضية رئيسة تتضح بشكل مباشر من طبيعة ومضامين العناوين المدرجة أعلاه، وهي الإجماع على أن ثمة مشاكل وتحديات وأزمات مستفحلة تواجه وستواجه العرب مستقبلاً، وتشكّل تحدياً خطيراً للنظام السياسي العربي القومي، وللأنظمة العربية القطرية. لذا تطالب تلك الدراسات بطريقة أو بأخرى من السياسيين، والمثقفين، ومختلف شرائح المجتمع من اقتصاديين وتجار، ورجال أعمال وإداريين ...إلخ، للعمل في مواجهة الأخطار القادمة تحت مسمى العولمة بشتى تجلياتها ومنعكساتها، بما يعزز العمل العربي المشترك، ويحفظ الأصالة والقيم الحضارية العربية وخصوصياتها التي ستعمل العولمة -فيما لو يتم ذلك- على مسحها وتعميم النموذج الحضاري الغربي، والذي بدأت ملامحه تظهر في مجتمعنا العربي هنا وهناك على شكل تحولات متعددة الأوجه نذكر منها ما جاء في ورقة العمل التي قدمتها د. نوال السعداوي تحت عنوان "الحراك والشراك" -في الندوة المنوه عنها أدناه- حيث ذكرت:

عن علاقة قضية المرأة بالعولمة، فقد تلقت المرأة العصرية والعربية ضربات متتالية مع تزايد قوة الرأسمالية، وما أنتجته من قيادات دينية -سياسية، فتراجعت حقوقها الاقتصادية تحت اسم العودة إلى التراث أو الهوية الدينية. وظهر في تقارير الأمم المتحدة اصطلاح جديد هو: "تأنيث الفقر"، فالمرأة هي أول من يطرد من سوق العمل حين تزيد البطالة.

- أحد التحولات المجتمعية، هو التجمع الاقتصادي على مستوى الطبقات الحاكمة، والنخبة، إذا أصبحت الأموال تتجمع أكثر فأكثر في أيدي عدد أقل فأقل من

الناس، وانتشرت ظاهرة المليونيرات والمليارديرات في بلادنا العربية، على غرار ما حدث دولياً.

- ازدياد الهوة بين الطبقات، فلا تكاد تمشي في أي شارع دون أن تشهد سيل السيارات الفاخرة جنباً إلى جنب مع سيل الأطفال الشحاذين ، يمسحون زجاج السيارات، في الإشارات، أو يمدون الناحلة الشاحبة يتسولون، عيونهم صفراء، بالمرض، أو الإنيميا والجوع، مع الحزن أو الألم المكبوت.

- مع الانفتاح الاستهلاكي الرهيب، وانفتاح شهية الأثرياء للثراء والبذخ، نسمع عن هذه الأم التي قتلت طفلها لأنها تخشى عليه الموت جوعاً، أو تلك التي قتلت ابنتها الشابة لأنها تخشى عليها من كلام الناس، أو الأب والأم اللذين ضربا ابنتهما حتى لأنها لم تلبس الحجاب...كل ذلك يتم في بلادنا تحت اسم العولمة دوليا والتراث محلياً.

أليست هذه الصور واقعية ومعاصرة في مجتمعنا اليوم. بالتأكيد نعم، وهي خطوات انحلال في الشخصية والمجتمع العربيين، نخطوها تحت ضغوط داخلية وخارجية بآن واحد، وهي هدف منشود لكل أعداء هذه الشخصية على كثرتهم بدءا من أعداء الداخل، انتقالاً إلى الكيان الصهيوني. وصولا إلى الولايات المتحدة الأمريكية. ولا مبالغة في ذلك. ويؤكد المفكر العربي د. سمير أمين[٤٠]: أن التحدي الراهن في ظل العولمة، لا يتم على أساس أن المراكز أكثر تصنيفا من الأقاليم الأخرى فحسب، وإنما المشكلة لدينا تكمن في احتكار تلك المراكز للآتي:

- الاحتكار التكنولوجي.

- احتكار السيطرة على رؤوس الأموال، ويضرب مثالا على هذا الاحتكار قائلا إن ٩٠% من الادخار المصري في الستينيات كان يجمع من خلال المؤسسات الحكومية، وتدور في البنوك وشركات التأمين المصرية، أما الآن النسبة من

الأموال موجودة في حسابات شخصية بالخارج، ولا تستطيع الدولة السيطرة عليها حتى ولو أرادت.

- احتكارات أخرى ذات طابع غير اقتصادي مثل الإعلام، والاتصالات، وبالتالي الاحتكار الثقافي.
- احتكار حق الحصول على الموارد الطبيعية، والذي لم تعد الملكية محدداً له. فالنفط العربي على سبيل المثال موجود بالأراضي العربية، ولكن من يقرر في نهاية الأمر استغلال أو عدم استغلال هذا النفط غير الاحتكارات الغربية؟

إزاء ذلك نحن بحاجة -كعرب- إلى إقليمية جديدة في مواجهة هذه الاحتكارات، وبالتالي فنحن في حاجة إلى مفهوم جديد للإقليمية يتجاوز المفهوم التقليدي، فثمة غياب لمشروع واضح في حين يجري تقسيم المنطقة إلى: المحميات الأمريكية المحتلة في الخليج ، ومنطقة الشرق الأوسط، والتي تضم مصر والمشرق العربي، و"إسرائيل" بمعنى أنه مشروع أمريكي إسرائيلي يسمى بالشرق أوسطية هدفه إلغاء الهوية العربية والدخول في دائرة التطبيع مع الكيان الصهيوني.

استنتاجات وخاتمة:

من الواضح أن البشرية تقف اليوم على حافة عصر جديد في كافة الحقول السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وتشمل أيضاً الحقول الفكرية من العلوم البحتة حتى الأعمال الأدبية. إننا نسير إلى قلب حضارة "الموجة الثالثة" ويسهل القول: "إن المستقبل يبدأ من الحاضر، أين هو الحاضر، وأي حاضر. إن حاضرنا يتفجر بالتناقضات. فأطفالنا منغمسون في المخدرات والجنس، والرحلات الفضائية، وبعضهم يعرف الكومبيوتر أكثر مما يعرفون آبائهم. ومع ذلك يهبط مستوى الخيار التعليمي بشكل متطرد، وترتفع معدلات الطلاق، وينهض معارضو تحرر المرأة للمطالبة بتجريد المرأة من حقوقها بعد أن صادقوا عليها.. والتضخم ضيق الخناق على دول

الموجة الثانية، والبطالة تتنفس كالنار في الهشيم. وتتضاعف التناقضات الاقتصادية. وتتعرض الدول القومية لهجوم مكثف باسم العالمية والوعي العالمي[١٥]، من هذا الواقع سننطلق لتحديد بعض الحقائق والاستنتاجات للعصر القادم، لعصر العولمة.

١- إن كل مجتمع، ولمواجهة متطلبات العصر الجديد، لا أن يدفع الضريبة المناسبة من أجل الانتقال إلى مرحلة نوعية جديدة، إذ ينبغي عليه، أن يعصرن قواه الإنتاجية القائمة، ويطور مهاراته المهنية، وحوافز العمل، وأن يحدد نوعياً وباستمرار بناء التحتية الصناعية والاجتماعية، وأن يتحدى بصورة فعالة، الأطماع الخاصة لمصالح النخب الحاكمة، وأن يجدد الكثير من العادات والتقاليد القديمة الأصيلة، وأن يدخل تغييرات جذرية في آلية تفعيل نظم الإدارة وتحديثها.

٢- ضرورة وضع تصورات ورؤى للآفاق المستقبلية بعيدة المدى للمجتمع، وللعالم أجمع، الأمر الذي يتطلب بالضرورة من القادة السياسيين والمثقفين والمفكرين في البلدان المتطورة والنامية على حدّ سواء، التفاعل بواقعية وموضوعية مع المشكلات القائمة. إن إدراك الآفاق المستقبلية، يتطلب قسطاً من المغامرة في النشاط والعمل الخلاّق.

٣- إن غياب الرؤية الشاملة للمشكلات المتغيرة والمتنوعة، يفترض أن تطور ثقافة الزمن المعاصر إنما يقترب من نهايته المنطقية، فالأفكار والنزعات والسيرورات التي تبلورت عبر التاريخ. قد وصلت إلى نهايتها الطبيعية، أو تقترب من الوصول إليها، مستنفذة كل مصادرها الحيوية، ويمكن أن ننظر إلى الحالة الراهنة للعمليات الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والثقافية المعاصر، بأنها تتسم بالركود، نظراً لغياب أية حلول تجديدية للمشكلات والصراعات المتعاظمة، والتي تكتسي بعداً كونياً، مثل الأزمة الاقتصادية المتصاعدة، والصراعات الأثنية

المتفاقمة، ومشكلة البطالة، ودنو الكارثة البيئية، وهرم السكان في البلدان المتطورة المعاكس تماماً لهرم سكان البلدان المتخلفة. والهجرة من الجنوب إلى الشمال، ومشاكل اللاجئين...إلخ.

٤- أظهرت الأحداث العسكرية، التي وقعت في العالم مؤخراً (الصراع العربي – الصهيوني- الخليج العربي- إفريقية- البلقان) أن نظام الأمن الوطني، الذي تراعى فيه مصالح جميع الأطراف المتصارعة، لا يمكن أن يتأمن برعاية الأحلاف العسكرية-السياسية الإقليمية، وإنما على أساس الالتزامات المتبادلة والمسؤولية، والضمانة الوحيدة لمثل هذه المسؤولية، هي المؤسسات الدولية التي تعكس تنوع المصالح للأسرة الدولية، ويأتي في المقام الأول منظمة الأمم المتحدة بحث يتواءم النظام العالمي، الذي يعترف بوحدة مصائر الحضارة العالمية، والذي تعززه المصالحة التاريخية من جميع المشاركين في العملية الكونية، والمستند إلى الاعتراف العام الشامل بأولوية وهيبة المنظمة الدولية. ومثل هذا النظام العالمي الآمن والمستقر، لا يمكن أن يكون إلا ثمرة للتعاون المشترك بين جميع الأطراف في العالم، ولا يمكن أن يأتي بالطريقة الحالية التي تتبعها الولايات المتحدة وبعض الدول الغربية، بفرض إرادتها ومصالحها بالقوة، وعن طريق المنظمة الدولية، التي تحول إلى دمية تتقاذفها مصالح تلك الدول وقرارات حكامها.

٥- إن محاولات حل مشاكل العالم من قبل المركز، وتجهل مصالح الأطراف -إن صح التقسيم- ستكون عديمة الجدوى، وسترتد سلباً على مصالح المبادرات بهذه الحلول وستتخذ ردات الفعل مظاهر مختلفة انعكست مؤخراً وتنعكس اليوم في تصاعد الإرهاب، والحركات الأصولية، وزيادة موجات الهجرة إلى الدول الصناعية، وتكثيف تجارة الأسلحة، ووصول السلاح النووي إلى أيد قد لا تفكر ملياً قبل استخدامه عندما ترى ضرورة لذلك، وانتشار تجارة المخدرات، وتبييض الأموال، وغيرها من ردات الفعل.

٦- إن إقامة الأمن والسلام وتحديث المؤسسات السياسية والمدنية ضمن الأطر الصحيحة تلقى معارضة شديدة من جانب خصوم أقوياء ليس من الخارج فقط، بل من داخل البلدان النامية فنجد أن حل النزاعات وتخفيض حدة الصراعات، إنما يلقى معارضة واضحة من جانب النخب السياسية التي لها مصلحة في الحفاظ على التصدع الثقافي في المجتمع، لأن الحروب والصراعات الداخلية لا تتطلب منها أعمال الذهن في برامج التحديث والتطوير، بل على العكس من ذلك، فإن هذه النخب ترى في الحروب الأهلية الوسيلة الوحيدة للمحافظة على مواقعها.

إن العصر الجديد يفرض على كافة المجتمعات تصميم هياكل سياسية جديدة وملائمة لحاجات عالم متغير، وعلى الرغم من صعوبة ذلك، لما سيلاقي من معارضة وصراعات قد تطول ملايين البشر، تبقى مخاطر عدم الإصلاح للمؤسسات وأنظمتها -بدءاً من "المنظمة الدولية الأمم المتحدة" وانتهاءً بمجالس الإدارات المحلية في البلدان والقرى- أعظم خطورة وأفدح خسارة، وكلما تم الإسراع بهذه العملية كانت النتائج أسلم. فالمعروف ولظروف تاريخية أن مؤسسات التمثيل في البلدان النامية لم تخرج إلى النور على قاعدة صحيحة موسعة. لذلك فغنى المؤسسات الحديثة الفعالة، بتأثيراتها المتبادلة، كفيلة بخلق آليات لحل الصراعات والنزاعات على أساس حلول مرضية للجميع، تجعل من صيغة عملها هذه مثار إعجاب في المجتمع، الأمر الذي يؤدي تدريجياً إلى توحيد الفضاء السياسي الداخلي، ويطور كبدايات أسس الوفاق في العلاقات بين الدول، ويتمون من جراء "نظام سياسي عالمي" تحتل فيه موقع الصدارة، تلك الدول المؤهلة للقيام بدور معنوي في الأسرة الدولية، ليصبح المعيار الأخلاقي، هو أساس التعامل الدولي، ليس القدرة العسكرية.

الهوامش

١) بول هيرست، جراهام تومبسون: **مساءلة العولمة** -ترجمـــــة ابراهيـم فتحـــي- المجلس الأعلى للثقافة- القاهرة ١٩٩٩، ص ص ٣-٤.

٢) مصطلح "**القرية الكونية**" أول من أطلقه علام الاجتماع الكندي -مارشـــال مـــاك لوهان- في نهاية عقد التسعينيات من القرن العشرين، الباحث.

٣) محمد عابد الجابري: "**قضايا في الفكر المعاصر**" مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٧، ص ١٣٦-١٣٧.

٤) هانس بيترمارتن ، هارالد شومان "**فخ العولمة**"، ترجمة عدنـــان عبــاس علـــي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٨، ص ٤٢-٤٤.

٥) سيار الجميل، **العولمة والمستقبل**، الأهلية للنشر والتوزيع، عمـــان، ٢٠٠٠، ص ٧٩.

٦) د. محمد عابد الجابري، **قضايا الفكر المعاصر**، مركز دراسات الوحدة العربيـــة، بيروت، ١٩٩٧، ص ٨٣.

٧) **المصدر السابق**، ص ٨٨.

٨) تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٠، **برنامج الأمم المتحدة الإنمائي**، ترجمة مركـز دراسات ، الوحدة العربية، بيروت ، ٢٠٠٠.

٩) فخ العولمة، **مصدر سابق**، ص٢٤.

١٠) **المصدر السابق**، ص ٢٧.

١١) **المصدر السابق**، ص ٢٩٣.

١٢) سيرج ميلانو، **الفقر في البلدان الغنية**، ترجمة نخلة فريفر، ت الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، ت ليبية، سرت ١٩٩٥، ص ١٢٣.

١٣) د. منير الحمش، سياتل، دافوس، بانكوك، **إفلاس دعاوى العولمة النيوليبرالية**، مجلة قضايا استراتيجية، المركز العربي للدراسات الاستراتيجية، حزيران ٢٠٠٠، العدد ٤.

١٤) سمير أمين، نقاشات في أوراق ندوة: **العولمة والتحولات المجتمعية في الوطن العربي**، مصدر سابق، ص ٣٨٦.

١٥) ألفن توفلر، **حضارة الموجة الثالثة**، ترجمة عصام الشيخ قاسم، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، ليبية، سرت ١٩٩٠، ص ١٤٢.

مراجع البحث

- بول هيرست، جراهام تومبسون: **مساءلة العولمة** -ترجمة ابراهيم فتحي- المجلس الأعلى للثقافة- القاهرة ١٩٩٩.
- هانس بيترمارتن ، هارالد شومان "**فخ العولمة**"، ترجمة عدنان عباس علي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٨.
- سيار الجميل، **العولمة والمستقبل**، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٠.
- د. محمد عابد الجابري، **قضايا في الفكر المعاصر**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٧.
- سيرج ميلانو، **الفقر في البلدان الغنية**، ترجمة نخلة فريفر، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، سرت ١٩٩٥.
- ألفن توفلر، **حضارة الموجة الثالثة**، ترجمة عصام الشيخ قاسم، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع.
- سرت ١٩٩٠، جان كريستوف روفين، **أوهام الإمبراطورية وعظمة البرابرة**، ترجمة أمل أبي راشد، الدار الجماهيرية، سرت ١٩٩٥.
- التقارير السنوية الصادرة عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، للأعوام ١٩٩٥-١٩٩٦-١٩٩٧-١٩٩٨-١٩٩٩-٢٠٠٠، ترجمة مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
- ابراهيم محمود، **العولمة هل هي انفجار الهوية**، مجلة الفكر العربي، العدد ٩٣، عام ١٩٩٨.

- د. زهير حطب، **العولمة والعنف**، مجلة الفكر العربي، العدد ٩٣، عام ١٩٩٨.
- د. عدنان سليمان، **تداعيات العولمة على العالم العربي**، مجلة الفكر العربي، العدد ٩٣، عام ١٩٩٨.
- د. منعم العمار، **العولمة ودورها في تهميش النظام الإقليمي العربي**، مجلة قضايا استراتيجية، العدد ٤، عام ٢٠٠٠.
- عواطف عبد الرحمن، **الإعلام العربي وتحديات العولمة**، مجلة النهج، العدد ١٤، عام ١٩٩٨.
- د. منير الحمش، سياتل، دافوس، بانكوك، **إفلاس دعاوى العولمة النيوليبرالية**، مجلة قضايا استراتيجية، العدد ٤ عام ٢٠٠٠، المركز العربي للدراسات الاستراتيجية، حزيران ٢٠٠٠.
- د. عبد الباسط عبد المعطي، **العولمة والتحولات المجتمعية في الوطن العربي**، ندوة مهداة إلى سمير أمين، إعداد مركز البحوث العربية.
- أسعد داغر: **مذكراتي على هامش القضية العربية** (بدون تاريخ أو مكان طباعة)، ص ٤.
- خيرية قاسمية: **الحكومات العربية في دمشق**، دار المعارف بمصر، ١٩٧١، ص ٢٢.
- مصطفى الشهابي: **المصدر السابق** والصفحة ذاتها.
- أسعد داغر: **المصدر السابق**، ص ٥.

دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية محكمة

«تعنى بتاريخ العرب»

تصدر عن لجنة كتابة تاريخ العرب - جامعة دمشق
السنة الرابعة والعشرون /العددان/ ٨٣-٨٤/ أيلول - كانون أول/ ٢٠٠٣

Directeur de la Revue	Dr. M. Issam A. Awwa Recteur de l'Université de Damas
Directeur de la Redaction	Abdul Karim Ali

Revue Historique éditée par le Comité de Redaction de l'histoire de l'histoire Arabe:

DIRASAT TARIKHIYYAH